

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
١٨ عاماً خداعاً لإسرائيل
قصة الجاسوس المصرى
رفعت الجمال

١٨ عاما خداعا لإسرائيل
قصة الجاسوس المصرى

رفعت الجمّال

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

أهدى هذا الكتاب إلى ابنى وابنتى
دانييل وأندريا ، وإلى شعب مصر
أصحاب الحق فى معرفة الحقيقة .

فالتراود بيتون

المحتــويات

صفحة

تصـــدير

الحقيقة التى أدين بهـا لـك

على الرغم من أننى لا أتحدث من موقع مشاهد محايد ليس طرفا فى الموضوع ، إلا أننى حاولت أن أقرأ هذه الصفحات قراءة موضوعية غير متحيزة . وكثيرا ما ساءلت نفسى لمـاذا قدّر لـى أن أكون ابنا للكاتبة وللرجل الذى كتبت عنه . لقد عبر كل منهما بطريقته الخاصة فى الصفحات التالية عن نفسه بدقة وصدق ، يجعلانى أناشد القارىء أن يأخذ كل ما اشتملتِ عليه مأخذا جادا . فلا شىء أكثر جدية وأشد قسوة من كلمة الحق .

إن ما يجعلنى أشعر بالراحة هو أن الشعب العربى فى مصر وغيرها من البلدان العربية الأخرى يحصل فى نهاية المطاف على ما هو حق له ، وعلى ما يخصه ، وعلى ما ينبغى أن يعرفه كاملا . يحصل على الحقيقة كلها كاملة . فهذا ما كان يريده أبى وعلى هذا النحو . إن ما قام به أبى إنما قام به من أجل بلده وشعبه ، وبدافع من إيمانه بهذا البلد وبحقه فى حياة عزيزة كريمة . وفى أن يؤمن نفسهِ من كل الأخطار .

لقد شاء قدرنا ، أنا وأسرتى ، أن نحيا مع هذا الميراث وله ، وأن نحمله باعتزاز وإحساس بأنه شرف لنا . ولم يكن هذا - أبدا - أمرا سهلا ويسيرا ، غير أننا بقينا نفسِ الأسرة على النحو الذى كانت عليه دائما . إذ تكمن قوتنا فى عقيدتنا بالحق والصواب وإيماننا بالله . لقد صمدنا معا أقوياء متكاتفين فى مواجهة العواصف والأنواء التى اجتاحت حياتنا على نحو ما يعرض هذا الكتاب ، وسوف نظل متكاتفين معا لننهض فى عزم وقوة بالمهامِ التى كتبها لنا الله تعالت رحمته .

كم بكينا بسبب أحداث محزنة دهمتنا ، غير أننا لم نيأس أبدا ولم نستسلم ، وعشنا ، ومضت بنا الحياة بفضل ما نتحلى به من إيمان .

وشيئا فشيئا تنامت ارتباطاتنا بمصر ، أرض الأهرامات ونهر النيل ، والمملكة العربية السعودية ، موطن مكة المكرمة ومهبط القرآن الكريم ، وكافة أقطار الشرق الأوسط التى زرناها فى الماضى ، وبدأنا نشعر بأن أفراحها وأتراحها جزء منا . وأصبحنا نحس برباط وثيق يجمعنا بها وبناسها ، وبأسلوب حياتهم وبطريقة معاملتهم لنا . لقد أصبحنا جزءا منهم ، ويراودنا الأمل فى العودة إليها مرات ومرات . ورغم أن شمس حياتنا لم تكن مشرقة على الدوام ، فإننا لا نزال على عهدنا نؤمن بكل معانى الخير التى تنطوى عليها نفوس أهل هذه البلدان ، الذين نحبهم ونجلهم ونشرف بهم وبالانتماء إليهم .

□ كم أنا فخور بأبى وأمى . فبفضلهما أصبحت ما أنا عليه الآن . لقد منحانى كل ما فى استطاعتهما ، وعلمانى الخشوع لله إجلالا وتعظيما . فلهما كل الشكر على ما أسدياه لى ، وسوف أبقى على حبى لهما ما حييت ، وستظل لهما دائما مكانة خاصة فى قلبى .

دانييل بيتون

□ شببت عن الطوق كطفلة عادية فى كنف أسرة عادية . لى أب وأم ، وقضيت الشطر الأكبر من حياتى مع أخى وجدى وجدتى . سافرنا كثيرا والتحقت بالعديد من المدارس التى يتم التعليم فيها باللغة الإنجليزية ، غير أننى لم أشعر يوما بأننى أختلف فى شىء عن الآخرين ، وكانت صدمة لى حين عرفت أن أبى بالتبنى جاسوس دولى . وكل ما أستطيع قوله هو أن أبى جاك بيتون ، هو أفضل أب يمكن أن يحظى به أى طفل وسوف أحبه دائما .

أندريا بيتون

الجزء الأول

حياتى مع جاك بيتون



١

فى « فرانكفورتر هوف » كانت البداية

كان البَرَد يتساقط خفيفا بينما الشمس تؤذن بالمغيب . كان فى مقدورى أن أسمع صوت الممرضات فى الطرقة يتأهبن لإعداد طعام الغداء . لم تكن غرفتى تشبه غرف المستشفيات الكئيبة ، بل كانت أشبه بغرفة فى فندق . غرفة فى فندق هادئ تماما . وكان الهدوء هو ما أنشده ، إذ أتاح لى الفرصة لأن أحاول أخيرا استجماع شتات الذكريات ، وأن أستخرج من ذلك الخليط المشوش ، معنى لتلك الحياة التى عشتها منذ أن مات عنى زوجى .

كان ذلك فى شهر أبريل ١٩٩٠ ، وكنت قد بدأت أسترد عافيتى وأبرأ من الشلل ومجموعة أخرى من الأمراض ، اضطرتنى لدخول ذلك المستشفى الذى يشبه الفندق الصغير الجميل ، فى تلك الغرفة الجميلة التى خصصوها لى والتى تضم تليفزيونا وحماما مستقلا ومكتبة وأريكة وكرسيين وستائر تبعث ألوانها على البهجة ، وسجادة على الأرض .

كان هذا المستشفى يقع فى مدينة « بادورد » ، وهى منتجع صغير فى الجبال يقصده الناس للاستشفاء ، وبه مركز تأهيل فى وسط غابة مترامية وهادئة . وكنت أستطيع من تلك الغرفة الواقعة فى الدور الأرضى أن أشاهد الغزلان والأرانب وهى تركض فى الصباح . وكان إجراء عمليات التدليك والتمارين الرياضية والسباحة والتدريب على السير جزءا من العلاج ليدى اليسرى التى كانت لا تزال تعانى من آثار الشلل حتى تستعيد دورتها الدموية كاملة .

كنت جالسة إلى المكتب الموجود فى غرفة المستشفى هذه أقلب الأوراق التى تركها لى زوجى ، وأحاول استجماع شتات نفسى وذكرياتى ، بعد حالة الغيبوبة وفقدان الوعى التى استمرت طوال الشهور الخمسة السابقة . وبدأ شريط حياتى يمر بخيالى بأكمله .

□ □ □

لقد تزوجت وأنا فى الثامنة عشرة ، غير أن هذا يتراءى لى وكأنه حياة أخرى . فلم أكن مهيأة لذلك ، كذلك لم يكن من تزوجته ، وبعد زواجنا بقليل أنجبنا ابنتنا . كانت نورا وضاءً ، غير أن نورها لم يكن ليخفى ظلالا قاتمة لرباط واهن وسيىء . فعندما يكون المرء فى شرخ الشباب ومشوش الفكر ، يتعذر عليه أن يجد راحة البال والرضا والمتعة أو يمنح ذلك . ولم يعرف زواجى الأول غير القليل النادر من أوجه الراحة والرضا والمتعة . كان خطأ أدركناه سويا ، ورغبنا فى وضع نهاية سريعة وحاسمة له بعد عامين . وبقيت معى أندريا ، وأسعد زوجى أن يختفى تماما من حياتنا .

كان أفضل خيار متاح لى آنذاك ، فى ظل انعدام أى عون من زوجى السابق ، أن أعود إلى بيت أمى وأبى . لم يكونا غاضبين ، لكنهما كانا يعلنان عن توترهما وضيقهما عند أول هفوة تصدر منى . وعندما لاحت لى فرصة الخروج من البيت إلى العمل لم أستطع أن أرفضها . ومما شجعنى أن أندريا كانت تحظى بفرصة متميزة للبقاء فى بيت جدتها . كانت الوظيفة التى عثرت عليها فى شركة للبناء والتشييد تقيم بيوتا وفيللات . وقد عملت فى هذه الشركة مع صديقتى هيلجا كسكرتيرتين . كانت هيلجا زميلة لى فى المدرسة الثانوية لمدة ٦ سنوات ، فلم أكمل تعليمى الثانوى بسبب زواجى المبكر ، فالناس فى ألمانيا يفرحون لزواج البنات مبكرا . وكان الخروج للعمل فرصة لاستعادة الثقة بالنفس والقدرة على لقاء الآخرين .

□ □ □



● جاك بيتون أو رفعت الجمال وزوجته فالتراود بيتون عقب زواجهما مباشرة .

كانت هيلجا تجيء إلى العمل متعبة كل يوم اثنين . وبدا لى وكأن عطلات نهاية الأسبوع أشد ارهاقا لها من أيام العمل . واعتادت أن تحدثنى عن الأماكن المثيرة التى تقضى فيها وقتها مع أصدقائها ، وعن الناس الذين تلتقى بهم ، وكانت تدعونى لمصاحبتها فى هذا غير أنى لم أكن أجد فى حياتى وقتا لمثل هذا . ذلك أن أندريا كانت تنتظرنى ، وبعد تجربتى الأخيرة فى مجال الحب لم أعد أعرف متى أستطيع أن أكرر التجربة . وفى النهاية كفت هيلجا عن مطالبتى بالانضمام لها فى امسياتها . غير أنه فى إحدى العطلات الأسبوعية ، كان هورست خطيب صديقتى وزميلتى هيلجا ، وهو صاحب شركة للاستيراد والتصدير ، سيصحب خطيبته وصديق لهما أجنبى قدم فى زيارة إلى فرانكفورت إلى مطعم فندق فرانكفورتر هوف الذى يقع فى قلب فرانكفورت ، وهو فندق عريق وجميل جدا ، وعرضا علىّ أن أصحبهما للاحتفال بالضيف الأجنبى فى هذه الليلة ، ليلة الرابع من أكتوبر ١٩٦٣ ، ووافقت دون أن أدرى أى طريق وضعت قدمى على بدايته .

وذهبنا للمطعم الأنيق فى الفندق ، وكان الاستمتاع بتمضية أمسية فى ذلك المطعم من أسباب موافقتى على صحبتهما . فقد ذهبت إليه من قبل عندما عملت ذات مرة كعارضة فى عرض للجواهر المصرية نظمه الملحق السياحى المصرى هناك ، عبد القادر السماحى . فقد كنت أعمل كعارضة للأزياء فى شركة للملبوسات فى أيام العطلات لأحصل على مزيد من النقود من أجل ابنتى التى لم يكن أبوها يساهم فى نفقاتها ، وعرفنى الملحق السياحى من خلال هذا ، وطلب منى أن أساهم فى عرض للمجوهرات المصرية نظمته شركة مصر للسياحة للدعاية لمصر .

وعندما ذهبت مع هيلجا وخطيبها هورست لمطعم الفندق وجدت هواءه معبقا بعطور فاخرة تفوح من ملابس النساء ومن الزهور الجميلة على أطراف سترات الرجال ، وكذلك من الورود الرائعة التى انتثرت على الموائد والتى تأسر بجمالها الألباب .

وكنت إذ ترى الملابس التى يرتديها رواد المطعم تخالهم وكأنهم قد خرجوا لتوهم من صفحات مجلات المودة الايطالية الفاخرة ، لكن جاك بيتون ، صديق هورست ، الضيف الزائر ، كان هو الأفضل .

كانت الموسيقى غاية فى الهدوء ، وهى دائما على هذا النحو فى ذلك المطعم ، حتى أننا نسميها موسيقى المصعد لأنها خفيضة وهادئة ، لكننى كنت فى كل الأحوال فى شغل شاغل عن كل ما يدور حولى ، فقد تعلق بصرى وفكرى وكيانى بالضيف .

قال لى ان اسمه جاك بيتون ، ولن أنسى ما حييت كيف قال لى ذلك . كان فى صوته سلطان واعتزاز وثقة ، شأنه فى ذلك شأن كل شىء يقوم به . كان جاك يدخن بشراهة ، ودون أن يضيع وقتا أخذ يسألنى عن كل التفاصيل المتعلقة بى ، وكنت أجد مشكلة فى إدراك معانى الجمل بدقة لأن إنجليزيتى كانت ضعيفة فلم أدرسها سوى فى المدرسة الثانوية ، غير أنه كان يفهم جيدا ما كنت أريد قوله . وعرف كل شىء عن حياتى وعملى وأسرتى وابنتى . كان نموذجا للسيد المهذب الودود رقيق الحاشية ، خفيض الصوت الذى لا يفقد

أعصابه أو يتوتر لأى سبب . وكانت الطريقة التى يعالج بها الأمور بسهولة ويسر وهدوء تؤكد أنه متمرس ومحنك وصاحب تجارب ، وحريص على مشاعر الآخرين .

لم يمض وقت طويل فى صحبته حتى كنت أعيد التفكير فى كل ما كان عقلى الشاب يعتقد أنه يعرفه . كان جاك يتحدث فى طلاقة وبساطة فى حين بدوت وكأن لسانى قد ألجم . كان على راحته مع كل شىء حوله ، وكنت أشعر تجاهه بأنى تلميذة فى مدرسة . وأحسب أننى وجدت نفسى مدفوعة لكى أفضى له وهو الإنسان الغريب عنى ، تماما ، بكل قصة حياتى خلال أول ساعتين من اللقاء ، وشعرت بالراحة بعدها . كان الليل ساحرا ، وكذلك كان هو بل كان أشد سحرا . أعرف أننا أكلنا معا ، ولكننى لا أذكر ماذا أكلنا . أعرف أنه كان طعاما شهيا لأنهم قالوا أنه مطعم متميز ، لكنى لم أر شيئا آخر غير عينيه . وددت لو أنهما بقيتا أمامى إلى الأبد ، لكن كان لزاما علـىّ أن أرحل . وحين قلت لجاك ان ثمة مسؤولية على عاتقى فى البيت عمرها ثلاث سنوات ، كان مثالا للرجل المهذب فى أكمل صورة ، وأقلنى فى سيارة أجرة إلى البيت .

كنا نسكن فى شقة جميلة فى حى هادىء فى شمال فرانكفورت فى شارع تحفه أشجار الكستناء وأوصلنى جاك إلى باب البيت ، وقال إنه سيسافر فى الصباح إلى فيينا فى رحلة تمتد عشرة أيام . ثم أردف قائلا :

- عند عودتى سوف أتزوجك .

قال عبارته المباغتة هذه ، واستدار منصرفا بسرعة ليعود إلى سيارة الأجرة التى انطلقت به قبل أن أعى ما قاله . وعقب هذه الليلة الجميلة قلت فى نفسى انه مجرد رجل مهزار ، وأيقنت أن هذه هى آخر مرة أراه فيها .

دلفت إلى داخل البيت وفى ظنى أننى سأبقى وحدى ، غير أن أمى كانت تنتظرنى . قالت إنها مستيقظة لأن أندريا لم تنم . غير أن ظنى انصرف إلى غير ذلك . أعدت لى القهوة (ونحو مائة سؤال) . حكيت لها عن أحداث الليلة ، وبدت سعيدة لما أرويه إلى أن ذكرت لها ما حدث أمام باب البيت ، فاستشاطت غضبا على نحو مفاجىء . وانقلب جاك عندها من الرجل المهذب

الساحر إلى ملك للعربدة وانعدام المسؤولية . وأخبرتنى أننى غير مهيأة لكى آخذ أمرا من هذا القبيل مأخذا جادا ، وكيف أننا لا نعرف بعضنا بعضا ، وأن واجبها أن تنبهنى إلى خطئى وأنا فى أول الطريق . وقلت لها اننى واثقة من أننى لن أراه ثانية ، وأنه ربما قصد بذلك المزاح ليس إلا . وهدأ هذا من روعها كثيرا مما ساعدنى على أن آوى إلى فراشى .

□ □ □

لم تكن هيلجا من النوع الذى يسهل اثناؤه عما عقد العزم عليه . وجدتها فى انتظارى صباح يوم الاثنين فى المكتب ، لتقول لى ان جاك عاد إلى الفندق بعد أن ودعنى ، وحكى كل شىء لها ولهورست . وقال لهما إنه جاد فى حديثه إلـىّ ، وأنه سيفعل كل شىء مهما كلفه هـذا فى سبيل الزواج بى ، وحـاولت هيلجا معـرفة كل شىء منى .

لزمت الصمت هنيهة عند سماعى هذا الكلام ، ذلك لأننى حتى ذلك الحين ، لم أكن قد سمحت لنفسى بأن آخذ حديثه مأخذا جادا . فأحلام اليقظة التى تداعب الفتاة بأن يتزوج بها سيد مهذب ، أنيق وكيِّس مثل جاك شىء ، والاستسلام للعيش فى الحلم شىء آخر . أما الآن ، وصديقتى تفضى إلـىّ بأن جاك كان جادا ، فقد بدأت أنا أيضا آخذ الأمر بجدية . قلت لها إن الأمر كله نوع من الجنون ، فلم نكد يعرف أحدنا الآخر . ورأيتها شغوفة جدا لأن تعرف القصة على لسانى . ولم أدرك إلا مؤخرا أنها كانت أيضا شغوفة أشد الشغف لأن تحل مكانى فى كل شىء .

فرغم صداقتى الطويلة بهيلجا ، فقد كان يثيرها أن مكانتى أعلى منها فى الشركة . فقد كنت مسؤولة عن تنظيم اللقاءات والاجتماعات والرحلات ، فى حين كانت هى تعمل على الآلة الكاتبة فقط وفيما أكلفها به . وقد حاولت إزاحتى من العمل والصعود لمكانى ووضعى فى مواقف محرجة ، وقد أثّر هذا على صداقتنا نوعا ما بسبب غيرتها منى لأنى كنت أحقق نجاحا لا تحققه هى .

جعلنى حديث هيلجا عما قاله جاك لها ، أبدأ التفكير فى إمكان أن يكون

مستقبلى مع هذا الإنسان . كان التفكير فى هذا – قبل الآن – نوعا من البلاهة ، ولكن لو صح ما يدور بخيالى فإن لقاء رجل مثل جاك أمر قد لا يتكرر .

كان للشركة التى أعمل بها وهى شركة Blandbau GMBH ، اتصالات كثيرة جدا بجميع أنواع الشركات فى ألمانيا والخارج . وكانت لى علاقات واسعة ووثيقة بأطقم السكرتارية فى هذه الشركات . وكان من المعتاد أن نتبادل المعلومات عن الأعمال والعملاء . وقد استفدت من هذا فى الحصول على معلومات عن جاك بيتون . ومن جانب آخر ، لجأت أيضا إلى شركة متخصصة فى مجال المعلومات اسمها Schimmelpfeng Auslandsdienst(*) ، وهى من كبرى الشركات فى ألمانيا للحصول على معلومات عن جاك ، لأعرف أكبر قدر من التفاصيل عنه .

وأخذت خطا دفاعيا لحماية نفسى برفض تصديق أن جاك سوف يتصل بى . وعموما كانت لا تزال هناك سبعة أيام حتى يحين موعد عودته . وفى هذه الأثناء ، واظبت على عملى باجتهاد ، وإن لم أعرف إلى أى حدّ أجدت فيه . كنت أميل للاعتقاد بأنه لن يتصل ، ومع ذلك كنت أهبّ واقفة كلما سمعت رنين الهاتف . وأمسكت عن الكلام مع هيلجا فى الموضوع ، ومن عجب أنها لزمت الصمت هى الأخرى ، وبدا لى سلوكها غريبا .

□ □ □

لست أدرى لماذا اعتنيت يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٦٣ بملبسى أكثر من المألوف ، وربما أسرعت الخطو قليلا أيضا وأنا فى طريقى للعمل . بيد أننى كنت ما أزال عند ظنى بأنه لن يتصل ، إلى أن دق التليفون . كان ذلك هو أول اتصال هاتفى بالشركة فى هذا اليوم ، وكان جاك هو المتحدث . كل ما استطعت أن أفعله هو أن أحتفظ بتنفسى طبيعيا وهو يقول لى إنه وصل إلى المدينة أثناء الليل ، وأنه يرغب فى مصاحبتى للغداء . ولحسن الحظ أن كل ما فعلته هو أنى وافقت على الموعد ولم أزد .

(*) صورة وثيقة المعلومات التى قدمتها الشركة عن جاك بيتون فى الجزء الخاص بالوثائق فى نهاية الكتاب ص (٢٣٧) الناشر .

التقطنى فى سيارة أجرة من أمام المكتب فى الساعة الثانية عشرة . لم نذهب إلى فندق فرانكفورتر هوف ، بل مضينا إلى مقهى محلى سحرنى لا لشىء سوى أنه كان يجلس فيه قبالتى . كان هذا المقهى يبعد عن المكتب مسافة قصيرة . لم يكن مقهى حقيقيا بل مطعما صغيرا للمأكولات الخفيفة ، يشعر المرء فيه بالاطمئنان . وكما حدث من قبل كنت مسحورة بجاك ، تائهة فى عينيه العسليتين العميقتين وطريقته فى استخدامهما للتأثير على الناس ، وخاصة علـىّ ، وقد استمر هذا طوال حياتنا معا . كانت له نظرة دافئة محبة تجعل أنفاسى تتقطع وتشعرنى بأنها تمحونى من الوجود ، وبأنى أسيرته .

وفى هذا المقهى لم أر شيئا أمامى سواه ، وإن لم أترك لنفسى العنان تجرفها العاطفة . كان حديثه جادا وهو ما يعنى أننى لم أكن أعيش حلما من أحلام اليقظة . جاهدت لكى أوضح له جميع الأسباب التى تحول دون ارتباطنا ، بيد أنه كان حازما صادق العزم ، ولم يجد صعوبة فى اقناعى . تجاوز كل عقبة وضعتها أمامه . فقد قصصت عليه حكاية زواجى الفاشل وابنتى ، لظنى أن هذا سيبعده عنى ، ولكنه قال إن هذا يوضح أننى بحاجة إليه ، وعندما نظرت إلى الساعة كانت الرابعة عصرا . وأدركت أنه ليس فى نيته أن يتركنى لأعود إلى عملى بعد الغداء . قال لى إنه رجل أعمال يهودى ، يعيش فى تل أبيب ، وأنه يريدنى أن أسافر معه الآن فورا ، وأنه لن يسمح لأى شىء أو لأى شخص أن يعطل ارتباطه بى .

ذهبنا معا بعد الغداء لمقابلة ابنتى وأبوى . سرنا معا على طول شارع زايل ، وهو الشارع التجارى الرئيسى فى قلب فرانكفورت ، وهو شارع جميل وهادىء ملىء بالأشجار والمقاهى الجميلة ، ومرور السيارات ممنوع فيه ، وهو يفضى لميدان المحطة الرئيسية . ومضينا فيه وقد تشابكت أيدينا مثل الأطفال أو ربما مثل العاشقين . وأتاحت لنا رياح شهر أكتوبر ذريعة للوقوف أمام واجهات الحوانيت . وما أن اقتربنا من الحى الذى يقع به منزلنا حتى لحظ جاك نمرا محشوا معروضا فى واجهة محل للعب الأطفال يسمى « شبيلجروجكست » ، ولم أدر لماذا مضى إلى داخل المحل ، ولكننى رأيته يخرج منه حاملاً ذلك النمر ، وهو يقدمه لى قائلا :

- هذا من أجل أندريا .

كان الرجل يستولى على قلبى مع كل خطوة يخطوها . واقتربنا من باب البيت ، وفى نفسى أمل بأن يكون له نفس السحر على أبى وأمى وابنتى مثلما هو الحال بالنسبة لى .

وعندما هممت بأن أفتح الباب ، عاودتنى كل أنواع الشكوك والقلق التى انتابتنى من قبل . وأدرك جاك ذلك ، فوضع راحته على كتفى وقال لى فى هدوء :

- كل شىء سيكون على ما يرام .

وما أن انفتح الباب حتى اندفعت أندريا نحونا وكأنها كانت فى انتظارنا ، وقفزت نحو جاك بقوة حتى ظننت أنها ستطرحه أرضا . وشرعت تناديه « بابا » حتى من قبل أن تلمح النمر فى يديه .

فلم تر أندريا والدها الحقيقى أبدا إذ رحل وعمرها ستة شهور . وكانت أمى قد اعتادت أن ترد عليها عندما تسأل عنه بأنه مسافر على متن سفينة ضخمة فى رحلة طويلة ، وأنه سيعود يوما ليبقى معنا . وكانت أندريا سعيدة بهذا التفسير . ولم يحدث أن صحبنى رجل إلى البيت ، لذا كان من الطبيعى أن تعتقد أن جاك ، وهو أول رجل رأته يدخل البيت معى ، هو أبوها ، كان عمرها حينذاك ٣ سنوات . (الواقع أن أندريا رأت أباها الحقيقى لأول مرة عندما بلغت من العمر ١٨ سنة) .

وعندما نادت ابنتى جاك قائلة « بابا » ، تصرف بسرعة فلم تكن تفوته شاردة ولا واردة ، والتقطها بإحدى يديه وناولها النمر باليد الأخرى ، وحملها معه إلى غرفة الاستقبال ، وأجلسها فوق ركبتيه وأخذ يلاعبها .

لم أكن أدرى أن أمى كانت ترقب المشهد من بدايته . لقد أسرنى هذا الرجل وأسر ابنتى حتى بتنا نعتقد أنه عضو الأسرة المفتقد الذى نبحث عنه .

قدمت جاك إلى أمى التى أدركت على التو أن هذا هو الرجل « المشكلة »

الذى كنت قد خرجت معه ، ولابد وأنها استشعرت شيئا يوحى بما يوشك أن يحدث . وأعتقد أن بعض أسباب غضبها قد زال حين رأته وهو يعامل أندريا برقة ودماثة . والحق أن جاك كان رقيق الحاشية مع النساء والأطفال ، واستطاع أن يسحر أمى منذ ذلك المساء وطوال حياته . لقد كان جاك سيدا مهذبا مع النساء ، ويعاملهن بطريقة رائعة . كانت أمى معجبة به للغاية ، وكذلك اختاى الأكبر منى ، واللتان كانتا تعيشان مع زوجيهما .

تحدث جاك إلى أمى عن خططه لحياتنا المشتركة ، ولكنها لم تكن تفهم الانجليزية ، وكان هو لا يعرف سوى القليل من الألمانية . لذلك كانت هناك ثغرة فى التفاهم بينهما . بيد أننى حتى وإن بقيت لدى أية شكوك ، فقد أدركت وأنا أتأمله وابنتى فوق إحدى ركبتيه ، وأمى ملك يديه ، أن هذا هو الرجل الذى أريده لنفسى . وأوضحت لأمى أننى سأذهب معه فى صباح اليوم التالى إلى تل أبيب ، وبعد أن يستقر بنا المقام هناك سنعود معا من أجل أندريا . ورغم أن كل مخاوف الأم قد ساورتها ، فقد أدركت أيضا بغريزة الأم أن جاك هو الإنسان الذى كانت تنشده لى ، لكى يغير حياتى ويعيدنى إلى سيرتى الأولى .

قال لنا جاك ان لديه لقاء عمل سيذهب إليه ، وسوف يعود غدا فى الساعة الثانية بعد الظهر لمقابلة والدى ثم يصطحبنى معه . وقال إننا سنطير من فرانكفورت إلى باريس حيث نبقى أسبوعا ثم نعود بعدها إلى تل أبيب . واستأذن فى الانصراف ، رغم أن أندريا لم تكن تريد أن تدعه ينصرف ، وتركنى لأحزم حقائبى .

ورغم اطمئنانى لنجاح جاك مع أمى ، فقد أدركت أن أبى مسألة أخرى . فرغم أنى انشغلت فى الإعداد للسفر ، وأن أمى لم تتوقف عن الكلام عنه ، فقد كنا معا نعرف أن الأمور لن تمضى سهلة مع أبى . فقد كان « هاينريتش » أبى فظا وعنيفا . كان ضخم الجثة خشن الطباع فى ظاهره ، لم يبد يوما ودا أو ميلا لأى شيء . واعتقدت أن جاك لن يكون استثناء من ذلك . وعندما عاد أبى فى المساء ، لم يشأ أى منا أن يبدأه الحديث عن الموضوع ، بيد أن هذه كانت هى قضيتى ولابد لى من مفاتحته .

وعندما بدأت حديثى ، خيل إلـىّ وكأن النوافذ تصطك وتتطاير ، وأن جميع الجيران اختبأوا تحت أسرّتهم عندما شرع فى الزعيق . وبدا لى أن نمر أندريا المحشو بالقش ، يحاول أن يعدو من المنزل آنذاك . لكن كان هناك أمر واحد كنت على يقين منه ، هو أن « هاينريتش شبالت » لم يكن سعيدا . كنت أعرف أنه يهتم بأمرى كثيرا ولكنه كان يعبر عن ذلك بصوت عال . كان لكل الأسباب التى ساقها ما يبررها ، ولكنه لم يكن يعرف جاك بيتون على نحو ما عرفناه نحن ، أنا وأمى وابنتى .

ولأن أبى كان إنسانا واقعيا وعنيدا وقوى الشكيمة ، فقد كان خوفه علـىّ كبيرا . كان ينفر من أى إنسان يقترب منى خاصة بعد فشل زواجى الأول . كما كان يحب أندريا ، بل يعبدها ، ولذلك لم يكن يرغب فى أن يؤدى ارتباط جديد لأمها إلى الإضرار بها . كما لم يعجبه أسلوب جاك فى اتخاذ قرار سريع بالارتباط ، فقد كان يعتقد أن التفاهم يستدعى معرفة تمتد سنتين على الأقل . ولم يقبل قولى بأنى عرفت جاك جيدا . والأمر الغريب أن هذا هو ما حدث . فبعد عدة ساعات مع جاك أحسست أنى أعرفه تمام المعرفة ، والغريب أن حدسى أو حاستى السادسة لم تخطىء فى هذا . فقد أحسست أنى أعرفه منذ سنوات طويلة ، وكان هذا تصرفا نادرا من جانبى ، فلم يحدث من قبل أن أحسست بأنى أعرف شخصا ما معرفة جيدة دون أن أعاشره طويلا .

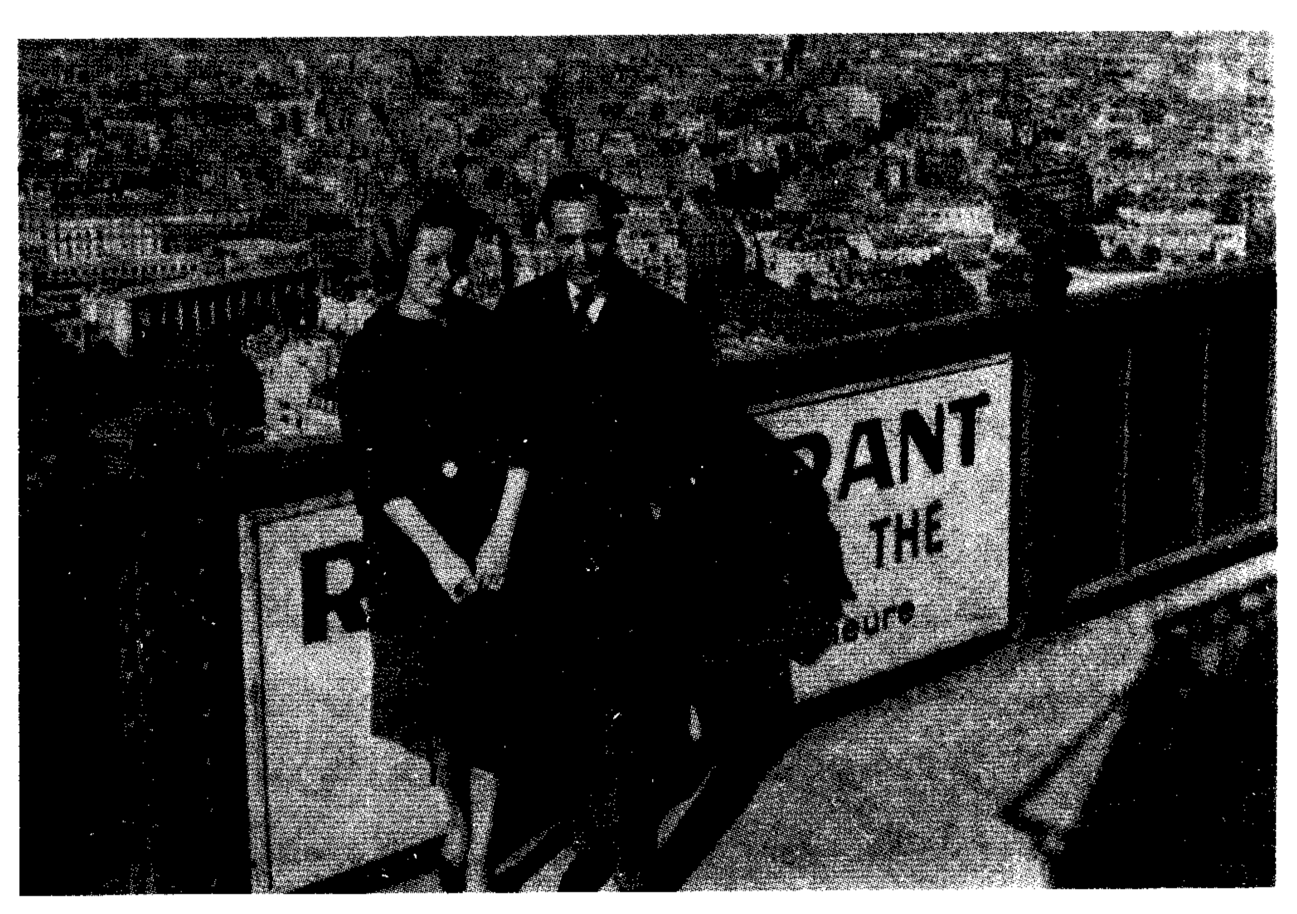
أمضينا الليلة كلها ، أنا وأبى فى صراخ وعراك ، غير أننى كنت مصممة على الرحيل .

وجه لى أبى انذارا أخيرا :

- إذا تركت البيت الآن فلست ابنتى .

لكنى واصلت حزم حقائبى ، وفى قلبى يقين من أنه سيحب الرجل الذى عرفته ، ولم يبق إلا أن يلتقى به .

وفى الساعة الثانية تماما حضر جاك ليصطحبنى معه . أفاض مع أبى فى حديث أكثر رقة ورغبة فى الاستمالة بدرجة أكبر حتى مما كان يفعل معى ،



● جاك وفالتراود بيتون عند برج إيفل ، فى أول زيارة لهما لباريس معا ، فى ١٩ أكتوبر ١٩٦٣ .

لكنه لم يحقق الكثير . وأيقنت أن تلك مشكلة سوف يحلها الزمن ، وأن جاك هو فرصتى التى يجب ألا أضيعها . ورغم كل الحب الذى كان قلبى يكنه لجاك ، فإنى كنت أخشى من قسوة وداع أندريا وأبوى ، غير أننى كنت على ثقة من أننى سأبتعد عنهم لفترة وجيزة فحسب على طريق حياة مديدة مشتركة بيننا .

وفى مساء ذلك اليوم استقل الطائرة إلى باريس ، جاك بيتون رجل الأعمال اليهودى وفالتراود بندر .

□ □ □

والآن ، وبعد ما يزيد على خمس وعشرين عاما على هذه الواقعة ، أجدنى وأنا جالسة فى غرفة هذا المستشفى استجمع شتات ما أستطيع من ذكريات ، على استعداد للقول بأن الشطر الأكبر من حياتى قام على خدعة . إذ أن جاك بيتون زوجي وأب طفلىّ لم يكن جاك بيتون اليهودى الإسرائيلى ، بل كان رفعت على سليمان الجمال المصرى المسلم . وقد عرفت هذا يوم وفاته فقط .

وصدقت هذا بعد شهور ، وها أنذا الآن أبدأ فى فهم ما حدث . فقد أدركت وأنا أقرأ هذه الرسالة الموجهة لى من جاك للمرة الألف ، أن الكذبة التى امتدت طوال حياتنا كانت بدافع الحب لى ولأولادى . فقد قدم جاك نفسه إلىّ ، وإلى كل من عرفتهم باعتباره يهوديا فرنسيا ولد فى المنصورة عاصمة إحدى محافظات مصر فى يوم ٢٣ أغسطس ١٩١٩ . وقال إن أباه كان رجل أعمال فرنسيا عمل فى مصر ، وتزوج من امرأة مصرية ولدت له ابنين . كان جاك هو الأكبر أما روبرت الأخ الأصغر فقد انتحر . وبعد وفاة أم جاك ، تزوج أبوه للمرة الثانية من امرأة فرنسية ، ومن ثم أصبحت حياة جاك فى البيت غير مريحة مع أختيه من زوجة أبيه ، وآثر الهرب . كانت تلك هى القصة التى صدقناها دائما . لكننى اكتشفت فور وفاته أن كل ذلك لم يكن حقيقيا .

فبعد وفاة جاك فى نهاية مرضه العضال الذى لازمه زمنا طويلا ، اتصلنا بأصدقائه لابلاغهم بوفاته . وعمّ الحزن الجميع رغم أننا كنا جميعا نعرف أن هذا هو المصير الذى ينتظره ، نظرا لاصابته بداء السرطان القاضى على الحياة . غير أن صديقا واحدا بدا أكثر انزعاجا مما كنا نتوقع ، هو محمد الجمال ، الذى ركب سيارته فور انتهاء المكالمة التليفونية معه ، وخلال فترة وجيزة سمعته يدق جرس الباب . ووسط المشهد الحزين أخبرنى بأن جاك بيتون هو عمه رفعت الجمال .

كان محمد الجمال قد لازمنا طوال مرض جاك . كان يأتى ويذهب باستمرار ، ويجلس معه ساعات طويلة ، يثرثران باللغة العربية . ولم أر فى ذلك غضاضة ، فقد كان جاك مريضا ويسعده أن يتحدث إلى شخص ما باللغة العربية ، وكان ذلك يرضينى . وقبل ذلك كان محمد قد بقى معنا فى البيت عندما جاء لألمانيا لأول مرة ، وعاش معنا لفترة باعتباره ابن استاذه ومدرسه السابق ، حتى هيأنا له وظيفة فى مستشفى « ماينز » الجامعى كطبيب ، وعندها انتقل من عندنا ليعيش فى ماينز .

وفى يوم وفاة جاك ، اتصلت به فى مستشفى الجامعة حيث يعمل ويعيش ، ولأنه كان معى فى المستشفى فى اليوم السابق لذلك فى زيارة جاك الذى كان غائبا عن الوعى لا يدرى شيئا ، وقال لى وهو ينصرف مشددا :

– إذا حدث أى جديد ، فأبلغينى فورا .

وعندما فعلت وجاء محمد أخبرنى بما قلب حياتى رأسا على عقب .

□ □ □

والآن ، وبعد كل هذا ، أستطيع أن أقرأ الرسالة التى تركها لى جاك وتسلمتها بعد ٣ سنوات من وفاته ، بعينين جامدتين خاليتين من الدموع :

« حبيبتى فالتراود

عندما تقرئين هذه الكلمات سيكون قد مضى بالفعل وقت طويل منذ أن تركتكم . ربما تكونين الآن قادرة على قبول الحقائق بطريقة أفضل . لقد أخبركم محمد بأننى لست الإنسان الذى كنتم تعتقدون أننى هو . سوف تسألين لماذا لم أثق بك . ولماذا لم أقل لك الحقيقة وأنا على قيد الحياة . أعرف قسوة الألم الذى تشعرين به عندما تكتشفين أننى كذبت عليك . أكاد أرى عينيك الخضراوين وقد غامتا . فهكذا كانتا دائما إذا ما استعرت نار الغضب فى داخلك . أعرف أنك ستبذلين المستحيل لاكتشاف الحقيقة كاملة ، وإنك إذا بحثت عن الحقيقة فسوف تهتدين إليها . وكل ما أستطيع أن أقوله لك سطرته فى المذكرات المرفقة . لن تقدرى أبدا مدى ما كنت أعانيه من عذاب بسبب كذبة دائمة اضطررت أن أعيشها . أرجوك لا تستبقى الحكم . فأنت تعرفين أننى لم أحب أحدا أبدا أكثر منك . وإذا ما تهيأ لك أن تمعنى التفكير فى مذكراتى ، وإذا ما فهمتيها ، (وفهمتينى) فإننى أرجو أن تخبرى طفلينا أندريا ودانييل بالحقيقة . القرار لك ، وأعرف أنك ستفعلين الصواب .

هذا ما وددت أن أفضى به إليك ، لا تحزنى ، وتذكرى أن حياتك وحياة طفلينا رهن باستمرارك قوية أبدا . امض فى حياتك ، الحياة التى تحدثنا عنها معا عندما كنت هناك .

لا تستمعى إلى كلام الآخرين ولا تثقى بهم . ثقى كل الثقة بحدسك ومواهبك الفطرية إنك إنسانة قوية ، وسوف تحققين كل أهدافك . وإذا أردت أن تبلغى أهدافك ، فعليك أن تقاتلى من أجل الحصول على حقك ، وأنت تعرفين كيف تفعلين ذلك . حظا سعيدا وحياة هانئة . وستبقين دائما حبيبة عمرى .

المخلص أبدا
جـــاك »

□ □ □

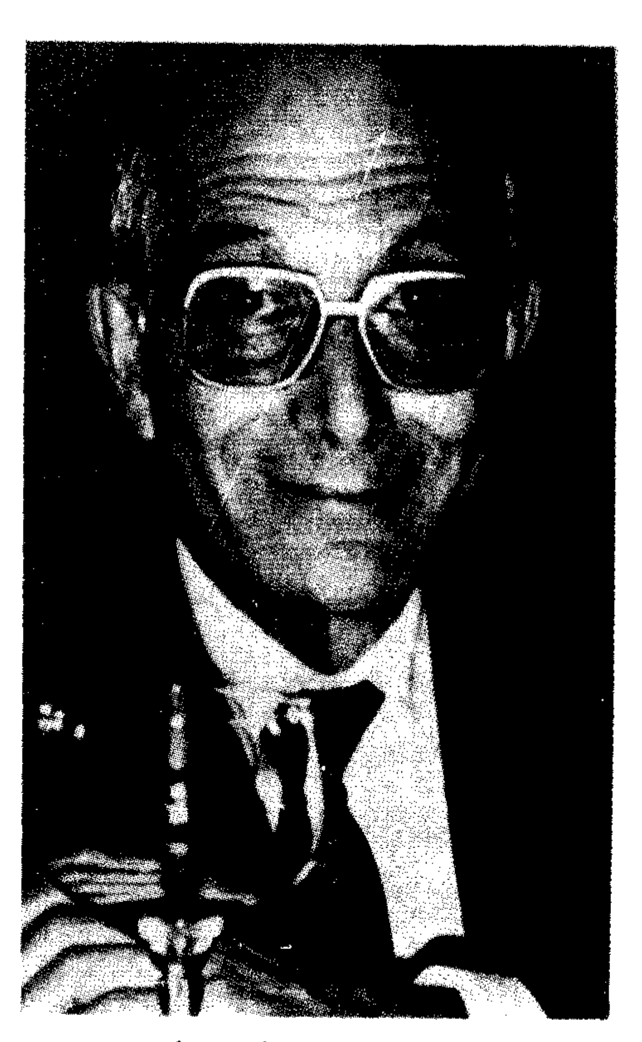
عندما استرجع الأحداث أتبين أن جاك بدأ يكتب هذه الرسالة ومذكراته التى تركها لى مع المحامى والتى تروى قصة حياته والتى سأعرضها فى الجزء

التالى من الكتاب ، لحظة أن عرف أنه مصاب بالسرطان . وفى البداية جاءت هذه المذكرات واضحة تماما ، تعرض جميع المعلومات والوقائع والأسماء التى أراد لى جاك أن أعرفها وفقط بالقدر الذى يساعدنى على فهم قصة حياته ومعرفة من هو . لكن السياق اضطرب نوعا ما فى الجزء التالى ، فكان يقفز من حدث إلى آخر دون رابط ، وأعتقد أن هذا كان لسببين : الأول أنه يغالب الزمن ، والثانى أن وطأة المرض قد اشتدت عليه . ففى بعض الأحيان كان بصره يضطرب ويرى الأشياء مزدوجة بل ويراها ثلاث مرات أو أكثر . وفى فترات هدوء الآلام كان يبادر بالكتابة . فقد أخذ السرطان ينتشر حينذاك فى كل أجزاء جسده ، حتى امتد إلى الرأس والمخ ، مما جعل تفكيره غير واضح .

وقد أعطانى المحامى هذه الرسالة والمذكرات لأقرأها ثم نصحنى أن أتركها لديه . كانت أوراقا منفصلة ، تبلغ حوالى سبعين صفحة مكتوبة بخط اليد على ورق أبيض غير مسطر باللغة الإنجليزية . كانت موجهة إلىّ ، وموضوعة فى مظروف كبير . ولم يكن المحامى قد قرأها قبل أن يسلمها لى بعد وفاة جاك بثلاث سنوات كما جاء فى تعليماته إليه . وقد ترك لى جاك حرية أن أقرأها لوحدى أو معْ المحامى . وعندما قرأتها ، واستبد بى الاضطراب ، قررت استشارة المحامى ، وأوصانى بتركها مغلقة كما هى فى خزانته ، فهى لا تهم أحدا ، وكل القصد منها هو أن زوجى يعرفنى فيها بشخصيته الحقيقية التى لم أعرفها فى حياته .

شعرت بالصدمة من قراءة المذكرات التى كشفت لى الحياة الحافلة لجاك وعلاقاته وارتباطاته . وقد أحسن جاك صنعا عندما أوصى المحامى بألا يطلعنى عليها إلا بعد ٣ سنوات من وفاته . وتنصب هذه المذكرات على حياة جاك ، أو رفعت الجمال ، وأنشطته فى إسرائيل وألمانيا فى صورتها العامة ، وليس بالتفاصيل . وكان قصده منها هو إعطائى فكرة كاملة عمن يكون ، وما أسداه لبلاده .

كان المظروف الذى سلمه لى المحامى مغلقا ومختوما بالشمع . وفى ألمانيا ، ليس هناك مجال لأن يخالف المحامى تعليمات موكله ويطّلع على



● جاك بيتون فى أواخر أيامه .





● صورة حديثة لزوجة جاك بيتون .

أوراقه بدون إذنه ، فذلك يدمر مكانته ويعرضه للسجن . وقد تصفح المحامى المذكرات معى بعد قراءتى لها . لكن دانييل ، ابنى ، لم يطلع عليها أبدا كرغبة أبيه . كما أن الرجل الآخر الذى اقترنت به بعد رحيل جاك لم يطلع عليها .

□ □ □

والواقع أنه عقب وفاة جاك شعرت بالحيرة لأنه لم يترك لنا ما ينير لنا الطريق ، ولم تكن هذه طبيعته ، فضلا عن أن هذا يتناقض مع اهتمامه الشديد بنا ، وحرصه على تعريفنا بكل شىء وترتيب كل الأمور مسبقا ،وبأكثر من طريقة من باب الاحتياط .

لم أطلع أى إنسان أو جهات مسؤولة على هذه المذكرات لأن لها طابعا شخصيا بحتا ، فهى لا تتعلق بأى قضايا أمنية أو سياسية أو أسماء أو وقائع . كل ما فيها أن الرجل يحكى قصة حياته فى خطوطها العريضة لتعرف أسرته

حقيقته كما هى . إنها رسالة شخصية منه موجهة إلـىّ ، وإلى أبنائه . فلم يكن للرجل أى وثائق تثبت هويته الحقيقية ، كشهادة ميلاد أو ما شابه ذلك ، فكتب لنا يعرفنا بأصله ومنبته وأسرته ووطنه وجهاده . (فيما بعد حصلت على شهادة ميلاد له ، تم استخراجها من دمياط ، مسقط رأسه بعد رحيله بسنوات) .

□ □ □

يصعب علـىّ تماما أن أنسى ذكرياتى مع جاك كما عرفته . فلم يكن رجل المكائد والخداع ، بل كان الموجه الذى يهدى حياتى . كان قوة راسخة مطردة عصفت بى وجرفتنى إلى باريس ، وتل أبيب لأبدأ حياتى الحقيقية .

كانت باريس هى أول محطة فى رحلة حياتنا معا ، جاك وأنا . وباريس مثيرة دائما ، لكنها كانت فى تلك المرة أكثر من ذلك بالنسبة لنا . فعندما وصلت إلى باريس وجدت أن جميع الأمتعة التى قضيت وقتا طويلا فى حزمها قد سافرت إلى بوسطن ، لخطأ من شركة الخطوط الجوية البريطانية التى سافرنا على طائرتها لباريس . كانت هذه بداية غير مشجعة فى بداية رحلة حياتنا الجديدة ، ولكن كان علينا أن نكتشف أن اللهو لم يكد يبدأ بعد . فلم يقتصر الأمر فقط على أننا وجدنا أنفسنا بغير أمتعة ، بل وجدنا أيضا أن الفنادق مشغولة بالكامل . وزاد الطين بلة أن السماء كانت تمطر . كانت باريس آنذاك تستضيف معرض السيارات الدولى ، ومن ثم كانت جميع الحجرات فى المدينة مشغولة . لكن جاك عالج كل شىء باقتدار . وفى حين كنت أرى الموقف كله خطأ فى خطأ ، فقد أقنعنى جاك أن كل شىء سيكون على ما يرام . ركبنا سيارة أجرة إلى فندق كلاريدج فى الشانزليزيه حيث اعتاد النزول هناك . وبعد محادثة قصيرة بلغة فرنسية طليقة ، ودفع مبلغ سخى من الفرنكات الفرنسية استطاع اقناع المدير بترتيب إقامتنا . وهيأ لنا هذا الفندق الراقى سريرين فى غرفة المؤتمرات على جانبين مختلفين وقيل إن بإمكاننا البقاء فيها حتى الساعة الثامنة صباحا موعد شغلها . قضينا أول ليلة معا وقد نمنا وكل منا يرتدى ملابسه كاملة ونحن ننتظر قدوم أحد الكتبة العاملين بالفندق ليفتح الباب ويوقظنا . وقد أعجب



● أمام المنزل فى تل أبيب فى ١٩٦٤ .

جاك كثيرا بطريقتى فى تقبل الموقف ، فلم أشأ أن أفصح له عن مدى العصبية التى أصابتنى . واستسلم كل منا للنوم فى موعد مبكر عما كنا نتوقع .

أضاف ضوء النهار الجديد الكثير والكثير من العوامل التى أضفت جمالا على حياتنا معا وتحسنت الأمور كثيرا . فشركة الطيران التى فقدنا أمتعتنا عليها وافقت على أن تمنحنا نقودا تفى بالضرورات . ووجدنا فندقا فى مونمارتر يمكن أن يستضيفنا ، واصطحبنى جاك فى جولة فى باريس لن أنساها ما حييت . شاهدنا أثناء النهار أهم المراكز الثقافية : اللوفر وبرج إيفل وقوس النصر . وفى الليل ، شاهدنا نوادى باريس الشهيرة ، الليدو والفولى بيرجير ، والمولان روج ، والكريزى هورس . لقد شاهدنا كل معالم باريس الجميلة ، ولكننى لم أستطع أن أرفع عينى عن جاك .

وبعد أسبوع قضيناه فى باريس ، أيقنت أننى سأذهب مع هذا الرجل إلى أى مكان فى الدنيا . وواقع الحال أننا قصدنا تل أبيب فى يوم ٢٥ أكتوبر . سافرنا على الخطوط الجوية الأوليمبية مع توقف فى أثينا . وفى الطائرة عاملونا معاملة الشخصيات الهامة بسبب معارف جاك .



● الجانب الخلفى للمنزل فى إسرائيل .

اصطحبنى جاك إلى تل أبيب . وبعد ساعات من المزاح مع رجال إدارة الجوازات الإسرائيلية والفحص الدقيق لجواز سفرى الألمانى والسؤال عن سبب قدومى ، سمحوا لى أخيرا بدخول البلاد . كانوا فى عام ١٩٦٣ يفتقرون لأى إحساس بالمزاح مع الألمان . وبعد أن سمحوا لى بالخروج من المطار ، اتجهنا توا إلى بيت العزوبية الذى يعيش جاك به فى الطرف الشمالى من تل أبيب . وأدركت من أشعة الشمس أننى فى عالم مختلف تماما . وعلى الرغم من أن البيت كان صغيرا ، وبدا مليئا بأثاث مستأجر ، إلا أننى رأيت أن بالإمكان إضفاء « لمسة المرأة » عليه . وعندما تلفت حولى فى بيتى الجديد ، عرفت الإمكانيات المتاحة ، وكيف يمكن تحسينها .

كان بيت جاك صغيرا ، به مكان كبير للاستقبال ومطبخ صغير وحمام ، وإلى أعلى بدرجتين فحسب توجد غرفة نوم وحمام ، وغرفة معيشة ورواق نستقبل به الضيوف . وكان المنزل يقع فى منطقة تسمى « أفيكا » ، وهى منطقة سكنية خارج تل أبيب . وهى حى راق وجميل جدا يضم مجموعة الفيللات . كان لبيتنا حديقة صغيرة وإن كانت بغير سور ، وكان هذا غريبا بالنسبة لى ،

لأن للحدائق فى ألمانيا أسوارا . أما فى تل أبيب فالإنسان يجد الزوار يقفون على بابه مباشرة وهم يدقون الجرس ، ولم يكن لى علاقات مع الجيران ، لأنى لم أكن أعرف العبرية ، كما أن انجليزيتى لم تكن جيدة .

وتوليت عملية تجميل المسكن بالصور واللوحات وأضفت إليه لمسات المرأة . وكنت أقوم بنفسى بأعمال التنظيف والترتيب . وقد عرفت من جاك أنه كان ينظف بيته بنفسه ، ولا يسمح لأحد بدخوله لهذا الغرض .

□ □ □

كان الوقت الذى أمضيناه فى تل أبيب ممتعا ومثيرا للغاية . كان يخيل إلـىّ كلما خرجنا إلى المدينة أن جاك يعرف الجميع ، فحيثما ذهبنا كان الناس يحيونه كأنه ابن غاب عن ذويه طويلا . كانوا يعانقونه فى الطرقات ، ويتحدثون إلـىّ بأحر الكلمات الودية . أحاطنى جاك برعاية فائقة ، لم أغب عن عينيه لحظة ، لم يغفل عنى ولم يسهو أبدا عن الاهتمام بى . كان يحمل إلـىّ إفطارى وأنا على سريرى قبل أن يذهب إلى عمله ، ويصطحبنى بالسيارة لتناول الغداء خارج البيت كل يوْم ، وكنا عندما نبقى فى بيتنا ليلا نستضيف مجموعة من الأصدقاء للعب الورق والسمر معا .

واعتاد جاك أن يصحبنى للتسوق فى وسط المدينة فى محلات السوبر ماركت الكبيرة والجميلة والمتكاملة ، والتى تشبه مثيلتها فى الولايات المتحدة . وكنا نتناول الطعام كثيرا فى الخارج ، خاصة فى مطعم يهودى نموذجى شهير فى تل أبيب ، كان جاك يفضله ، وقد واجهتنى فيه مشكلة عندما طلبت لحما وكوبا من اللبن ، ورفضوا طلبى ، لأن الديانة اليهودية تمنع أكل اللحم وشرب اللبن معا !

وفى البدء لم نكن ندعوا الأصدقاء لمسكننا ، بل كنا نذهب لنسهر عندهم ، لكن بعد ذلك بدأنا ندعوهم عندنا . كانت حياتنا مثيرة بالنسبة لى ، لأنى كنت أعايش أناسا مغايرين تماما ولهم عقليات مختلفة تماما . ولم تكن مشكلة اختلاف اللغة مهمة ، فقد كان الجميع يتحدثون الانجليزية التى بدأت أجيدها تدريجيا .

وكان الناس ودودين جدا تجاهى ، واعتادوا دعوتنا كثيرا ، بل كنا نزورهم دون دعوة . والظاهرة اللافتة للنظر هى أن غالبية الإسرائيليين يحبون لعب الورق ، ويمضون وقتا طويلا فى ذلك . وكان جاك يلعب البوكر مع أصدقائه ، وكانوا يفرطون فى شرب الويسكى ، حتى أن الواحد منهم كان يشرب زجاجة فى الليلة ، لكن جاك توقف عن الشرب بعد فترة قصيرة من وصولى لتل أبيب ، نحو أسبوعين ، وبدا لى ذلك غريبا ، ولما سألته عن السبب رد قائلا :

- أشعر أنى لم أعد أحب الشرب .

وترددنا على كثير من الحفلات الرسمية والولائم الخاصة . فقد كان الناس يريدون التعرف علىّ . وكانت الدعوات الرسمية تجىء من شركات أعمال وشركات طيران ومكاتب سياحة ووزارات ، فقد كانت لجاك علاقات قوية وواسعة مع مختلف المصالح الحكومية والوزارات لأنه كان ينظم جميع الرحلات والسفريات لهم .

□ □ □

قضيت أياما أضفى « لمسة المرأة » على الشقة . وذات يوم وأنا عاكفة على تنظيف المسكن دق جرس الباب . وعندما فتحت الباب ، لم أر للوهلة الأولى سوى باقة كبيرة من الأزهار ، وما أن انخفضت الباقة قليلا حتى طالعتنى أعرض ابتسامة عرفتها . رأيت رجلا واقفا أمامى ، وعلى إحدى عينيه عصابة من القماش الأسود . قدم إلى باقة الورد قائلا :

- أردت فقط أن أشاهد الغلطة التى ارتكبها جاك بيتون .

ثم انصرف لا يلوى على شىء . أدركت أنه موشى ديان ، وعرفت بعد ذلك أنه أقرب أصدقاء جاك .

وبعد حوالى شهر من عملية إدخال التحسينات على مسكننا ، قررنا أننا بحاجة إلى بيت كبير ، وبدأنا البحث عن شقة جديدة . ومن هنا كان أول معرفتى بالتفرقة العنصرية والقومية . ففى ذلك الوقت ، لم يكن الألمان موضع ترحيب فى إسرائيل . ورفض كثيرون تأجير مسكن لنا لمجرد أننى ألمانية . لم أشعر

يوما بأننى مسؤولة شخصيا عن الحرب العالمية الثانية ، غير أن شهرا واحدا فى إسرائيل أقنعنى بأن تلك الحرب كانت غلطتى أنا الشخصية . وتولى جاك عنى هذه المهمة ، وشرع يوسع من اتصالاته مع غيرى من الألمان الذين يعيشون فى إسرائيل ، ومع اليهود المصريين الذين لا يضمرون عداء للألمان . والتقيت فى أول حلقة من الأصدقاء الجدد بالسيدة مانهيمر . وهى سيدة ألمانية تمتلك بيتا فى القطاع الشرقى من تل أبيب . بيت يتسع لبناء حياة المستقبل ، ولم ندع فرصة استئجاره تفلت من أيدينا . كانت هذه السيدة تعيش فى ألمانيا قرب بادن بادن بعد أن مات زوجها ولا تأتى كثيرا لإسرائيل . وما أن فرغنا من الشكليات ، حتى شكرها جاك بلغة ألمانية جيدة ، فسألته :

- طالما أنك تجيد الألمانية لهذا الحد ، فلماذا لا نتحادث بها .

فأجبنى بأنه لا يعرف منها غير كلمات قليلة ، وحيث أن الانجليزية لغة أجنبية بالنسبة لكل منا ، فلن يكون أى منا فى وضع غير موات . وراقنى كلامه وبدا لى منطقيا .

كان المسكن مكونا من طابقين ، تسكن الطابق الأسفل منه سيدة تعمل فى القنصلية الفرنسية ولديها فى شقتها خمس عشرة قطة . أما الشقة العليا من الفيللا ، أو الدور العلوى ، فكان من نصيبنا . وقد لفت نظرى أن البستانى الذى كان يزرع النجيل كان يغرسهِ واحدة واحدة ، وكنت أعتقد أن زراعة النجيل تتم ببذر الحب . كان المسكن الجديد مؤثثا بذوق ألمانى أجمل . كان مريحا وعائليا لكن نظام التدفئة فيه كان غريبا ، إذ كان رجل يأتى ببراميل الجاز أسبوعيا على عربة خشبية صغيرة ، ويتم توصيلها بالموقد وتكفى عادة لمدة أسبوع . أما إن انتهت قبل ذلك فيتم استدعاؤه ليغيّرها .

□ □ □

والواقع أنى لم أفضل الاتصال بالألمان فى تل أبيب ، لأنهم متعبون ويصعب التعامل معهم . وكان أفضل ناس أقمنا علاقات معهم ، هم اليهود المصريون . كان أحدهم مديرا لشركة العال فى تل أبيب ، وعمل بعد ذلك فى

باريس ومارسيليا ، وكان هناك آخر يعمل مديرا لفندق هيلتون اسمه ايليوهيمى .

وقد اعتدت القيام بجولات لاستكشاف المدينة والأسواق فيها . والجميل فى تل أبيب أن الإنسان يستطيع أن يتنقل فيها بمفرده بسهولة دون حاجة لمن يصحبه . والواقع أن محلات الملابس الجميلة والمشغولات المتقنة رائعة فى هذه المدينة . وكنت أصحب جاك لشراء ملابسه . والحق أنه كان غاية فى الأناقة دون مبالغة ، وكان يهتم بالمودة وحسن هندامه حتى وهو فى البيت الذى كان يرتدى فيه على الدوام بذلة وقميصا أبيض ورباط عنق وصداريا . كان دائما يرتدى ملابسه كاملة ، فيما عدا عطلة نهاية الأسبوع فيرتدى « كارديجان » من الصوف المحبوك . وقد سألته عن اهتمامه بأناقته فقال :

- إنى أحب ذلك . أحب الملابس الأنيقة .

وكنت أذهب معه إلى ترزى فى إسرائيل يقوم بتفصيل بدل له على الطراز الإيطالى .

وكان هذا الترزى شخصية فريدة . كان قصيرا ومتوترا ودائم الأسئلة . كان يريد أن يعرف كل شىء : من أنت ، وماذا تعمل ، ومن أين ؟ وأعتقد أنه كان من بولندا .

وكان جاك يهتم بحلاقة ذقنه يوميا بماكينة حلاقة كهربائية ، لكنه كان يختفى فى الحمام ساعتين كاملتين يوميا ، ومعه الصحف الإسرائيلية والانجليزية والعربية والتليفون ، حيث يقرأ كل شىء عن الأسهم والمال والسياسة ، لكنه لم يكن يهتم كثيرا بالمسائل الثقافية .

وأذكر أن أول حفل أقمناه فى بيتنا ضم ثمانية أشخاص منهم موشى ديان ، وصديقه فريديكس مدير الخطوط الجوية الأوليمبية وزوجته ، ومدير شركة العال جاك سفيرى وزوجته ، وقد أهديانى كلبا فى هذه المناسبة .

كان ديان شخصا مهزارا ومرحا واجتماعيا للغاية ، يطلق الدعابات .

ورغم أنه لم يكن يكف عن مشاكستى ، فقد كنت أحب صحبته والخروج فى مجموعات يكون فيها ، لأنه إنسان مرن جدا ، وسهل للغاية ولا يكف عن الضحك . لم يكن يعرف الاكتئاب .

وقد لفت نظرى مدى متانة الصداقة بين جاك وديان فكثيرا ما كنا نلقاه . كنا نجده دائما بالقرب منا ، فى أى مكان وفى كل مكان ، وفى النهار والليل وعندما سألت جاك :

- هل هو صديق مقرب لك لهذا الحد .

أجـاب :

- من الطبيعى أن يجتمع العزاب مع بعضهم البعض ، وأن تتوطد صداقتهم وأن يظلوا كذلك .

□ □ □



ديان وبن جوريون أقرب الأصدقاء

مضى الوقت سريعا فى تل أبيب حتى حان موعد عيد الميلاد ، وازداد اشتياقى إلى ابنتى أندريا وبدأت افتقدها أكثر وأكثر . وسعدت سعادة بالغة عندما طرنا أنا وجاك عائدين إلى فرانكفورت يوم ٢٢ ديسمبر لرؤيتها هى وأبوى . قابلنا أبى وأمى وأندريا فى المطار ، واجتمع شملنا مرة ثانية والدمع يفيض من مآقينا . وخيل إلىّ وكأن الشهرين الماضيين لم يكونا لينتهيا أبد الدهر ، وشعرت بالامتنان لأبوى إذ قالا لأندريا ان أباها وأمها فى رحلة عمل .

فرحت أندريا فرحة غامرة عندما رأت « بابا » ورأتنى . وكان ذلك هو أول عيد ميلاد نقضيه معا . كانت مناسبة رائعة . وكانت أندريا وأمى مسحورتين بجاك مثلى تماما ، وتحول أبى من إنسان فظ بصورة كئيبة إلى إنسان وديع عندما لمس حب جاك وإخلاصه لى وتعلقه بى .

وتوطدت عرى الصداقة بين أندريا وجاك وأصبحا لا يفترقان ويقضيان جل وقتهما فى اللعب معا ، حتى أنى كنت أتساءل أيهما الطفل الأكبر . وعندما كنت أرقبهما كان يستبد بى الفضول لأعرف تفاصيل عن طفولته ، غير أن هذا كان موضوعا يتحاشاه . كان قد حدثنى عن حادث مؤسف وقع لأخيه . غير أنى أحسست أن ثمة شيئا ما آخر داخل هذا الإنسان يحفزه ويحركه . كنت أشعر بالسعادة لأنى لم أدعه يفلت منى . وكانت أندريا تهتز طربا طالما هو موجود حولنا لأن هذا يعنى بالنسبة لها أن « بابا » قد عاد . لم تكن تتذكر شيئا عن زواجى الأول ولا عن أبيها بالميلاد . وبعد أن دخل جاك حياتنا ، أخذت

الأمور تسير كما نحب ونهوى ، ولم أجد حينذاك ما يدعونى إلى أن أحطم ابنتى بأن أقول لها الحقيقة . واتفقنا معا على أن ندعها لتصورها الخاص للأمور .

□ □ □

مضى الوقت سريعا فى ألمانيا . وفى الرابع من يناير ١٩٦٤ حان الوقت للعودة إلى الوطن ، إلى تل أبيب . سافرنا أول الأمر إلى مارسيليا فى فرنسا لشحن السيارة الجديدة التى اشتراها لى جاك عندما كنا فى ألمانيا . واستأجرنا هذه المرة غرفتين فى فندق عادى فى فرنسا . وتجولنا فى مارسيليا طوال يومين لمشاهدة معالمها . كان جاك هو رفيق السفر الأمثل ، فكل شىء يمضى معه على الوجه الأكمل ، وتسير الأمور بسهولة وسلاسة .

عدنا إلى تل أبيب وحضرنا العديد من حفلات العام الجديد ، إذ كانت لجاك علاقات كثيرة واسعة سواء كرجل أعمال أو علاقاته الخاصة . كنت فى شرخ شبابى ، وكان كل شىء جديدا فى عينى .

كان لجاك وكالة سفريات للسياحة فى وسط المدينة اسمها « سى تورز » وهيأت لنا هذه الوكالة فرصا للسفر ولقاء كثير من الناس ، وعقد صفقات كثيرة مع الشباب من موظفى الحكومة .

كانت الوكالة عبارة عن دكان به مكتبان أو ثلاثة ، وله نافذة عريضة . كانت السكرتيرة تشغل مكتبا منها ، ويشغل جاك مكتبا آخر ، والثالث يشغله الدكتور وايز شريك جاك . كانوا ينظمون رحلات سياحية مختلفة وسفريات إلى ايطاليا وأسبانيا وألمانيا . وقد نظموا رحلات كثيرة للوزارات . وكان يقول لى إن الشركة تحقق ربحا جيدا ، وكان هذا واضحا من مستوى إنفاقه .

□ □ □

كان أقرب الأصدقاء لنا هم : موشى ديان وجولدا مائير وبن جوريون وعزرا وايزمان . وكان جاك وموشى وعزرا أشبه بالفرسان الثلاثة . وكانوا عندما يجتمعون معا ، نادرا ما يعكر صفوهم أى شىء . كانت حياتهم معا مزاحا فى مزاح ، أما جولدا مائير وبن جوريون فكانا بمثابة الأبوين بالنسبة



● جاك بيتون فى إسرائيل مع عزرا وايزمان وزوجته .

له . لقد تقبلانى برضا وترحاب وأبديا عطفا كبيرا نحوى . وكثيرا ما كانت جولدا مائير تسألنى عما إذا كان جاك يحسن معاملتى أم لا . كانت على استعداد لأن تأمره بالجلوس أمامها لتوصيه خيرا بى وتأمره بذلك ، غير أننى كنت أقول لها دائما انه مثال الرجل المهذب معى .

قابلت جولدا مائير أول مرة فى حفل كوكتيل رسمى ، ووجدتها سيدة جادة تماما ، ونشأ بيننا نوع من التعاطف ، إذ بدت كأم لى . كانت عطوفة للغاية .

شديدة الاهتمام بالأمور العادية . سألتنى عن زواجى وما إذا كنت سعيدة به ، وما إذا كان زوجى يحسن معاملتى ، وإلا فإنها ستلقنه درسا نافعا فى ضوء خبرتها ، وما إذا كنت أحب أسلوب حياتهم فى إسرائيل . وأخبرتنى أنها سمعت أن لى ابنة ، وعما إذا كنت اعتزم إحضارها ، وأنها تود أن تراها .

وقابلتها بعد ذلك عدة مرات ، وكانت فى كل مرة تسألنى :

- كيف حالك ؟ هل أنت على ما يرام ؟ قولى إن كنت بحاجة إلى أى شىء . سأساعدك ، ما عليك إلا أن تطلبينى تليفونيا .

وكانت النساء الأخريات يسألننى :

- ماذا فعلت لها حتى أصبحت ودودة جدا معك ؟

- لم أفعل شيئا . ها أنذا كما تروننى أمامكن . إننى أتعامل معها مثلما تتعاملن معها ، لا شىء مختلف . غير أننى أظن أنها أحبتنى لا أدرى لماذا . ربما ثمة تعاطف بيننا .

وعندما حضرت ابنتى ، قابلناها معا صدفة فى الطريق فرحبت بنا مهللة حتى ظننت أنها جدة للطفلة . وكررت استعدادها للمساعدة ، وأعربت عن رضاها لرؤية الأطفال سعداء فى إسرائيل .

أما بن جوريون فكان يحب جاك ويعتبره ابنا له ، ويستقبله بالأحضان والقبلات مثل صديقين حميمين ، أو شخصين من أسرة واحدة حتى أننى سألته :

- هل أنت من أقربائه ؟ أم ماذا ؟

فأجـاب :

- لا ، نحن مجرد أصدقاء مخلصين ، حميمين وقريبين من بعضنا البعض ، ولذا يعاملنى بود .

- هل تعرفه منذ أن أتيت لإسرائيل ؟

- أعرفه منذ وقت طويل .

كان هذا هو رده ، فلم يكن يعطى إجابات مفصلة عن الأسئلة .

وكان جاك يتحدث مع بن جوريون بالعبرية بطلاقة شديدة . واعتاد بن جوريون أن يكون ودودا معى للغاية ، يسألنى عما إذا كنت مرتاحة فى إسرائيل ، لأنه كان يخشى من ألا يحب الوافدون إلى إسرائيل الإقامة فيها . لذلك كان يبادرنى فى كل مرة بسيل من الأسئلة : هل تحبين البلد ؟ هل تشعرين أنك فى وطنك ؟ هل تستمتعين بوقتك ؟ هل تجدين الإسرائيليين ودودين وهل تحبينهم ؟ وقد أهدانى عملة ذهبية مازلت أحتفظ بها . وقد قال لى عن جاك :

- إن هذا الرجل أحبه كثيرا جدا جدا . إنه شخص غاية فى الظرف ، وقليلون من يشبهونه .

كان بن جوريون شخصية أبوية ، يحيط به دائما الشباب والأنصار والحواريون . وقال لى جاك إنه ينقل إليهم خبرته ، ويعرفهم بما حدث ، وكيف فعل ما فعل .

ولم تكن علاقة جاك بكبار المسؤولين الإسرائيليين علاقة عمل ، بل علاقة صداقة وحب ، وكان حريصا على هذه العلاقة . فهو دائم الاتصال بهم تليفونيا ، ويزورهم ، ويسألهم عما إذا كان يستطيع أن يقدم لهم أى خدمة ، أو يحضر لهم شيئا ما عند سفره للخارج .

وإضافة لثلاثى جاك وديان ووايزمان ، كان لهم صديقان آخران هما روبرت كايلر ، وشواب . لكننى لم أكن أحب وايزمان ، وكنت اتجنب الوجود معه ، دون سبب محدد . وعندما قلت لجاك انى لا أحب هذا الرجل رغم أنه لم يفعل شيئا ، قال لى :

- كونى ودودة معه فقط ، ليس مطلوبا منك أن تحبيه .

والغريب أن عددا كبيرا من هؤلاء المعارف والأصدقاء لم يكونوا يصحبون نساءهم للحفلات العامة ، وبدوا كما لو كانوا حريصين على إبقائهن



● جاك بيتون وزوجته ووالداها فى الناصرة .

بعيدا . والواقع أن الزوجات اللاتى كن يحضرن هذه الحفلات كن متحفظات للغاية .

□ □ □

وقبيل نهاية شهر يناير وصلت سيارتى من مارسيليا مما كفل لى استقلالا فى حركتى داخل تل أبيب . كانت سيارة ماركة أوبل ريكورد لونها أبيض من الخارج ، وأزرق من الداخل . ها أنذا أصبحت امرأة حرة الحركة . واعتدت الذهاب إلى الأسواق والقيام بجولات داخل المدينة وخارجها .

لم يبد لى أمرا مستغربا أن جاء إلىّ جاك ذات ليلة ليبلغنى أنه مضطر إلى السفر إلى باريس .

لم يدر بخلدى آنذاك أن ثمة « عملا آخر » كان يشغل باله . وفى سفرته هذه أثبت لى أنه لماح يدركِ كل خوالجى . فحين عاد إلى تل أبيب وكنت أنتظره فى المطار ، رأيته يخرج من باب الطائرة ومعه أندريا . ارتبكت ، لأنى كنت



● جاك بيتون فى الناصرة مع زوجته ووالدتها وأندريا فى ١٩٦٤ .

أتوقع أنها ستحضر مع أبى وأمى يوم عيد الفصح ، غير أنه لاحظ اشتياقى لها وتصرف . وهكذا ، فمع مجىء « نور عينى » أصبحنا أسرة كاملة . لم يكن هذا الرجل يغفل عن أى شىء .

تكيفت أندريا معنا تماما . كان أمرا مذهلاً ، أن تأنس ابنتى الألمانية التى لم تتجاوز الرابعة من عمرها إلى حياتنا الجديدة . الحقناها بمدرسة حضانة ، واقتنت كلبا ، وتعرفت على عدد من الصديقات الصغيرات اليهوديات . فالأطفال أكثر الناس قدرة على التكيف ، وكان اجتماعنا معا ولمّ شمل الأسرة ، خيرا لنا جميعا .

وسرعان ما أقبل عيد الفصح وجاء معه أبى وأمى . وتجولنا سويا فى ربوع البلد ليشاهدا إسرائيل . ودارت أحاديث طويلة وكثيرة بين جاك وأبى وأدركت أنهما أصبحا صديقين حميمين . ومع اقتراب موعد عودتهما شعرت بالأسى ، غير أن فرحتى كانت كبيرة حين أبلغنى جاك أننا سنعود معهما إلى فرانكفورت . وقال لنا إنه قادر على أن يدير أعماله فى وكالة السياحة من هناك . شعر أبى بسعادة غامرة حتى أنه وعدنا بأن يعد لنا شقة فى البيت الذى

اشتراه خارج ضواحى فرانكفورت . وأعربت عن سعادتى لهذه المفاجأة . فهذا ما كنت آمله .

بدأ جاك يعد خطط إخراجى من البلد . لم يكن يريد أن يولد ابنه المنتظر منى فى إسرائيل .

وعندما سألته عن السبب ، أجاب :

- إن إسرائيل دولة حرب ، وأنت تعرفين ما يقع من كوارث أثناء الحرب . وإذا ولد فى إسرائيل فسوف يحمل جواز سفر إسرائيليا مما يخلق له مشكلات . وأحرى بك أن تكونى فى ألمانيا عند ولادته ليصبح ألمانيا .

وقد تبين أن هذا غير ممكن .

بدأنا فى حزم أمتعتنا وتصفية أعمالنا . واستقلينا أنا وأندريا وسيارتى الأوبل سفينة أبحرت بنا من حيفا إلى فينيسيا . وقد عاملونا على ظهرها كالأمراء ، بسبب علاقات جاك . كانت سفينة يونانية ، واعتاد القبطان أن يدعونا لمائدته . وصادقت أندريا ابنة القبطان التى كانت فى مثل سنها ، مما كفل لها صحبة جيدة أثناء الرحلة .

وحين غادرنا السفينة فى فينيسيا وجدنا جاك فى انتظارنا هناك . استقلينا سيارتى الأوبل من فينيسيا إلى فرانكفورت ، وهناك واجهنا البيروقراطية بإجراءاتها المعذبة .

□ □ □

غمرتنا فرحة طاغية لعودتنا إلى الوطن وإعلان زواجنا ، وإننا بصدد إنجاب طفل . لكن مشكلة زواج اثنين من جنسيتين مختلفتين بدت أول الأمر ضربا من المستحيلات . فالزواج فى ألمانيا يقتضى أن يكون لدى كل طرف فى الزواج سجل (دفتر) للأسرة تسجل فيه الزيجات والمواليد والوفيات . وكان لدىّ مثل هذا الدفتر ، أخذته عن والدىّ . لكن جاك لم يكن لديه مثل هذا الدفتر الأسرى . لذا كان عليه فى يوم زواجنا أن يقسم أمام مسؤولى البلدية



● زواج جـــاك بيتـون وفالتـــراود بيتون فى ١٩٦٤ .

أنه ولد يوم ٢٣ أغسطس من عام ١٩١٩ فى المنصورة ، فى مصر ، لأب اسمه شالوم بيتون ، وأم اسمها الجيرا لازرا ، وان شهادة ميلاده دمرت فى حريق ، وأنه لا يملك وسيلة للحصول على شهادة ميلاده الأصلية .

وكان هذا كافيا لتأكيد هويته لدى الموظفين الألمان المسؤولين . وبعد شهور من النضال مع النظام الألمانى تزوج جاك بيتون بفالتراود بندر فى العاشر من يوليو سنة ١٩٦٤ فى قاعة البلدية فى فرانكفورت فى ألمانيا .

□ □ □

كان شاهدا الزواج هما أبى وابن عم أمى ، وهو رجل شرطة جنائية ، كان جاك يحبه جدا لأنه شخصية مرحة يحب الدعابة ، وأصر على أن يجعله شاهدا على زواجنا . كانا صديقين متقاربين ويقضيان معا وقتا طويلاً . وكان جاك يقول إنه يشبه بوب هوب ، وقد توفى ابن العم هذا .

جاء جاك إلى الحفل ومعه كمية ضخمة من الزهور ألقاها بين ذراعى وهو يقول :

- هاك زهورك .

وأغرق الضيوف فى الضحك لمنظرى وأنا أحمل هذه الكمية الضخمة بين ذراعى . ولم أستطع أن أحملها طويلا فانتقيت منها نحو ١٠ زهرات ، ووضعنا الباقى فى فازات . جرى الاحتفال فى الساعة العاشرة صباحا من يوم ١٠ يوليو ١٩٦٤ فى فرانكفورت فى قاعة المناسبات التى تسمى رومرباك . وذلك بعد أن انقضت مدة الأسابيع الأربعة التى ينص القانون على انقضائها بين تقديم طلب الزواج وإعلان هذا الطلب فى لوحة توضع فى قاعة المناسبات طوال هذه المدة ، حتى يتقدم من له اعتراض على الزواج بحيثياته . فالزواج فى ألمانيا لا بد وأن يتم فى مجلس المدينة ، وليس فى الكنيسة ، وبعد ذلك يقرر الزوجان ما إذا كانا يريدان الذهاب للتسجيل أيضا فى الكنيسة أم لا ، فذلك أمر اختيارى .

□ □ □

ها قد تزوجنا . نحن الآن فى فصل الصيف ، وها أنذا حامل ، وما أطيب الحياة الرضيّة . ربما لم تكن حياتنا رضية تماما ، لكنها كانت جميلة رغم هذا ، ذلك أن جاك واجه مشكلة صغيرة . فالسلطات الألمانية صدقت قصته عن هويته الشخصية وهى أنه إسرائيلى ويهودى ، ومن ثم فإن الطفل المنتظر لا بد وأن يكون إسرائيليا . وجعل هذا جاك يستشيط غضبا . وأعلن ، أنه لن يرضى بذلك . وربما لم يكن من يعرفون جاك يصدقون مدى اهتياج هذا السيد المهذب عندما أخبرته السلطات الألمانية أن ابنه سوف يحمل الجنسية الإسرائيلية ، فقد انفجر ساخطا :

– كيف يحدث هذا ؟ لقد أتيت بك إلى ألمانيا لتضعى مولودك بها ويصبح ألمانيا ، وها هم يقولون لى انه إسرائيلى . أنا لا أستطيع أن أصدق هذا ، ولا أزيد هذا بأى حال .

واتجه جاك إلى السفارة الإسرائيلية فى بون ، ليسأل عن هذا ، فأكدوا له صحته ، وأن الألمان لن يمنحوا الجنسية لابنه ، بل أخبروه أيضا أن إسرائيل كذلك لن تمنح الطفل جنسيتها لأن الأم ليست يهودية ولا إسرائيلية . وحاولت أن أبقى بعيدا عن هذه المشكلة وأدعه يعالجها بنفسه .

□ □ □

بعد الزفاف بفترة قصيرة أبلغنى جاك أنه يريد أن ينهى أعماله فى إسرائيل ، ويبدأ حياة جديدة معى هنا فى ألمانيا . كنت قد تركت ألمانيا تماما لأبقى مع هذا الرجل . وها أنذا أعود ثانية إلى ألمانيا لأكون معه . ولم تتبدل مشاعرى نحوه فى الحالتين ، فقد قررت أن أكون معه حيثما يريد . قمنا برحلة قصيرة عائدين إلى تل أبيب حتى ينهى جاك بعض أعماله ، وأودع أنا أصدقاءنا هناك . بدا الأمر مضحكا ، غير أننى شعرت بالأمان كاملا طالما أن أفضل شىء لى أن أبقى بجانبه ، ولا يهمنى حقيقة أين أكون .

بدأنا رحلة العودة إلى إسرائيل فى التاسع عشر من يوليو . وهناك سجل جاك زواجنا ، وانهالت علينا التهانى والتمنيات الطيبة . وقضينا شهر العسل فى إسرائيل . وأبلغنا الأصدقاء بنبأ عزمنا على الرحيل نهائيا زاعمين لكل من تحدثنا إليه أننى لا أتحمل طقس إسرائيل ، ولهذا اضطررنا إلى اتخاذ قرار بالانتقال إلى ألمانيا . وتفهم الجميع الأسباب . وأبدى موشى ديان وتيدى كوليك تعاطفا ومساندة كبيرين .

كان تيدى كوليك ، الذى أصبح عمدة للقدس فيما بعد ، من أصدقاء جاك المقربين ، وإن لم يكن بدرجة صداقته لديان . وكان كوليك أكثر جدية من ديان ، وكان مثقفا شديد الذكاء ، ويشبه موسوعة تحيط بكل شىء .

وأعتقد أن جاك كان قد اتخذ قرار الرحيل عن إسرائيل عندما قرر الزواج

بى ، فقد أعلن عندئذ أنه يود القدوم لألمانيا للعيش فيها ، لكن المسألة كانت تقتضى وقتا لتصفية أعماله فى مكتب السياحة ، لكن العامل الحاسم هو أنه لم يرد لابنه أن يكون إسرائيليا ، وشجعه أن والدى اشترى بيتا وطلب أن نعيش فيه معه ، وقال انه سيخصص لنا شقة فيه . ومع شدة ارتباط جاك بأسرته الجديدة وتقديسه للروابط الأسرية ، فقد أدهشنى أنه ليست له أى علاقات بأسرته القديمة ، وعندما أبديت له رغبتى عندما كنا فى باريس ، فى الالتقاء بمن بقى منهم على قيد الحياة نظرا لأنهم يعيشون فى فرنسا ، قال :

- ليس ذلك ضروريا ، فلست على اتصال بهم ، ولا أريد أن أراهم .

وعندما كنت استفسر عنهم وعن أحوالهم وعلاقاتهم كان يرد باقتضاب :

- ما قلته لك هو كل ما يجب أن تعرفيه ، لست فى حاجة لأكثر من ذلك ، المسألة لا تستحق الاهتمام .

□ □ □

والواقع أن جاك كان راضيا تماما عن أن القانون الإسرائيلى لن يتيح لابننا الحصول على الجنسية الإسرائيلية ، إذ كان ذلك يلائم خططه . وأسرّ لى أنه خطط ليكون مواطنا ألمانيا ، ومن ثم فإن ابنه سيصبح مواطنا ألمانيا . لم يكن يريد للطفل أن يكون إسرائيليا . ولم أعرف السبب فى ذلك إلا فى وقت متأخر جدا .

وبعد ستة أسابيع من شهر العسل والعمل ، عدنا إلى ألمانيا بنية البقاء فيها للأبد ، فى عيد الفصح فى ١٩٦٤ . وعشنا مع أبى فى بيته الجديد فى مدينة صغيرة تضم ٤ آلاف نسمة تسمى جيستنهايم ، وبقينا فيها معا ٢٣ سنة . وذكرنى اتجاه جاك لهدفه مباشرة بلا دوران بأول لقاء بيننا ، فهو رجل يقرر ما يريد ، ويمضى إليه قدما . كان شغله الشاغل هو تهيئة حياتنا الجديدة وترتيب علاقات عمله . وذكرتنى طريقته فى الوصول مباشرة إلى الهدف بالرجل الذى حدد فى أول لقاء لى معه أنه يريد الزواج بى ومضى لغرضه مباشرة . كنت أتساءل فى دهشة هل كان دائما يتحلى بهذه المقدرة . وتساءلت



● جاك بيتون مع دانييل أمام المنزل فى ألمانيا فى ١٩٦٨ .

فيما بينى وبين نفسى عما جرى فى حياته قبل أن يعرفنى مما جعله على هذا النحو ، قدرة وثقة بالنفس واطمئنانا . وكنت أحيانا اتساءل بينى وبين نفسى ترى ماذا وراء جاك بيتون ؟

□ □ □

فى سبتمبر سافر جاك إلى لندن لمقابلة أحد شركائه اليهود فى مجال الأعمال . وقرر جاك أن يفتح وكالة سفريات فى فرانكفورت مع شريكه المقيم فى لندن باعتباره شريكا له ، غير أنه كان هذه المرة فى بلاد مغايرة ، ووجد أنه ليس من المسموح له ، باعتباره أجنبيا ، بأن يمتلك عملا فى ألمانيا . ولهذا أنشأت فالتراود بيتون وحاييم لازار ، وهو يهودى بريطانى يحق له أن

يسجل شركة فى ألمانيا ، مؤسسة ASA Deutschland GmbH ، كوكالة للسفريات من وإلى أمريكا الجنوبية . واستهدفت الوكالة التخصص فى الرحلات إلى أمريكا الجنوبية . غير أن هذا لم يكن كافيا بالنسبة لجاك .

وفى شهر أكتوبر سافر إلى إيطاليا ، سعيا إلى إبرام المزيد من العقود الخاصة بأعمال وكالة السفريات الأمريكية الجنوبية . وبعدها سافر إلى إسرائيل بهدف تحقيق مزيد من الأعمال كما قال . بدا الرجل مشغولا جدا حتى أنه كان فى يوم ٣١ أكتوبر وهو يوم ميلاد ابنى ، لا يزال فى إسرائيل . لكن لم يزايلنى الشعور بأنه قريبٍ جدا منى . ذلك أنه وعلى مدى الفترة الوجيزة التى عشناها معا استطاع أن يبنى ثقة راسخة بيننا بحيث لا تؤثر فيها تلك المسافات البعيدة والبحار الواسعة . لقد كان شهر أكتوبر شهرا رائعا حقا رغم كثرة سفريات جاك . والأمر الغريب فى هذه السفريات أنها لم تتم أبدا على طائرات شركة العال إلا فى مرة واحدة ، المرة التى أحضر فيها أندريا معه .

وما أن أنجز جاك مهامه حتى عاد إلى فرانكفورت . ففى الأول من نوفمبر توجهت أندريا بصحبة أبى إلى المطار حيث استقبلاه وعادا به إلى المستشفى مباشرة . حاولت أندريا أن تخبره بالألمانية أنه قد أصبح لها أخ ، ولكنه فهم أن الوليد أخت لها . اندفع جاك للغرفة متوقعا رؤية ابنته . كانت هذه هى أول مرة أراه فيها غير متحكم فى أعصابه كالعادة . بدا عصبيا غير واثق شأن أى إنسان عادى ، وجعلنى هذا أحبه أكثر . كان قد أحضر لى معه هدية ، قلادة ذهبية . وأحسست بزهو غامر وأنا أقدم إليه ابنه .

وأشرق وجه جاك وفاض بالأمل ، وهو يأخذ مظهر « الأب الفخور » التقليدى . أريته ابنه وتطلع إليه وقال « إنه يشبه فأرا ! » . وشعرت بالإحباط لقوله هذا . فبعد جهد مضن لمدة تسعة أشهر لإنجاز هذا المشروع اسمع منه هذه الكلمات . لم أشأ أن أكشف له حقيقة شعورى آنذاك ، لذا اكتفيت بقولى :

– سأحاول أن أجد لك ابنا عمره سنتان إذا كان هذا يسرك أكثر .

ولكننا قررنا الاحتفاظ بالطفل الذى رزقنا به .

قضينا الأسبوع بطوله فى حوار حول الاسم الذى نختاره ، وجاهدت لأقنع

جاك أن اسم دانييل اسم جميل . فقد كنت أتمنى أن اسمى ابنتى دانييلا ، ولكن لم يحدث ما أتمناه . فعندما جاءت الممرضة بعد مولدها لتسأل عن اسم المولود أجبت : دانييلا ، وعقبت أختى قائلة :

- لم يسم أحد فى عائلتنا باسم أندريا .

ويبدو أن الممرضة أخطأت وفهمت أننا اخترنا أندريا وسجلته كذلك .

وقد وافق جاك على اسم دانييل ، لكنه أصر على تسجيل الطفل مسيحيا بروتستانتيا . وكان منطقه فى هذا أن الأم هى المسؤولة عن تلقين الطفل التعاليم الدينية فى البيت ، وحيث أنى مسيحية يجب أن يكون ابنى مسيحيا ، إضافة إلى أنه ليس من مصلحة دانييل أن يشب كيهودى فى ألمانيا . وبدا لى هذا المنطق معقولا ومقبولا . وفى عيد الميلاد تم تعميد دانييل فى بيتنا على يد قسيس بروتستانتى .

ففى ألمانيا من المسموح به تسجيل الطفل حسب ديانة الأب أو الأم ، بل ويمكن تركه بغير عقيدة دينية حتى سن الرابعة عشرة ليقرر هو بنفسه العقيدة التى يختارها . لكن جاك لم يفضل هذا وقال :

- أريده بروتستانتيا . سيذهب إلى المدرسة هنا ، ويتعين أن تكون له عقيدة دينية . من يدرى ربما يحدث شىء ، ويكون بحاجة إلى إبراز عقيدته الدينية .

وقلت له :

- إذن لماذا لا تريده أن يكون يهوديا . أنت يهودى ، ومن الطبيعى أن يكون ابنك يهوديا .

لكنه رد بحسم :

- لا ، لا أريد هذا ، لأنه سيجعله يواجه مشكلات ، وأنا أرغب فى أن يتجنب ذلك .

□ □ □



● جاك بيتون مع « والد ابنه دانييل فى العماد » فى المنزل فى ألمانيا .

ومضت بنا الحياة ، وفى العاشر من شهر يناير ، طرق بابنا رجل أسمر البشرة ، وطلب منى أن يرى جاك ، فدعوته للدخول واتجهت لأنادى زوجى . ورحب جاك بالرجل باعتباره واحدا من معارفه ، لكن بدا عليه أنه شعر بصدمة لرؤيته واقفا فى بيتنا . دعا جاك الرجل إلى مكتبه فى الدور العلوى وتبعته كالعادة . فقد اعتدت أن أحضر معه كل جلسات صفقاته وأقوم بدور المضيفة الجيدة ، وأعرض على الضيوف أنواعا مختلفة من المشروبات ليختاروا منها . لكننى دهشت هذه المرة ، عندما قال لى جاك فى برود شديد ان حضورى ليس ضروريا ، وأنه سوف ينادينى إذا احتاجنى . تأذيت لذلك ، فإن علاقتنا لم تقم على مثل هذا . وعلى أية حال لم يكن الوقت يسمح بالعتاب ، ولم أكن الإنسانة التى تجابه زوجها لسبب كهذا . عدت أدراجى إلى الدور الأرضى وانتظرت . وبعد حوالى الساعة غادر الرجل البيت . وأخبرنى جاك أنه سيسافر فى اليوم التالى إلى باريس فى رحلة عمل ، وقد يعود بعد عشرة أيام . قلت « وهو كذلك » ، كما اعتدت أن أقول بالنسبة لرحلات جاك . غير أنه هذه المرة بدا عصبيا قليلا وغير مرتاح .

لكن ما حدث بعد رحيله لم يكن أمرا مألوفا ، فلم يطلبنى بالتليفون كالعادة ، ومضت خمسة أيام دون اتصال منه . وانتابتنى حينذاك العصبية ، لخروجه على عادته فى الاتصال بنا يوميا للاطمئنان على كل شيء ، والسؤال عن أحوال الطفلين وما يفعلانه ، وكان ذلك يشعرنى بالسعادة نتيجة لذلك الإحساس بأنه قريب رغم بعده . وفى وحدتى هذه المرة ، بدأت أعتقد فى أن شيئا قد حدث له . طلبت بالتليفون كل الفنادق التى أظن أنه نزل بها فى باريس ، ولم أجد اسم جاك بيتون مسجلا فى أى منها . واتجهت إلى الشرطة بناء على نصيحة محامى أبى ، وحررت محضرا بشأن الأشخاص المفقودين ، فالشرطة تستطيع التحرى عنه حتى فى البلاد الأجنبية .

وفكرت فى المستشفيات التى ربما يكون قد نزل بها . ربما أصابه سوء . وجعلنى عدم تلقى أى مكالمات تليفونية منه أحس بالفراغ ، وبأن الوقت طويل طويل ، وأزداد قلقا بشأن سلامته . ومضت أيام أخرى دون أى مكالمة تليفونية من جاك أو أخبار من الشرطة . وفى اليوم العاشر ذهبت ثانية إلى مركز الشرطة لأستبين الوضع وأعرف ما الذى يمكن أن أفعله بعد ذلك . وخاب أملى حين طلبوا منى العودة إلى البيت والانتظار . ولكن عند عودتى إلى البيت وجدت أمى فى نشوة غامرة . همست لى فى هدوء شديد انه نائم بالدور العلوى . سألتها متى وصل ، فقالت إنه فى لحظة خروجى من البيت ، توقفت سيارة أجرة وخرج منها جاك . هرولت صاعدة الدرج لأجابهه . لن أدعه ينم قبل أن يقدم لى تفسيرا ما عما جرى . كيف واتته فكرة أننى سأتركه يفلت هكذا بعد ارتكاب هذا الهراء .

حين دخلت إلى الحجرة المعبقة بآثار دخان السجائر توقفت لحظة . فقد رأيت جاك نائما على السرير بكامل ملابسه أشعث الشعر مرهق الجسد . لم أر زوجى اللطيف المهذب على هذه الحال أبدا . بيد أننى توقفت هنيهة فقط ، ثم تقدمت نحوه لأوقظه وأكاشفه بما فى نفسى . كنت أريد أن أبلغه بوضوح أننى لن أدع الأمور تمضى على هذا النحو .

وعندما أيقظته وكاشفته بما فى نفسى ، فوجئت بأنه يقول لى ببرود :

– لن أقول لك أين كنت ولن تعرفى أبدا . وإياك أن تتجرئى وتسأليني عن ذلك ثانية .

ولأول مرة أحسست بالخوف من الرجل ، بسبب الطريقة التى صرخ بها فى وجهى . فقد كان شخصا مختلفا تماما عن الإنسان الذى عرفته . خفت منه ، وظل هذا الخوف يطفو على السطح أحيانا فى حياتنا بعد ذلك . لأننى عندما كنت فى بعض المرات أهم بأن أقول له شيئا ، أتذكر صراخه ونظراته إلىّ فى تلك المرة ، فأسكت وأخاف من مجرد ذكر ما كنت بصدد أن أقوله .

لقد أفسدت هذه الواقعة جزءا من ثقتى العمياء فيه ، ولزم وقت كبير حتى أستعيدها . لقد أيقنت فى اللحظة التى انفجر فيها صارخا فىّ أنه قادر على فعل أى شىء . لقد جاهدت لأنسى ما حدث . لم نتحدث عن هذا بعد ذلك وإن لم أنسه أبدا . ولم أدرك أين كان إلا أخيرا جدا .

لا أحد من البشر كامل تماما بما فيهم جاك . لقد عشت معه فى دنيا الأحلام . وبدا لى كل شىء جديدا تماما ، جذابا للغاية حتى أنى نسيت أنه رجل له حاجاته وانفعالاته وعثراته شأن بقية البشر . ومنذ ذلك الحين لم يتعرض مسار حياتنا معا للهبوط ، ولكن النظرة إلى الوراء توضح أن ذلك كان نقطة تحول لكلينا .

لم يكف جاك عن رحلاته المتصلة . كان يتطلع دائما إلى فرص جديدة فى العمل ، وإلى شركاء جدد ، ولكن الأمور لم تعد تمضى سهلة يسيرة ، مثلما كان الحال فى الماضى . ظل محتفظا بشركة ASA باعتبارها مؤسستنا الرئيسية ، ولكننا كنا أحيانا نحقق عائدا منها وأحيانا لا نحقق شيئا . وتحسنت علاقة جاك بأبى باطراد . ونما وتزايد الاحترام العظيم الذى يكنه هاينريتش لزوجى ، وأصبحا قريبين جدا من بعضهما . واعتاد جاك أن يشرك هاينريتش فى بعض صفقاته المربحة ، مثلما كان هاينريتش يلجأ إلى جاك أحيانا فى بعض الصفقات المفيدة للطرفين .

طور الاثنان نظاما للمحاسبة والتعامل بينهما يسير كالآتى : « هاينريتش ،



● أمام المنزل فى ألمانيا (خارج فرانكفورت) فى ١٩٧٨ .

إنى أحتاج إلى ١٠٠٠٠٠ مارك ألمانى للبحث عن عمل فى سويسرا » ، فيحرر له أبى شيكا على الفور . وأحيانا يصعد أبى إلى شقتنا ويقول « جاك أعطنى ٥٠٠٠٠ مارك ألمانى لأننى سأضيف توسعات للبيت » فيناولها له جاك ، لم يكن أبى بالرجل الذى يتنازل بسهولة عن المال ، ولكنه كان يقدم لجاك ما يريد فى سخاء . وامتدت الثقة وتدعمت بينهما .

وعلى الرغم من أن العمل لم يكن بنفس القدر من النشاط السابق ، وأننا لم نعد قادرين دائما على الوفاء بمقتضيات الترف والبذخ فى سهولة كبيرة ، إلا أن حياتنا المنزلية كانت تمضى من أفضل إلى أفضل طوال الوقت . كان جاك لا يزال محتفظا بسحره ، كان يسحرنى ، ويسحر كل من حوله ، غير أننى بدأت أعشق الرجل بدرجة أكبر كثيرا منذ أن أصبح أبا لطفلينا فى البيت . وكشف التجاوب بينه وبين أندريا ودانييل عن أنه رجل حنون دافىء العواطف . لم تلهه يوما مشاغله مهما كثرت ولا غضبه ولا متاعبه عن طفليه . لعلنا كنا نتطلع نحن الاثنين إلى مستقبل آخر لنا من خلال طفلينا .

ورغم أنه اعتاد أن يصيح بأعلى صوته عند الكلام أحيانا على نحو يجعل كل من فى البيت يكفون عن الحركة حتى أمى فى المطبخ ، فإنه كان وديعا شديد الهدوء مع الأطفال لا يصرخ فى وجوههم أبدا . وعلى الرغم من أن دانييل كان يبدو متعمدا جعل أبيه يصرخ فيه ، إلا أن جاك كان يشرح له خطأه بهدوء ويقول له :

- لا أريد أن أكون أباك بل صديقك .

□ □ □

تهيأ لى أنا وجاك وقت طويل هادىء فى ألمانيا لكى نجلس معا ونتحدث عن أحلامنا . ذلك أنه كان من الصعب فى ظل السفر والترحال المستمر ، ومتابعتى المستمرة له حول العالم ، أن تتوافر الفرصة للتوقف وتأمل الأمور ، ومعرفة الواحد منا للآخر . لكن ذلك تغير فى تلك المرحلة ، فبعد أن يأوى الطفلان إلى فراشيهما ويستسلمان للنوم ، كنا نبدأ حديثنا مع أبى وأمى ، أو نحتسى القهوة وحدنا ونتحدث . وفى هذه الحالة أو تلك ، كان يذهلنى على الدوام حجم المعلومات التى يلم بها هذا الرجل عن كل ما يجرى فى العالم . كان قادرا على أن يلقى نظرة على تقارير الأنباء بشأن الحالة السياسية فى بلاد بعيدة جدا ، ويشرح لى ما يجرى هناك بطريقة بسيطة ، طريقة مفهومة معقولة . وعلى الرغم من أنه أصبح أميل إلى الهدوء ، وأكثر اهتماما بالأسرة ، فقد كنت ما أزال أتساءل بينى وبين نفسى عما وراءه . ترى ما الذى حدث فى ماضى حياته فطوره وأنضجه وصاغه على هذا النحو ، ليكون هذا الإنسان الذى أحببته بكل قلبى .

□ □ □



الكوارث لا تأتى فرادى

فى عام ١٩٦٦ اتخذت أنا وجاك الخطوات الرسمية اللازمة لكى يتبنى جاك أندريا ولتصبح ابنته قانونا . كانت أندريا تظن دائما أن جاك هو أبوها بالميلاد ، ولم نقل لها غير ذلك ، بيد أن جاك أراد أن تكون الرابطة بينه وبين أندريا كاملة أمام الله والقانون . كان هذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة له . وغمرتنى سعادة بالغة إذ اختار أن يعبر عن حبه لها بهذه الطريقة .

ونظرا لأن العمل كان فى صعود وهبوط حينذاك . وكانت حالات الهبوط أكثر من حالات الصعود ، فقد بدأ جاك يقضى وقتا طويلا فى الاطلاع على كتب تتناول موضوع النفط وأعمال البترول . ولم أكن أعرف أن لديه خططا فى هذا الاتجاه إلا بعد مضى وقت طويل .

فقد أدرك جاك أن عمله فى السياحة فى ألمانيا لن يكون مثمرا . ربما لا يكون قد بذل فيه جهدا كافيا ، لست أدرى . وعندما أخبرنى بأنه سيتاجر فى النفط الخام ومنتجاته المكررة ، سألته :

– لماذا ، إنه عمل مغاير تماما لعملك السابق ولكل خبراتك .

فأجاب :

– إنه عمل يستهوينى ، بل لقد استهوانى دائما ، وسأتعلم كل ما يلزم عنه ، وسأستعين بالكتب والمراجع فى ذلك ، وسأعرف جيدا ما سأفعله .

وهذا ما فعله . فقد استقل سيارة إلى أكبر مكتبة فى فرانكفورت ، واشترى كل ما يستطيع من كتب ومراجع عن النفط الخام وصناعة البترول ، وبدأ يقرأ ويدرس ويجمع معلومات .

وافتتحنا لهذا الغرض مكتبا فى بيت أبى ، مكونا من ثلاث حجرات ، وبدأنا العمل فيه تدريجيا وإن كنا واثقين من النجاح . وأنفق جاك على هذا المكتب الكثير ، وكسب الكثير وخسر أيضا . كنا نعمل فيه أنا وهو فقط ، أنا أقوم بأعمال السكرتارية والاتصالات التليفونية ، ويقوم هو بعقد صفقات البيع والشراء ، وقد استغل فى هذا صداقاته وصلاته فى تل أبيب . كنا نقوم بأعمال الاستيراد والتصدير لمنتجات النفط المكررة مع أسبانيا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وبريطانيا وسويسرا . كان العمل يتم على نطاق صغير ، لكنه كان يستهوينا وأخذ يثمر تدريجيا .

□ □ □

ثم نشبت حرب ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط ، وفوجئت بأنها أصابته بحالة اهتياج وسخط شديدين . كان يجلس على كرسيه ويصيح ويصرخ بأن ما يحدث غير معقول وعندما سألته :

- ماذا بك ، لماذا تهتم لهذا الحد . إن إسرائيل منتصرة . هل يؤثر هذا على أعمالك ؟

قال بحدة :

- أعمال أى أعمال ! أنا لا أتحدث عن هذه البلاهة . لا تسأليني . لا علاقة لك بهذا كله .

وكان يحرص على مشاهدة نشرات الأخبار كلها ، ويذهب إلى المطار يوميا ليشترى كل الصحف ، العربية والعبرية والإنجليزية ويقرأها كلها من الصفحة الأولى للأخيرة .

□ □ □

ومع بداية السبعينات التحق طفلانا بمدرستين خاصتين . فقد أصر جاك على أن يضمن لهما أفضل تعليم . وكان لا يفتأ يردد عبارته :

- المال يذهب ويجيء ، ولكن لا أحد يستطيع أن ينتزع عنك تعليمك .

وفى صيف ١٩٧١ قررنا القيام برحلة تعليمية إلى إسرائيل بصحبة طفلينا . كانا حينذاك قد أصبحا أكبر سنا قليلا ، وكانت « القدس » مدينة مفتوحة ، ورأى جاك فى هذا فرصة لجعلهما يشاهدان جميع المعالم التاريخية . وأعلن جاك أن بإمكاننا الذهاب عن طريق روما حتى يستمتع الطفلان بمشاهدة روما أيضا . وكان من الطبيعى أن تكون له أيضا خططه للقاءات الخاصة بالعمل حيثما حل أو رحل . وما أن وصلنا إلى تل أبيب حتى بدأ الكابوس . لم نستطع أن نرى الأصدقاء لأن إقامتنا فيها لم تكن طويلة ، ولأن إسرائيل كانت تواجه مشكلة تفشى وباء الكوليرا . وكنا قد وصلنا فى ذروة انتشار المرض . ولكثرة المخاطر التى أحاطت بطفلينا فى تل أبيب والقدس من جراء الوباء ، ضقنا ذرعا وقررنا الخروج بهما والعودة لألمانيا . واكتشفنا أن الطائرة التى أقلتنا عائدين كانت هى آخر طائرة تغادر إسرائيل قبل إغلاق الحدود وفرض قيود الحجر الصحى .

□ □ □

واستمرت حياتنا فى ألمانيا على ما هى عليه ، واستمر جاك فى عمله فى مكتب استيراد وتصدير النفط . ولكن فى عام ١٩٧١ وجدت أن أندريا ودانييل يقضيان معظم الوقت فى مدرستيهما ، وأن جاك عاكف على عمله فى مجال البترول ، ومن ثم سنحت لى فرصة الخروج من إسار الأسرة وافتتاح عمل تجارى خاص بى . والواقع أن عملى معه فى مجال البترول لم يرضنى ، لأنى لم أكن أعرف شيئا فيه . كما أن جاك كان كثيرا ما ينجز الأعمال بنفسه : يطبع على الآلة الكاتبة ، ويرسل التلكسات ويطلب المكالمات . وكنت أجلس فى ملل ، وأخبرته أننى سئمت ، ووافق على أن أبدأ مشروعا منفصلا . وأبدى كل من عرفت استعداده لمؤازرتى حين قلت اننى أريد فتح محل صغير « بوتيك » خاص ببضائع السيدات . لكن هدفى كان أرحب من ذلك ، إذ كنت أريد الانطلاق ولقاء عدد أكبر من الناس .

بدأت « محلى الجديد » فى فرانكفورت . كان مكانا صغيرا مبهجا يموج حيوية ويستهوى النساء ، يقصدنه للفرجة والتلاقى وشراء الملابس . كانت البداية مشجعة ومبشرة . ولكن كلما طال الوقت الذى أقضيه فيه ، زاد نفور جاك منه . وبدأ يطلب منى قضاء المزيد والمزيد من الوقت معه فى البيت ، وأخبرنى أنه يريد منى أن أعمل معه ثانية فى مؤسسته التى تعمل فى حقل البترول . وبدا لى أننى إزاء معضلة على نحو ما ، إذ بدأت استمتع باستقلالى ونجاحى الحديثين ، ولكن زوجى يريدنى بجانبه . وأدركت أن هذا هو ما يفرضه على واجبى نحوه . وبدأت أغيب فترات طويلة عن المحل ، واعتمدت على بائعة أتيت بها . وأخذ عملى فى التدهور نظرا لأنى لم أعد ألتفت إليه ، حتى أغلقت المحل فى عام ١٩٧٢ . وحتى يخفف جاك من وقع هذا على نفسى ، اشترى لى سيارة مرسيدس سبور بيضاء .

وسنحت لنا الفرصة فى عام ١٩٧٣ لنحصل لدانييل أخيرا على الجنسية ويصبح له وطن . وأخيرا أصبح جاك ودانييل مواطنين ألمانيين . فعندما حصل جاك على حق المواطنة انتقل هذا الحق إلى ابنه .

لم يكن هذا سهلا . فقد استغرق ٥ سنوات . فقد كنا قد استشرنا محاميا شرح لنا الإجراءات ، وحررنا كل أنواع الاستمارات ولكن دون نتيجة سريعة . ونصحنى البعض بأن أتبنى دانييل رسميا ، رغم إنه ابنى ، حتى يتسنى له أن يتقدم بطلب الجنسية الألمانية . ولتحقيق ذلك ، كان علىّ أن أثبت أنى من أصول ألمانية منذ سنوات طويلة ، منذ ١٦٥٠ أو ما شابه ذلك . ولحسن الحظ أن أبى كان قد أعد شجرة العائلة فى فترة حكم هتلر ، لأن هذا كان أمرا إجباريا خلال هذه الفترة ، لكن هذه المحاولة لم تجد .

وبعد خمس سنوات من الطلبات التى قدمها جاك للحصول على الجنسية ، جاءنا استدعاء من الحى الذى نعيش فيه ، وأجروا لجاك امتحانا فى اللغة الألمانية . ولم تكن ألمانيته جيدة . وكانت الفتاة التى أجرت له الامتحان متساهلة ، وعرضت أن تمليه مقطعا من الصحيفة اليومية ليكتبه ، لكن كتابته كانت سيئة أيضا ، فأعطته الصحيفة لينقل منها مباشرة لتريح بالها . وبعد انتهاء

الإجراءات ، وإعطاء جاك وثيقة الجنسية الألمانية وجواز السفر الألمانى ، قامت السلطات الألمانية بسحب جواز سفره الإسرائيلى .

□ □ □

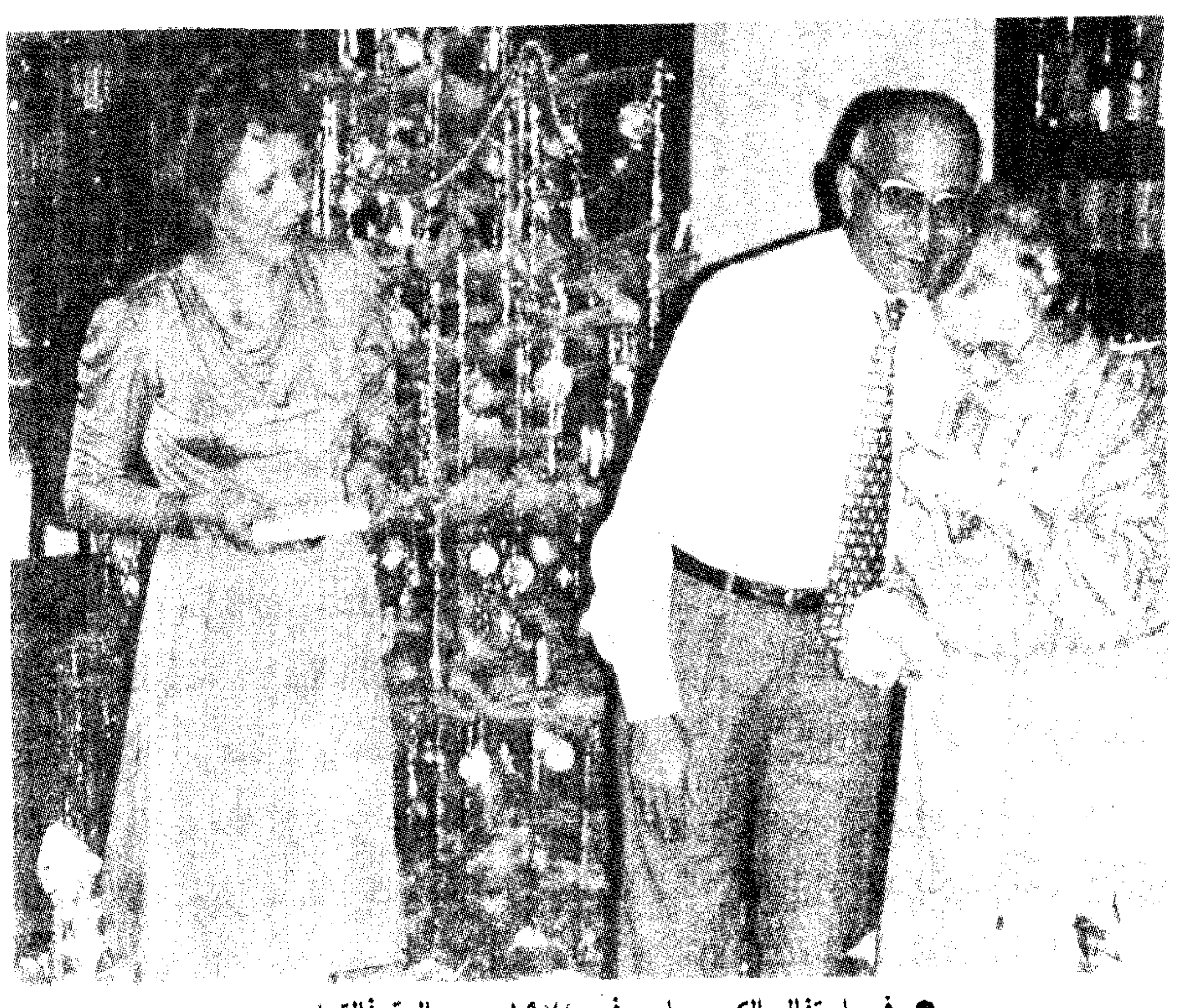
وتحقق لجاك انتصار آخر ، تمثل فى علاقته بالقس البروتستانتى المحلى ، هوفمان . ذلك انه بعد تعميد دانييل أصبح جاك والقس صديقين . واعتاد القس أن يحضر لبيتنا ليتحدث مع جاك عن الموقف العالمى . ونظرا لأن هذا القس كان يعيش فى مجتمع صغير ، فقد كان الجميع يعرفونه ، بمن فيهم أبى وأمى باعتبارهما من البروتستانت . كما كان الطفلان يعرفانه ، لأنهما كانا يلعبان قرب الكنيسة . وهذا النوع من القسس فضولى ، فقد استفسر من الطفلين عما يفعله أبوهما ، وعندما عرف منهما أنه يقرأ الجرائد العربية ويتحدث العربية طلب منه أن يمر عليه فى زيارة ، كما كان يريد أن يزور جدتى العجوز التى كانت تعيش معنا وكان يعرفها . ومنذ ذلك الحين ، أخذ يتردد على منزلنا ليتحدث مع جاك عن الموقف العالمى ، وكان الحديث بينهما يتم باللغة العربية .

كان القس هوفمان ألمانيا قحا ، لكنه أمضى فترة من حياته فى مصر وتعلم فيها اللغة العربية . وكان مغرما بمصر ، ولديه فى منزله غرفة خاصة كل شيء فيها مصرى . وأعتقد أن الطفلين شاهداها ، وذكرا له بهذه المناسبة أن أباهما من مصر ، ومن هنا بدأ اهتمامه بجاك . وكان جاك يطلب من الطفلين أن يحملا إليه الصحف العربية بعد أن يقرأها .

كان جاك والقس يناقشان موضوعات متنوعة ومتعددة ويدخنان ويشربان معا . ومع أن جاك لم يسمح لأحد بأن يزوره فى بيته ، إلا أنه كان يرحب بالقس ويقدم له أسبوعيا منحة إلى الكنيسة فى حدود ٢٠٠ مارك ، وعندما سألته عن سبب استثناء القس والسماح له بزيارتنا ، قال :

- الرجل يريد أن يدرب نفسه على الحديث باللغة العربية . فلم لا . ما الذى يمنع أن يحضر لنحو ساعة أو إلى ذلك ما دام عنده وقت .

□ □ □



● فى احتفال الكريسماس فى ١٩٧٤ مع والدة فالتراود .

وبعد أن غادر القس البيت ذات يوم ، خرج جاك من غرفته وهو سعيد سعادة غامرة ، ليقول إن القس قدم له شهادة رسمية من الكنيسة مكتوبة بالآلة الكاتبة على ورق الكنيسة تفيد بأنه عضو كامل الحقوق والواجبات بالكنيسة البروتستانتية المحلية . ولم أتبين دلالة ذلك وأهميته إلا فى العام التالى ، نظرا لأننى كنت أعرفه باعتباره يهوديا . ولكن سرعان ما اتضح أنه كان يخطط لذلك ، لأنه كان ينوى العمل مع بلاد عربية ، وأنه لا يريد أن يقدم لهم نفسه باعتباره يهوديا . وعموما ، فإن جاك لم يكن يؤدى الشعائر اليهودية ، فلم أره أبدا يتردد على المعابد اليهودية .

□ □ □

وقد اتضح أن جاك يستبق الأحداث ويوظفها ويستعد لها . وكان حصوله على شهادة بأنه بروتستانتى جزءا من هذا .

ففى عام ١٩٧٤ بعد عام من حرب ١٩٧٣ واجه الوضع العالمى تحولا مفاجئا . إذ أنه بعد سنوات من الإهمال والظلم الذى لاقته البلدان العربية قررت أن ترد الضاع صاعين مستخدمة منظمة الأوبيك . فقد اتضح على نحو لا لبس فيه أن العالم الأول (أوروبا والولايات المتحدة) ممالىء للدولة الإسرائيلية الحديثة على حساب العرب . وجاء الرد العربى فى شكل فرض حظر بترولى . وشهدت كافة بلدان العالم الأول الشاحنات وسيارات الركوب وقد اصطفت طوابير أمام محطات تموين البنزين الفارغة . وأصاب الشلل البنية الأساسية فى أكبر بلدان العالم الصناعية حين حرمتها البلدان العربية من النفط جزاء وفاقا على أعمالها . وواجهت مؤسسات الأعمال الكبرى مثلما واجه الأفراد مشكلات كثيرة . وكانت هذه هى الفرصة التى انتظرها جاك .

واستغل جاك أحسن استغلال الشركة التى أسسها فى الستينات والديانة البروتستانتية التى اكتسبها فى السبعينات . فقد غير اسم الشركة إلى « شركة النفط البحرية » . واستفاد من خلفيته الشرق أوسطية وبإجادته للغة العربية ، وقرر مفاتحة ليبيا لكى تبيع له النفط . لا أدرى كيف كان لقاؤه مع عدد من كبار المسؤولين فى ليبيا ، وبعد ثلاث رحلات إلى هناك عاد جاك وهو فى غاية السرور لأنه حصل على عقد من الحكومة الليبية بأن تبيعه كميات من النفط . وكانت العقود موقعة توقيعات صحيحة من وزراء فى الحكومة ، ومبين بها الكميات والتواريخ المحددة .

أخيرا ، وبعد ست سنوات قضيناها ونحن نعيش على ما نكسبه ، ويختلف من شهر إلى شهر ، وبعد أن أنفقنا كل أموالنا فى النشاط التجارى وضاع معظمه دون جدوى ، حان الوقت لكى نفرح ونحتفل ، فقد أصبحنا نملك كل ما يريده الجميع فى العالم الغربى ، ولا يستطيعون الحصول عليه وهو النفط .

عاد جاك مساء يوم جمعة حاملا العقد ، وأصر على أن نخرج فى تلك الليلة لتناول العشاء مع أبى وأمى . كانت مناسبة للاحتفال والابتهاج ، ورأيت أنه من الملائم أن نعاود السهر فى فندق فرانكفورتر هوف ، وكان جاك يحب التردد على مطعم هذا الفندق ، والإنصات لأحاديث من يجلسون على الموائد المجاورة . وقد تبينت فيما بعد السبب فى هذا . إذ كان اليهود يؤمونه بكثرة ،

ويبدو أن جاك كان يعد الاستماع إليهم جزءا من نشاطه الذى عرفته مؤخرا . وفى هذه السهرة أفاض جاك وهاينريتش فى الحديث معا ، وكنت أنا وأمى سعيدتين له . إذ كانت هذه هى أول وأعظم انطلاقة له منذ غادر إسرائيل . تحدثا معا عن العملاء المحتملين وعقود المستقبل ، وأوضح جاك لأبى أن باستطاعة المرء الآن أن يمضى إلى أى ركن فى أى طريق ويبيع النفط . وكانت الطوابير أمام محطات البنزين تدعم قوله هذا ، ولم يكن هناك شىء فى العالم يمكن أن يثير قلقنا .

كنا على ثقة تامة بأننا نملك « اللمسة الذهبية » وأن كل شىء سيمضى فى الطريق الصحيح ، وانهمرت علينا العروض من كل حدب وصوب . وقررت الشركة بعد طول تفكير وتدبير التعاقد على بيع ما نملك من نفط لبلجيكا . وأدركنا أن البلدان العربية تضع أوروبا فى القائمة السوداء ، ولكن رأينا أنه بالاستعانة بخطة جيدة للنقل مع قدر معقول من السرية يمكن أن نقلل من احتمالات الخطر وأن نقوم بعملية التسليم ونجنى ربحا وفيرا حدا .

ولكن ما أقل ما كنا نعرفه . فمجتمع النفط صغير ومحدود جدا . لذلك عرفت الحكومة الليبية بتفاصيل المفاوضات الجارية بيننا وبين البلجيكيين ، وتركنا « أصدقاؤنا » فى ليبيا ندخل فى تعاقد مع البلجيكيين إلى أن حان وقت التزامنا بتسليم النفط فأخبرونا بأنه غير متوافر . ولم تكن مفاوضات العالم كله لتقنعهم بإطلاق سراح النفط لنا ، ولم يكن أمامنا مفر من أن نخسر التأمين الذى دفعناه .

أما الشركة البلجيكية فقد كان لديها أكثر من ملاذ ، فقد أقامت دعوى علينا . قاضتنا بسبب عجزنا عن تنفيذ العقد ، ونظرا لأننا انكشفنا تماما ، فقد أعلنت شركتنا للنفط PTM GmbH فى فرانكفورت عام ١٩٧٤ إفلاسها .

□ □ □

فى عام ١٩٧٥ وبعد فترة قصيرة جدا من حزننا على خسارتنا فى شركة النفط ، بدأ جاك رحلاته إلى مصر . وشكل هناك مجموعة من رجال الأعمال



● جاك بيتون مع رجال أعمال فى ناساو بالباهاما فى ١٩٧٥ .

للبدء فى تأسيس شركة جديدة . وكان هدف الشركة هو القيام بأعمال السمسرة لعقد صفقات بين البلدان والشركات . وحيث أنه كانت قد توافرت لدينا حينذاك خبرة بما يتعين علينا ألا نفعله ، وخفت حدة الخطر ، فقد سافرت المجموعة إلى جنيف فى سويسرا حيث ضموا عددا من رجال الأعمال السويسريين وشخصا كنديا اسمه ميشيل هارت ، ووقعوا وثائق تأسيس شركة انترناشيونال بتروليوم فاينانس ليمتد .

وكان هناك شخص فى هذه المجموعة عرفنا به جاك ، يدعى لبيب الجمال . كان لبيب قد حضر إلى بيتنا ذات يوم فى فرانكفورت ، وأثار هذا اضطراب جاك على نحو لم أره من قبل . وفى ذلك اليوم جن جنونه من دانييل لأن دانييل أصر على أن أباه ولبيب يشبهان بعضهما تمام الشبه حتى ليبدوا وكأنهما أخوان . وطلب منه جاك ألا يقول هذا الكلام . غير أن دانييل كان

صغيرا وعنيدا وظل يكرر ما قال . ولم يكف جاك عن الصراخ فى وجهه طالبا منه ألا يقول ذلك . وعندما تبين له أن الصراخ لا يحل مشكلة التشابه هذه ، فقد شرح لدانييل أنهما من أبناء الشرق الأوسط ، وحيث أنهما كذلك فإنهما يبدوان متشابهين لأن الأوروبيين غير معتادين على رؤية الكثيرين منهم . كانت تصرفات دانييل غير عادية ، غير أن غضب جاك إزاء طفل يلهو لم يكن له مبرر .

ولإدارة أعمال الشركة من سويسرا ، حزمنا أمتعتنا فى السيارة وتحركت بنا إلى جنيف ، كان دانييل وأندريا فى أجازة الصيف الدراسية لعام ١٩٧٦ . وجلس الطفلان على المقعد الخلفى للسيارة وانطلقنا لنرى كيف يكون الحال فى سويسرا . كان الطقس لطيفا ، والمدينة صغيرة وجميلة ، فيها الجبال الرائعة والبحيرة الساحرة . ووجدنا شقة جاهزة مؤثثة عند ناصية فندق « انتركونتيننتال » . وذهب جاك لمعرفة الموقف فيما يتعلق بإلحاق الأولاد بالمدارس ، إذ كان الأمر الأكثر أهمية عنده هو أن يحصل الطفلان على أحسن تعليم ، وسوّى هذه المسألة على خير وجه . وأجريت اختبارات لغة إنجليزية لكل من أندريا ودانييل ثم التحقا بمدرسة جنيف الدولية . وكانت شقتنا ممتازة ، غير أننا كنا قادمين من بيت أبى الواسع فى ألمانيا ، وكنا نتطلع إلى مكان يجد فيه الطفلان مكانا أرحب . وشعرت أنا وجاك أنهما بحاجة إلى فناء يلعبان فيه ومساحة من أجل الكلب الذى يقتنيانه .

وبعد شهر انتقلنا إلى مدينة صغيرة فى فرنسا اسمها اشنفكس تبعد ٣٠ دقيقة عن جنيف . استأجرنا فيها بيتا فوق أحد التلال . تحيط به أرض ومساحة فضاء واسعة تمتد إلى أقصى حدود البصر . ومرة أخرى بدا المستقبل مشرقا وواعدا بالنسبة لنا .

وبعد أن استقر بنا المقام فى البيت بدأت الحياة تأخذ مجراها العادى الرتيب . كان جاك يغادر البيت فى الصباح إلى مكتبه فى جنيف ولا يعود إلا فى ساعة متأخرة من الليل . وكنت أقود سيارتى كل صباح لأصطحب الطفلين إلى المدرسة ، ثم أعود إلى البيت لأنجز أعمالاً فيه ، وبعد الظهر أقود سيارتى لأعود بالطفلين . بدا كل شىء على ما يرام ، غير أن جاك كان يقضى

وقتا طويلا فى مكتبه ، وحين يعود فى المساء كنت أشعر من حالته المزاجية أنه لا يريد من أحد أن يتحدث معه عن العمل .

وذات يوم طلبت المدرسة من أندريا أن تحضر وثيقة زواج والديها لاستكمال ملفها . وفى طريقها للمدرسة ، سنحت لها الفرصة لقراءة الوثيقة . وكانت هذه بداية أزمة عائلية كبيرة ، فقد أدركت على الفور أنها تبلغ السابعة عشرة من العمر ، وأنها من مواليد عام ١٩٥٩ بينما توضح الوثيقة أن زواجى بجاك تم فى عام ١٩٦٤ . فى حين أننا كنا قد أخبرناها أن جاك هو أبوها وأنه اعتاد السفر كثيرا ، فلم أر سببا يبرر لى أن أضع أباها بالميلاد فى الصورة مثلما لم أأسف أبدا على أنه خرج من حياتنا .

عالجت أندريا المسألة بحكمة ، ولم تفصح عن أنها عرفت الحقيقة . وحين اصطحبتها ظهر ذلك اليوم من المدرسة كانت هادئة ، ولكنها أخذت تسرح بفكرها أحيانا ، بدت عادية تماما مع حلول المساء ، ولكن عندما عاد أبوها للبيت واجهتنا بالمفاجأة . ووسط بكاء وعويل وصراخ من جانبها أصرت على أن تعرف ماذا أصاب الأسرة التى عاشت معها بأحلامها . خفف جاك من ثائرتها ، ثم شرح لها بهدوء أمر زواجى السابق وظروف لقائنا الأول ، واختياره لأن يتبناها . وقال لها :

- لقد تزوجت أمك من أجلك أنت فقط .

وأكد لها أيضا أنها مثل ابنه تماما ، وأنه يحبها بنفس القدر الذى يحب به ابنه من لحمه ودمه ، ولكن اتفق أن لها أبا آخر . وأوضح لها دانييل من جديد أن الأوراق وما تقوله لا يعنى شيئا ، وأنه سيظل أبدا أخاها .

لم يكد ينزاح عنا ضغط هذا الموقف حتى واجهت أول حادث وقع لى . ففى أحد الأيام ، وبينما كان دانييل وأندريا فى المدرسة وكنت أباشر عملى حول البيت ، زلت قدمى أثناء نزولى للبدروم وسقطت فوق الدرج . وأظن أن الأكثر دقة هو أن أقول إننى ارتطمت مع سقوطى بكل درجات سلم البيت . وأذكر أنه خيل إلىّ أن سقوطى سيستمر فى حركة أبدية إذ كنت بلا حول ولا قوة

طوال السقوط ، وعجزت تماما عن أن أمسك نفسى . وأخيرا توقفت عند نهاية الدرج وأنا أشعر بألم مبرح فى جانبى . وكانت النتيجة هى حدوث رضوض فى منطقة الكليتين مكان السقوط وعجز عن الحركة . وبقيت فى مكانى . لست أدرى إلى متى ظل انتظارى ، ولكن خيل إلـىّ أن عمرا طويلا سيمضى قبل أن يحضر شخص ما ليساعدنى . وبعد أن انقضت فترة تعادل دهرا ولم يحضر أحد ، حاولت جاهدة أن أنهض . كنت راقدة تماما على أرضية البدروم بلا حراك . أحسست بألم شديد القسوة يلهب جانبى ، ولم أعرف كيف التمس المساعدة . وقررت أن الخيار الوحيد أمامى هو أن استجمع قوتى وأتحامل على نفسى وأصعد الدرج . ولما كان فى مقدورى أن أحرك إحدى ذراعى حركة شبه طبيعية ، وكانت إحدى ساقى لا تزال سليمة ، فقد بدأت أزحف عائدة لأعلى فوق الدرج . كانت حركة بطيئة أبطأ كثيرا من سقوطى . واستطعت أن أصعد درجة واحدة مع كل محاولة ، وبعد حوالى الساعة والنصف الساعة بلغت أعلى الدرج وزحفت إلى غرفة المعيشة . قررت أن أظل راقدة على أرضية الغرفة وعيناى ترقبان السجادة التى بدت لى وكأن ألوانها أخذت تتغير . فكرت فى أندريا ودانييل كيف سيعودان إلى البيت ، وجرجرت نفسى حتى وصلت إلى التليفون . طلبت جاك فى مكتبه ، وأخبرته بما حدث ، وطلبت إليه إحضار الطفلين من المدرسة . وعادوا جميعا إلى البيت .

ومنذئذ فصاعدا كان جاك هو الذى يصطحب دانييل وأندريا معه إلى المدرسة ، وأصبحت بلا فائدة فى البيت أيضا ، وكان ألم الكليتين يدفعنى إلى عيادة الطبيب ، وأخذت أضايق أسرتى بشكواى . وراودنى ظن بأننى بت مشكلة تؤرق حياتهم ، غير أنهم جميعا تكاتفوا لأداء كل ما يلزم ، لكنى أجد لزاما علـىّ أن أقرر أن جاك كان منزعجا للغاية ، فهو لم يكن يرتاح أبدا مع المرضى ، حتى لو كان المريض زوجته .

□ □ □

لزم جاك الصمت تماما إزاء صفقاته التجارية منذ فشله مع ليبيا . ولم يتحدث معى طوال الفترة التى قضيناها فى جنيف ، عما يجرى ، كما لم أكن

طرفا فى عمل المكتب مثلما كان حالنا فى ألمانيا ، كان يعمل لساعات طوال ، ولم يكن هناك ما يدل على كيفية سير الأمور ، غير أن جاك قال ذات مساء فى يوم جمعة ونحن جلوس إلى المائدة لتناول العشاء أن لديه أخبارا لنا :

- أريد أن أقول لكم جميعا والآن ، أن هذه آخر كسرة خبز أستطيع أن أشتريها لكم . إننى آسف أن أقول هذا ، غير أننى أخطأت فى اختيارى للناس الذين عملت معهم . ان أحد شركائنا ، الشريك الكندى ، فر هاربا بعد أن استولى على كل أموالنا . أنا لا أقصد تصوير الأمور بصورة درامية ولكن هذا هو ما حدث . ولو كان هناك ما استطيع أن أفعله لكى أغيّر من الوضع لفعلته يقينا . لقد كنا أسرة فى السابق ، ولا نزال كذلك ، ولكننى منذ الآن لا أعرف ما الذى يمكن عمله .

ألجمتنى المفاجأة ، وتوقف عقلى تماما . واتجهت بحركة غريزية ودون أى تفكير إلى التليفون . دارت أصابعى فوق القرص برقم أبى وأخبرته بما حدث . ورد قائلا :

- تعالوا إلى البيت . ضعوا الأشياء التى تخصكم بالسيارة وتعالوا إلى البيت ، سأراكم غدا .

أحسست باحترام جديد تجاه الرجل وهو يجلس قبالة أسرته ، وهو رأس البيت ، ويعترف بخطئه الجسيم فى أحكامه ، وتأكدت من جديد ثقتى الدائمة فيه .

وقد شعرت ببعض الرضا فيما بعد عندما علمت أن ذلك الشريك المنحرف قد وجد له إقامة طيبة فى ضيافة الحكومة الكندية ، فى غرفة ضيقة جدا فى أحد سجونها مع وجبات ثلاث يوميا وقضبانا حديدية يطل من ورائها .

كانت رحلة العودة إلى ألمانيا هادئة ، ووصلنا إلى فرانكفورت قبيل عيد الميلاد . لم يعانى الطفلان سوءًا بسبب النكسة المالية إذ لم تؤثر على احتفالهما بالعيد حيث أن هاينريتش كان كريما للغاية وساعدنا ماليا . كان الجو فى واقع الحال عبقا بمشاعر الاحتفال . فقد التأم مرة أخرى شمل الأسرة وأصبحنا



● احتفال للأسرة فى البيت فى ألمانيا فى مايو ١٩٧٧ .

قريبين جدا من بعضنا البعض . والتحق الطفلان بمدرسة فرانكفورت الدولية ، وانهمك جاك فى محاولاته لبدء عمل آخر ، واعتاد قضاء وقت طويل فى مكتبه ، وانشغلت أنا بجمع شملى مع أمى ، وكان أبى يعمل فى مكتبه لفترات ممتدة ، وتلتقى الأسرة جميعها مع العشاء كل مساء .

وفى عام ١٩٧٧ عاود جاك التردد على مصر . لم نكن نعرف بالدقة ما الذى كان بصدده ، وكنا إذا سألناه طلب منا أن ننتظر ونرى . وقال ، إنه عندما يمسك بيده شيئا ملموسا ، فسيخبرنا بكل القصة . وأسس شركة

« آجيبيتكو » Agypetco, GmbH وقال إن الاسم آجيبيتكو ، أو آجى بيتيكو « (بالعامية) مأخوذ من كلمة عربية تعنى « أعود للوطن والبيت » . وكان هدف هذه الشركة هو القيام بأنشطة داخل مصر ، ولكن الأمور لم تسر بالسرعة المرجوة . ووجد جاك فرصة لتحقيق بعض المكاسب المالية السريعة عن طريق عقد صفقة نفط مع الفرنسيين وعاد إلى ألمانيا ومعه ٥٠٠٠٠٠ دولار ، ولكنه وضع كل هذه الأموال فى شركة آجيبيتكو .

وفى عام ١٩٧٨ أمسك بيده شيئا ملموسا ليخبرنا به كما وعد . وقال إن الشركة منحت حق التنقيب فى حقلين للبترول فى مصر مقابل دفع مبلغ مليون دولار عن كل منهما ، علاوة على جميع التكاليف الإضافية .

اتضح أن إنتاج أى مقدار من النفط يستغرق سنوات ، ولم تكن لدىّ فكرة واضحة عن كمية العمل اللازمة لذلك . افتتح جاك مكتبا لشركة آجيبيتكو فى مصر الجديدة بالقاهرة ، واستأجر عاملين بها . وافتتحنا مكتبا فى ألمانيا . وبدأنا فى توظيف متخصصين لتشغيل المعدات ولإجراء عمليات المسح . واستخدمنا اخصائيين فى كل المجالات المطلوبة . وتحولت البداية الصغيرة المتمثلة فى شركة آجيبيتكو إلى شركة دولية ، تحاول تجميع كل الموارد اللازمة لاستخراج النفط من باطن الأرض ، وأمضى جاك وقتا طويلا فى ألمانيا من أجل حشد المستثمرين لتمويل شركته الوليدة العملاقة .

وفى يوليو ١٩٧٨ سافرت أنا ودانييل إلى مصر لأول مرة . ركبنا الطائرة من فرانكفورت إلى كورفو حيث أقمنا فى فندق كورفو هيلتون . وقابلنا هناك بعض أصدقائنا القدامى من إسرائيل . لم يكن لقاء مقصودا ، إذ لم نخطط له ، ولكننى سررت به . قضينا اليوم بطوله نطوف الجزيرة معا قبل أن نرحل لاستكمال الشطر الثانى من رحلتنا إلى القاهرة .

وصلنا إلى القاهرة . وعلى الرغم من أن جاك كان زائرا منتظما لهذا البلد إلا أن إدارة الجوازات احتجزتنى لساعة ونصف الساعة حيث كانوا يواجهون آنذاك مشكلات مع الإرهابيين . وما أن خرجنا من المطار وانطلقنا فى طرقات



● جاك بيتون عند الهرم وأبو الهول ، صيف ١٩٧٨ .

المدينة حتى غمرتنا جميعا نشوة طاغية . إننى فى الطريق لأن أشهد مركز انطلاق مشروعنا المالى الجديد ، ودانييل سوف يشاهد جميع المواقع التاريخية التى قرأ عنها فى المدرسة . ولم يكن جاك يشير إلى أنه ولد فى مصر وأنه يعرف العربية ، إلا إذا اضطره الموقف لهذا .

وقد واجهنا هذا الموقف حال وصولنا إلى الفندق . إذ كنا قد حجزنا فى فندق النيل هيلتون ، ولكن بعد أن وصلنا إلى هناك أبلغنا المدير أنه ليست هناك غرف محجوزة باسمنا ، ولا توجد غرف خالية . وشرع جاك يوضح للرجل شيئا ما باللغة العربية ، وهنا تغير جو الغرفة ، أصبح المدير فى غاية التهذيب والود ، وهيأ لنا على الفور حجرتين .

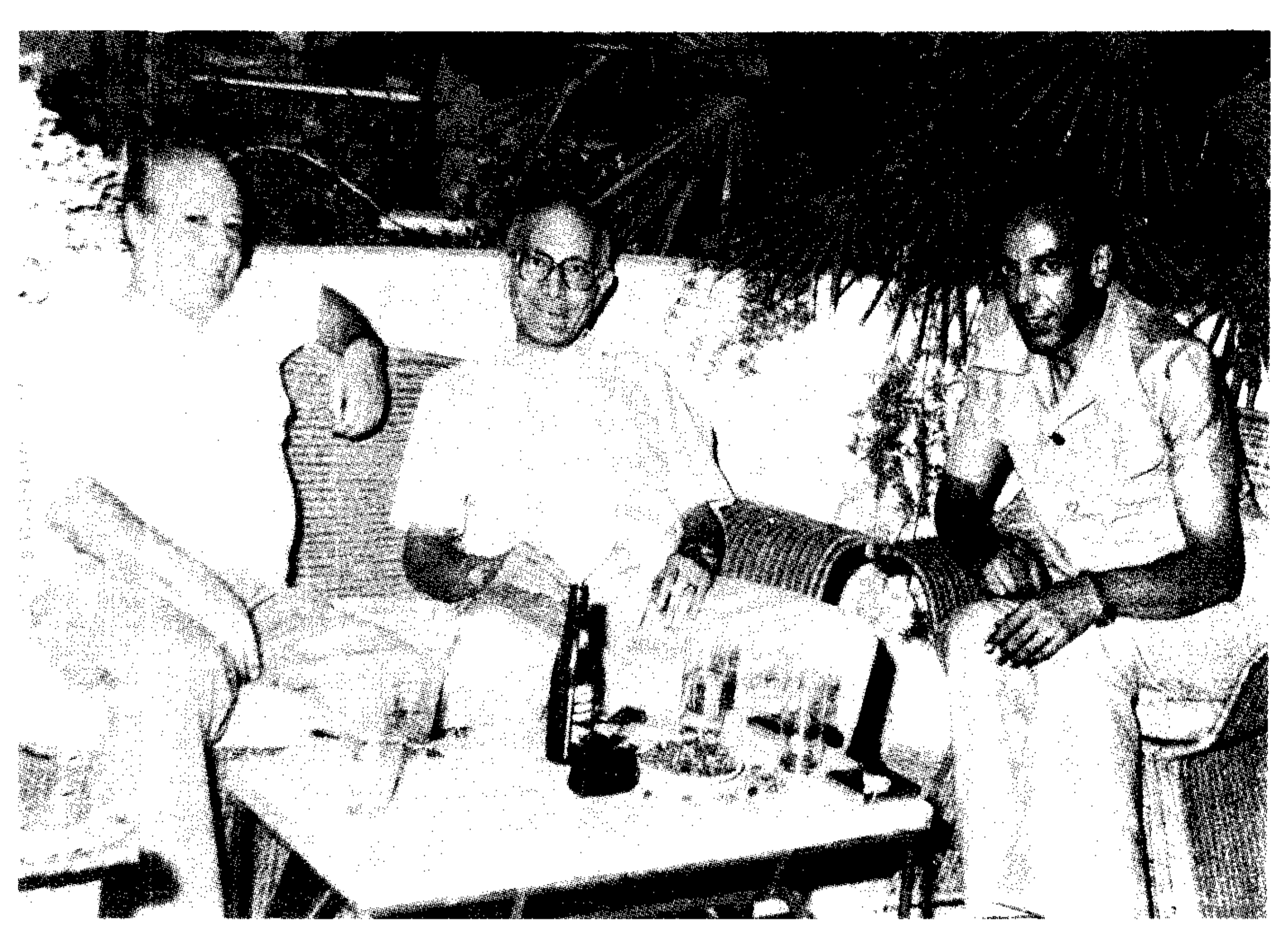
كان جاك يخرج كل يوم لأداء عمله بينما يرسلنا نحن فى رحلة بالسيارة لمشاهدة معالم القاهرة . حاولنا أن نرى كل شىء ، غير أن رحلة واحدة لم تكن لتكفى . واعتاد جاك عند عودته كل مساء إلى الفندق أن يسألنا عما رأيناه فى



● فى خان الخليلى فى ١٩٧٨ وكانت هذه الزيارة الأولى لفالتراود ودانييل للقاهرة .

ذلك اليوم . كان الطعام والطقس والعمارة ، كلها أشياء جديدة علينا ساحرة لنا . وكان الطقس جميلا على نحو لم نألفه . وذات يوم قائظ بصورة غير عادية كنا فى السوق ، واختفت ساعة دانييل من حول معصمه ، ولكن الناس كانوا ظرفاء طيبين وساعدونا فى البحث عنها . ورأيت قلادة ذهبية جميلة فى محل لبيع المجوهرات فى فندق النيل هيلتون ، وقلت لجاك إنها تعجبنى جدا . وأريتها له ، فأخبرنى بأنه سوف يشتريها لى فور العثور على النفط . كانت زيارة مصر تجربة رائعة لى ، وكم كان صعبا على النفس مغادرة هذا البلد بعد إقامة ثلاثة أسابيع فيه .

عدنا إلى ألمانيا بعد انتهاء عطلة ذلك الصيف . كان على دانييل أن يستعد للعودة إلى المدرسة . وصاحبت جاك فى رحلات أخرى كثيرة إلى القاهرة . وقد أذهلتنى دائما مقدرته على تجاوز العقبات التى حاول أشخاص معينون فى مواقع السلطة أن يضعوها فى طريقه . بيد أننى كنت أدرك جيدا أنه يعرف جيدا ماذا يريد أن يفعل .



● جاك بيتون فى فندق هيلتون النيل بالقاهرة مع بعض الأصدقاء فى ١٩٧٩

قضينا عطلة صيف ١٩٧٩ فى أمريكا . إذ كان جاك قد وعدنا بذلك من قبل وأنجز وعده . أمضينا أسبوعين فى فلوريدا ، وأسبوعين آخرين فى نيويورك . وعلى الرغم من أن هذه العطلة كان مفروضا أن تصبح فترة استرخاء . إلا أن جاك لم يستطع أن يقاوم اللقاء مع أصدقائه القدامى ، والبحث عن فرص جديدة للعمل . لم يهدأ الرجل أبدا .

وفى ١٩٨٠ تكررت رحلاتنا كثيرا من وإلى مصر حتى أصبحت على يقين من أن بإمكاننا البدء فى تسيير خط طيران مكوكى خاص بنا . كانت حياته عبر قارتين مرهقة ومتعبة ، واستمر الأمر كذلك ، إلى أن عاد يوما إلى البيت حاملا القلادة الذهبية . لقد عثر على النفط .

لم أعرف أن القلادة ستكون هى الفائدة الوحيدة التى نجنيها . فكل قرش امتلكناه ذهب فى الأرض . وعند هذه المرحلة لم يعد دخلنا يكفى للوفاء بنفقاتنا اللازمة للتشغيل ، غير أننا كنا نتطلع إلى وقت آخر تتبدل فيه الحال ، ويصبح الزمن أفضل .



● جاك بيتون فى نيويورك فى أغسطس ١٩٧٩ مع دانييل .

وفى إحدى الرحلات إلى القاهرة من ألمانيا سرقت حقيبة يد جاك الصغيرة وبها كل أوراقه ومستنداته فى مطار فرانكفورت . إذ كان يرتدى بدلة سفارى ليس لها جيوب ، ويضع كل شىء فى هذه الحقيبة . كنا قد عدت أنا وجاك من كورفو حيث كنا نقضى الأجازة ومعنا دانييل وأصدقاؤه وشريكنا وأسرته ، لإنجاز بعض الأعمال ، على أن يسافر جاك للقاهرة وأعود أنا لكورفو . وبعد أن فرغنا من تسليم الحقائب لمكتب شركة الطيران ، قال إنه سيذهب لمكتب البريد لإرسال بعض الرسائل . وعاد ليقول إن حقيبته ضاعت عندما وقف أمام طاولة مكتب البريد ووضعها بين ساقيه . كان بها جواز السفر ومفاتيح البيت ، ودفاتر الشيكات وبطاقات الائتمان الألمانية والمصرية وشيكات سياحية ونقود ، ووثائق كثيرة . وكان لا بد من العودة للمنزل . فلم يعد لدينا جواز سفر أو نقود ، وقمنا بإرسال تلكسات لإلغاء الشيكات وبطاقات الائتمان ، وغير أبى أقفال البيت .

وفى يوم الاثنين التالى بعد انتهاء العطلة ذهبنا إلى السلطات المسؤولة وحررنا محضرا بالسرقة ، وحصل جاك على وثائق سفر جديدة . ثم بدأ رحلته

إلى مصر ومعه ابنه ليطلعه على أعمال الأسرة . وقد تم العثور على الحقيبة بعد ذلك بشهر فى مكان خارج فرانكفورت ، وضاع منها كل شىء فيما عدا الشيكات المصرية والوثائق المصرية . وجدها رجل واتصل بنا تليفونيا لنأخذها . وقد قام من سرقوا الحقيبة بصرف الشيكات الألمانية والأوروبية لأن بطاقة الهوية الخاصة بجاك كانت فى الحقيبة .

□ □ □

فى مارس ١٩٨١ أحس هاينريتش أنه ليس على ما يرام من الناحية الصحية . لم يكن يشكو من شىء ، فضلا عن أنه كان يكره الأطباء ، غير أن جاك لاحظ أنه « ليس كالمعتاد » . وانتهى جاك إلى فكرة أن يقوم الكبار جميعا بإجراء فحوص طبية شاملة . بدت هذه خطوة أساسية جريئة بالنسبة إلى جاك الذى يكره المستشفيات ويكره البقاء وسط المرضى . ذهبنا جميعا لأداء هذه المهمة فى الموعد المحدد لها ، وثبت أن النساء حالتهن جيدة . كان هاينريتش قد بدأ يعانى من مشكلات فى القلب لها صلة بحجم الجسم . ولكن المفاجأة كانت أن الفحص أثبت أن جاك مصاب بورم . إذ تبين وجود بقعة فوق الرئة قطرها حوالى ٥ سنتيمترات . لم يكن أحد يتصور أن جاك مريض .

ذهبنا إلى عيادة فى أوفنباخ متخصصة فى علاج السرطان ، وبعد أن فحصه الأستاذ المعالج قال لى :

- يجب أن تقصدى مستشفى هايدلبرج لإجراء العملية .

وذهبنا لهذا المستشفى ، وتم قبوله . قابلنا الطبيب المسؤول حيث شرح لجاك ما سوف يحدث وكيف سيقومون به . صعدنا السلم إلى غرفته ، وبدا عليه الاكتئاب الذى زاده منظر المرضى فى المستشفى .

تركته فى اليوم الأول له فى المستشفى وعدت للبيت . وعندما جئت إليه فى اليوم التالى ، رأيته جالسا فى غرفته وقد حزم حاجاته ، فسألته :

- ماذا جرى ؟

- سأعود معك إلى البيت ، لن أبقى هنا .



● جاك بيتون فى الأقصر فى فبراير ١٩٨١ .

- لمـاذا ؟

- تحدثت مع بعض المرضى الذين أجروا عملية مماثلة لعمليتى . وبعد أن رأيت الحالة التى هم عليها وما الذى ينتظرهم ، ونوع العملية نفسها ، قررت ألا اجريها ، لا أستطيع تحمل ذلك .

- أرجوك ، لا تفعل ذلك . هذه فرصتك . ربما تنفع معك وتشفى . إن المسألة تقتضى وقتا ، والمرء لا يعود لحالته الطبيعية عقب العملية مباشرة .

- لا ، لا لن أجريها ، ولن تستطيعى تغيير موقفى .

- وهو كذلك ، هيا بنا نعود للبيت .

وعندما عدنا للبيت وجدنا أبى وأمى قد قطعا اجازتهما فى إيطاليا عندما عرفا بمسألة العملية . وعندما رآنا والدى سأل جاك :

- ما هذا ؟ كيف عدت للبيت ؟

ورد جاك على أبى قائلا :

- هاناش ، أريد أن أتحدث معك على انفراد فى غرفتك . لا أريد أحدا من النساء معنا .

وكان لا بد لى من الإذعان اعتمادا على قدرة أبى على الإقناع وحبه لجاك . وهكذا دخلا غرفة أبى . لم أعرف ماذا دار بينهما . لم يحدثنى أبى عن ذلك أبدا . وعندما خرجا التفت إلـىّ أبى قائلا :

- احترمى كلام زوجك ورغبته .

ومع ذلك فقد عاودت الحديث فى الموضوع مع جاك لكنه قال :

- لا لن أجرى العملية . إذا كان الله يريدنى أن أموت فسوف أموت ، وإذا كان يريدنى حيا فسوف أحيا .

ولم يتحدث أبى فى الموضوع أبدا ، ولا عن موت جاك ، الشىء الوحيد الذى قاله بعد وفاته :

- لماذا هو ولست أنا . اننى أكبر منه كثيرا .

وعقب وفاة زوجى مرض أبى مرضا لم يشف منه أبدا . كان موت جاك خسارة حقيقية له .

كانت هذه سحابة سوداء شديدة حالكة الظلمة . وبدا جاك غاضبا ناقما . وعلى الرغم من أننى كنت عاجزة عن تصور كل ما يدور بخلده ، فقد أدركت أننا نواجه مأزقا شديد الحرج ، وأن ما حدث يهدد مستقبل الأسرة . كم كان الأمر مدمرا وباعثا على الإحباط ، عندما دهمته أنباء كهذه فى وقت زاخر بالأمل . وبالطبع ، لم يستسلم لهذا الجحيم المروع ، غير أن الأمر اقتضى بعض الوقت قبل أن يسلم بقضاء الموت الذى بلغه نذيره .

وفى شهر يوليو قمنا بآخر رحلة للأسرة إلى القاهرة . لم نكن نعرف أنها



● جاك بيتون فى كورفو باليونان فى ١٩٧٨ .

كذلك ، ولكن كان من المقدر أن تكون رحلة جاك الأخيرة إلى مصر . لم يفصح عن مرضه لأى إنسان هناك . ولولا أنه كان يتعرض للإرهاق سريعا عن ذى قبل ، لما استطاع أحد أن يدرك الفارق .

وفى شهر أغسطس ١٩٨١ شرع جاك يعد العدة للموت الوشيك القادم لا محالة ، لعله كان يواجه الموقف على نحو أفضل من بقية الأسرة . فقد اعتاد أن يقضى كل دقيقة إلى مكتبه عاكفا على الكتابة . لم يخبرنى أبدا بشىء عما يكتبه ، ولم أتنبه إلا بعد وقت طويل .

وددت لو أموت معه . لإدراكى أن هذا هو الكابوس الذى قد يحطم الجميع ، ويدمر كل الحياة التى عشناها معا ، بحلوها ومرها . لم أكن أملك وسيلة لمواجهة كل ذلك . وأحسست بالضياع الكامل . كنت أحاول أن أرسم أهدأ تعبير على وجهى حين أكون فى حضوره ، وبعدها كنت أتمزق إلى ملايين الشظايا عندما كنت أخلو لنفسى .

لم أكن أملك على الرغم منى إلا أن أفكر فى المستقبل ، إذ كنت فى

التاسعة والثلاثين من عمرى ، وسوف أغدو سريعا أرملة . ولم يدر بخلدى أبدا احتمال أن يتركنى جاك . ولكن إرادة الرب شاءت أن تحرمنى منه ، ولم أكن مهيأة لهذا أو مستعدة له .

اعتصم الطفلان بإنكار ما يجرى أمامهما . لم يستطيعا تصديق احتمال موت أبيهما أمام أعينهما ، وظلا ينتظران على أمل عودته من رحلته التالية إلى الطبيب ليقول لهما ان الله منّ عليه « بمعجزة الشفاء » .

وأفضت مشكلات هاينريتش فى القلب والوزن إلى إصابته بكسر . ولعل أفضل وصف لهذا أنه كان نتيجة لحسرته على جاك . انه لم يتحدث عن هذا أبدا . لم يشأ أبى ، سواء فى هذه الأثناء أم بعد ذلكِ ، أن يسلم بأن صديقه وصهره سيموت . كان أمرا صعبا للغاية علينا جميعا .

لكن أمى تجاوزت هذه المحنة . ان السيدة التى بدت أقلنا قدرة بدت هى الأقوى والأكبر منا جميعا . وأعتقد أن خبرتها السابقة مع الحرب جعلتها قوية متماسكة أكثر مما ندرك . كانت تشدنى وتخرجنى مما أنا فيه كلما غلبنى الاكتئاب . وأوضحت لى أن لى طفلين يتعين علىّ أن أحيا من أجلهما ، وأن واجبنا وقدرنا أن نمضى فى الحياة لتوفير الحياة للجيل التالى . لقد منحتنى القوة والقدرة على أن أمضى فى طريقى .

قمنا برحلات إلى جميع أنحاء العالم لزيارة الأطباء والمستشفيات ، ومنها مركز السرطان فى هيوستون ونيويورك ، دون فائدة ، ثم نصحو بالعلاج الكيميائى فى لندن . وبدأ العلاج الكيميائى فى لندن ، فى مستشفى الأميرة جريس ، حيث عالجه الدكتور برايس الذى صارحنى بأنه لا فائدة لأن حالته كانت فى الحضيض . وفى الثلاثين من يناير ١٩٨٢ مات جاك بيتون فى « دارمشتاد » فى ألمانيا .

□ □ □

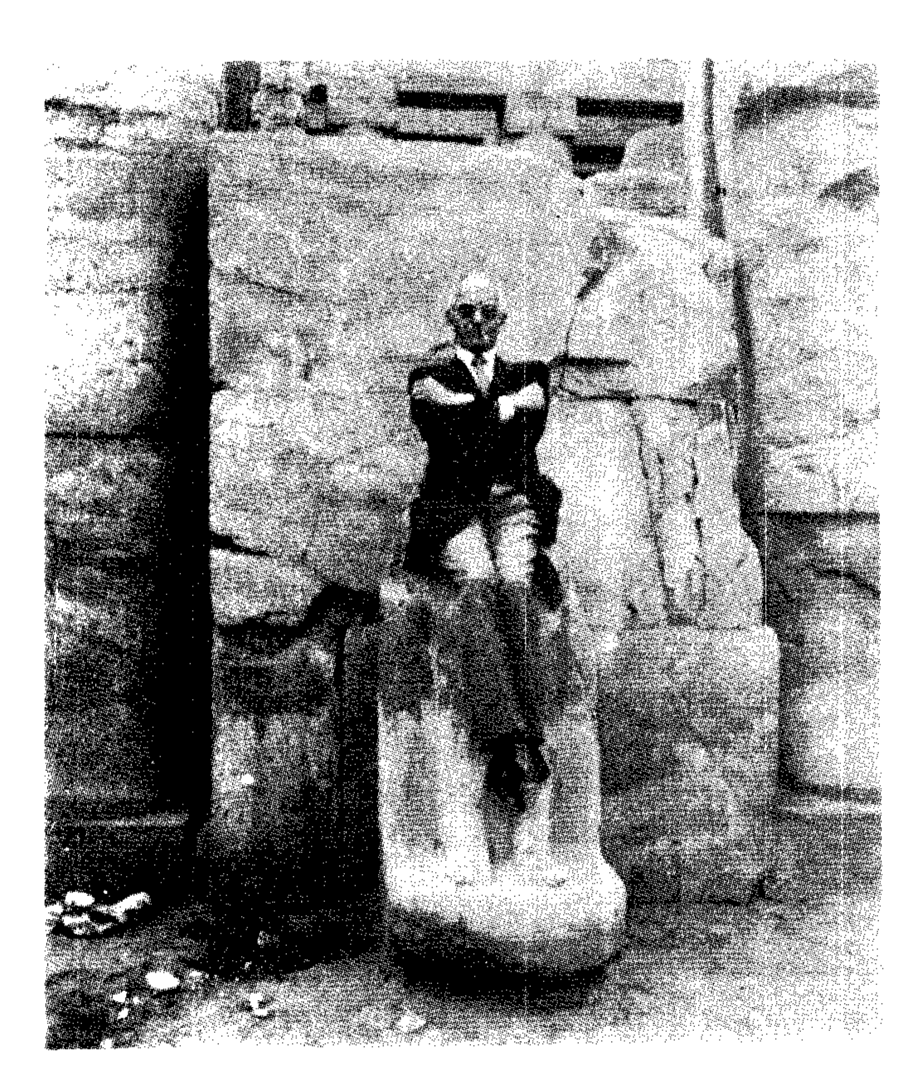
أدركت وأنا جالسة فى هذه الحجرة فى هذا المستشفى ، أننى لن أفهم أبدا لماذا اختطف الموت جاك منى ، لكننى بدأت فى الوقت نفسه أفهم من كان جاك على حقيقته .



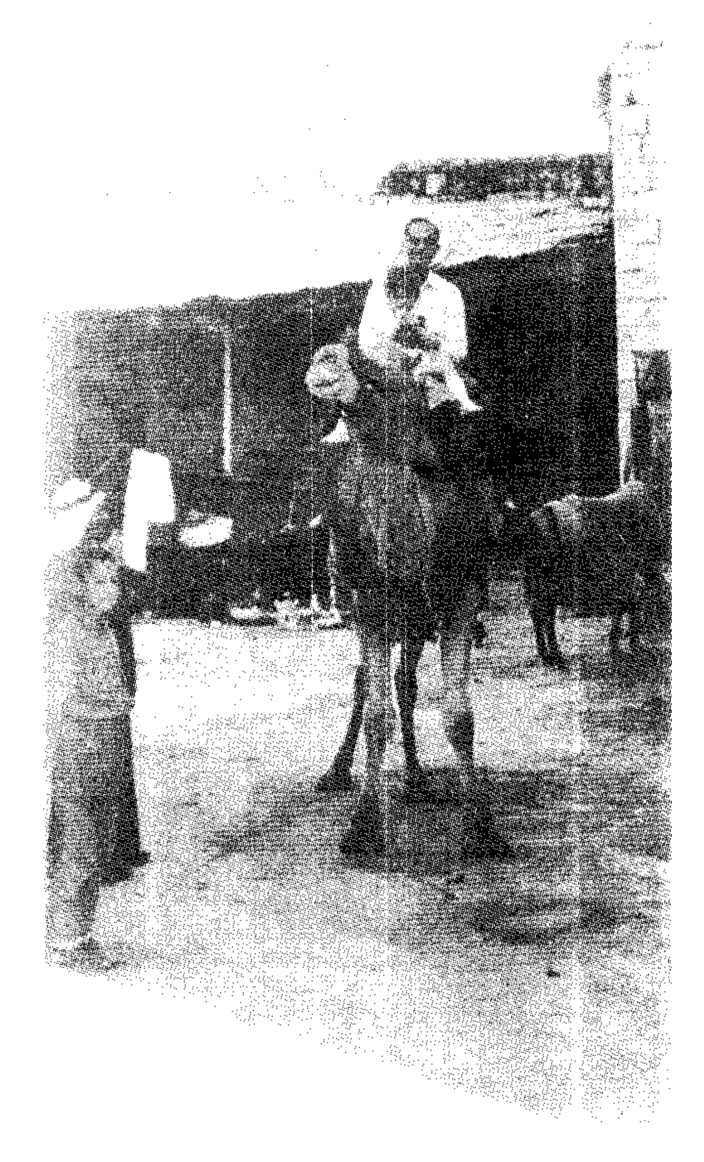
● جاك بيتون مع أصدقاء من رجال الأعمال فى أسبانيا فى ١٩٦٤ .



● أثناء توقيع اتفاقية الامتياز فى ١٩٧٨ ، جاك بيتون ، السيد رضوان ، ماكلين ، يوست .



● جاك بيتون فى الأقصر ، فبراير ١٩٨١ .



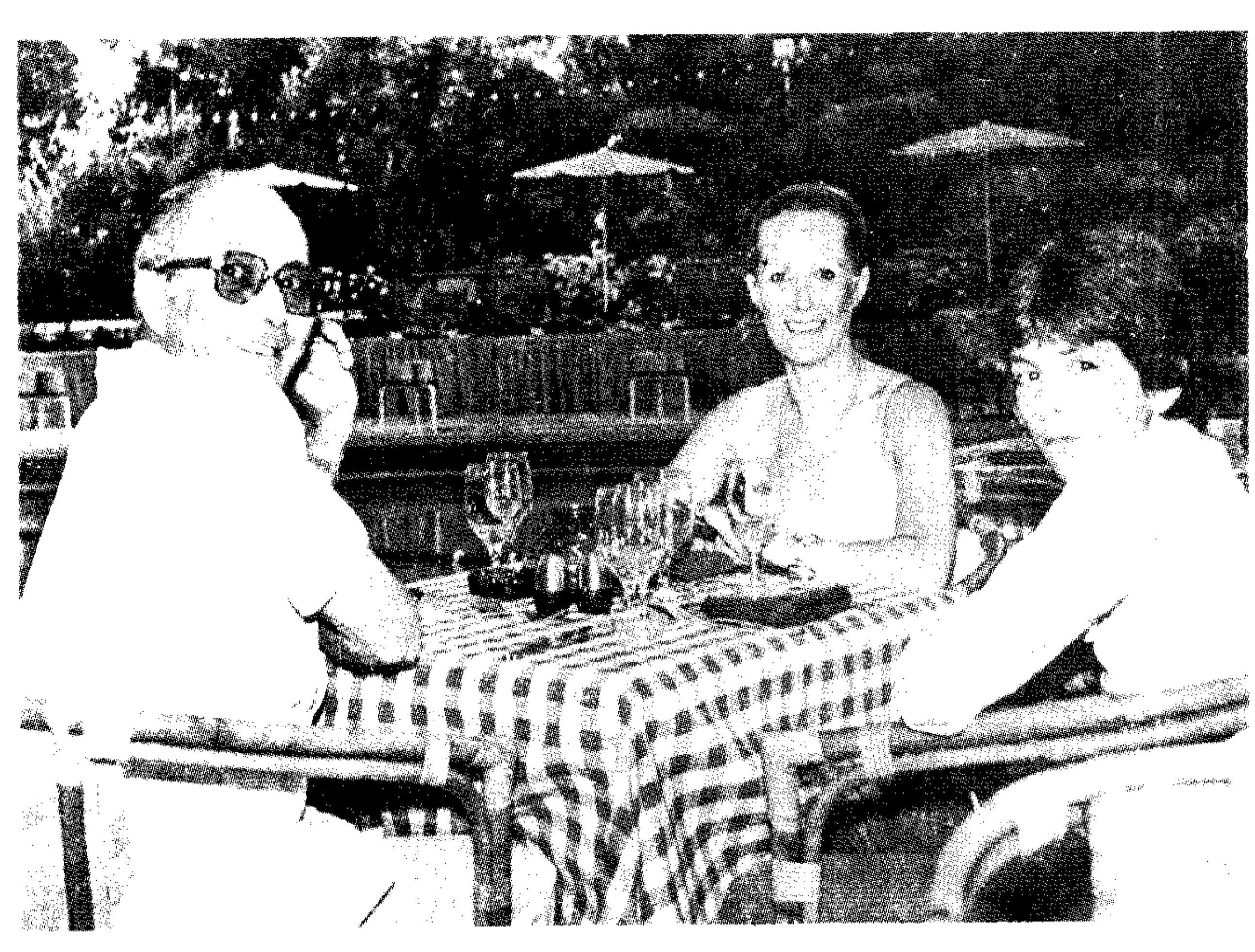
● جاك بيتون فى الناصرة فى إسرائيل مع أندريا فى ١٩٦٤ .



● جاك بيتّون ودانييل فى ١٩٦٥ .



● دانييل فى ألمانيا فى ١٩٨٦ .



● جاك بيتون وزوجته وابنه دانييل .



الجزء الثانى

قصة حياة
رفعت الجمال
كما رواها هو

٤ لماذا بعد ثلاث سنوات ؟

لا أعتقد أنه من الانصاف أبدا أن يشتد بى المرض على هذا النحو ، ولكن هذا أوصلنى على الأقل إلى الاقتناع بأن أشرع فورا فى تدوين الحقيقة المتعلقة بى وبحياتى . قد يقول قائل إننى عشت أكذوبة ، لكن لم يكن أمامى خيار آخر . سأحاول أن أكتب كل شىء بلغة إنجليزية صحيحة قدر استطاعتى . وأنت يا فالتراود تعرفين أننى لم أكن أبدا أجيد الكتابة بالإنجليزية . فقد اعتدت أنت دائما أن تصححى لى رسائلى . ومع ذلك فهذا بعض من حقيقتى ، وأنا على ثقة من أنك ستفهمين كل شىء . وفور أن أفرغ من كتابة هذه المذكرات ، سأعطيها إلى محامينا ليسلمها لك بعد ثلاث سنوات من وفاتى . ولكن لماذا ثلاث سنوات ؟ حسن ، أحسب أنه عندئذ سيكون قد مضى بعد الوفاة وقت كاف لتتماسكى وتصبحى فيه من القوة بحيث يمكنك تحمل الصدمة التى ستشعرين بها عند قراءتك لهذا الكلام . إننى بصدد كتابة قصة حياتى الحقيقية . فثمة أشياء كثيرة لم تعرفيها عنى ، وكم أنا سعيد إذ أفرغ لك أخيرا ، كل مكنون صدرى . فعلى الرغم من أنك كنت رفيقة حياتى زمنا طويلا ، فقد اضطررت أن أعيش حياة المتوحد بلا رفيق أو صديق . لم يكن أمامى من سبيل آخر . احتفظت بكل شىء لنفسى على الرغم منى ، حتى لا أعرضك أنت والطفلين للخطر . والآن حانت اللحظة التى استدعانى فيها الله ، أشعر أنه يريدنى إلى جواره . ها هو مرضى ينهش جسمى من داخله . أحس بعض الألم وأخشى أن يزداد الأمر سوءا . ليس الموت هو ما أخشاه بل الألم . فأنت تعرفين أنى كنت دائما أخاف الألم مهما كان ضعيفا . وأنا الآن على يقين من أننى مضطر إلى أن أصمد فى مواجهة ما هو أسوأ .

كم هو مؤلم أشد الألم على نفسى أيضا أن أراك تعانين . وعلى الرغم من أنك تجاهدين بقوة لإخفاء المعاناة ، إلا أننى أستطيع أن أرى أنك تتعذبين . فأنا أعرفك جيدا . وكم هو مرير على نفسى أيضا أننى لن أستطيع أن أرى ابننا يكبر ويشب عن الطوق . إنه الآن فى السابعة عشرة من عمره ، فى مرحلة يصبح بعدها رجلا يافعا . كم كنت أحب أن أكون له الهادى المرشد عبر سنوات نضجه وتطوره . فقد راودنى الأمل دائما فى أن أراه فى الجامعة . لكننى الآن لن أراه حتى حين يتخرج من المدرسة الثانوية . إن هذا ليؤلمنى حقا . هل تعديننى بأنك سوف تحرصين على أن يحصل على أفضل تعليم وأن تساعديه بكل قدرتك على المساعدة . إنه لا يزال غرا غير محنك تماما ، بيد أن ثقتى فيه كبيرة . إننى على يقين من أنه سوف ينجح فى كل ما يتصدى لعمله . لا يقلقك كسله . فقد اعتدت أن أكون كذلك . أعرف أنه يثق فى ذكائه ، ولكننى آمل فى أن يكون مثابرا دءوبا حتى يمكنك الاعتماد عليه .

قولى لابنتنا ان بوسعها أن تثق تماما فى أننى كنت أحبها دائما مثل حبى لابنى . إنى فخور بها . وأعرف أنها لن تخذلك . لا تكونى قاسية عليها ، إنها شديدة الحساسية . وعلى الرغم من أنها عنيدة شيئا ما إلا أنها تحبك وتحبنى حبا غامرا ، ولن تفعل أبدا شيئا يغضب أبويها .

أجد لزاما علـىّ أن أبدأ فيما أريد أن أبوح به إليك قبل أن يضيق الوقت ويحين الأجل ، وقد بات حتما مقضيا . إنها قصة طويلة ، وبينما تمضين فى قراءتها سينمو السخط فى نفسك علـىّ ، وتغضبين منّى ، وتودين لو أنك لم تلتق بى يوما . غير أننى أعرف ، ما عرفته دائما ، وهو أنك تحبيننى حبا عميقا جدا ، ولك أن تثقى فى أننى أبادلك هذا الحب بنفس القدر . إن ما سوف تقرئينه هو الحقيقة كلها عن حياتى وعملى وشخصيتى . لا تصدرى حكما قبل أن تفرغى من القراءة . وأرجو أن تصدقى أننى لم أكن أستطيع أن أفضى إليك بشىء ، وإننى التزمت هذا النهج مرغما حماية لك وللطفلين . أنتم جميعا حبى الأكبر ، وأغلى شىء فى حياتى .

نحن الآن فى شهر أغسطس(*) ، ولست أدرى كم بقى لى من الزمن قبل

(*) ١٩٨١ - الناشر .

أن أقضى نحبى . أحس ببرودة فى جسدى ، وبأننى لست على ما يرام أبدا ، غير أننى سعيد إذ أستطيع أخيرا أن أقص عليكم الحقيقة عن شخصى وحياتى . لذلك أقرئى هذه الصفحات ، لنلتقى من خلالها مرة ثانية . وكونى على يقين من أنك حبى الدائم . إن حبى لك وللطفلين لم يكن أبدا أكذوبة .

□ □ □

لقد ولدت فى اليوم الأول من شهر يوليو من عام ١٩٢٧(*) فى مدينة دمياط فى مصر ، وهى مدينة تطل على الضفة الشرقية من الفرع الأيمن لنهر النيل ، تقع على بعد أحد عشر ميلا من المكان الذى يصب النيل فيه ماءه فى البحر المتوسط . ولعلك الآن تدركين لماذا كنت دائما أقرأ ما يرد تحت برج « السرطان » فى أبواب الحظ فى الصحف على الرغم من أن جواز سفرى يوضح أننى من برج الأسد . إن اسمى الحقيقى هو رفعت على سليمان الجمال . كنت الشقيق الأصغر لثلاثة أخوة ، أخى غير الشقيق سامى من الزواج الأول لأبى ، وأخى الشقيق لبيب ، وأختى نزيهة . كان أبى ، على سليمان الجمال ، تاجر فحم بالجملة ، وشخصية محترمة لها مكانتها ، ويحمل لقب « أفندى » الذى يعادل لقب « فون » فى ألمانيا أو « سير » فى بريطانيا العظمى . واسم العائلة الجمّال ، هو اسم الأب المؤسس لها ، والذى استقر فى دمياط منذ أجيال مضت ، وتهيأت له فيها حياة ناجحة ميسورة بفضل تربية الجمال . ومن هنا جاء لقب الأسرة الجمّال ، والذى يعنى مربى الجمال . كانت أمى رتيبة تنحدر من أسرة راقية . كانت امرأة عصرية إلى حد ما ، تتحدث الإنجليزية والفرنسية اللتين تعلمتهما فى إحدى المدارس الخاصة . ولد أخى لبيب فى العشرين من يناير ١٩٢٣ ، أما أخى غير الشقيق سامى الذى كان أكبر منا سنا بفارق كبير ، فقد أرسله أبى إلى القاهرة للدراسة تحت رعاية أقارب والدى ، بعد أن قرر أن يلحقه بالمدرسة المتوسطة فى القاهرة بعد أن أنهى بامتياز تعليمه فى المدرسة الابتدائية فى دمياط .

(*) صورة شهادة الميلاد فى الجزء الخاص بالوثائق فى نهاية الكتاب ص (٢٢٢) .

وعاد إلينا سامى فى صيف ١٩٣٠ وعمره سبعة عشر عاما . كان قد أتم الدراسة الثانوية بتفوق والتحق بالجامعة ليصبح فيما بعد معلما للغة الإنجليزية . كان سامى يتحلى بمواهب عالية وكنت دائما شديد الإعجاب به . أذكر أننا التقطنا صورة تضم جميع أبناء الأسرة ، فكان سامى هو الوحيد الجالس على مقعد ، وكنت أنا جالسا فى حجره ، وكان هذا مدعاة لشعورى بزهو كبير . ولعلك تذكرين أننى قلت لك ان سامى كان معلمى عندما جاء ابنه محمد ليقيم عندنا فى ألمانيا وقدمته لك باعتباره ابن أستاذى . كان سامى عاقلا وحكيما ولذا كنت أكن له احتراما عظيما .

أما أخى لبيب فكان من النوع الذى يعمل فكره ، ويحظى بقدرة جيدة على الحسابات ، ومن ثم أصبح محاسبا فيما بعد . وكنت أتعارك معه كثيرا ، غير أنه كان أخى فى نهاية الأمر . هل تذكرين يوم أن حضر إلى بيتنا وقدمته إليك باعتباره رجل أعمال صديقا من مصر . لم يلحظ أى منكم شيئا فيما عدا ابننا دانييل الذى أصر على أن ثمة تشابها بينى وبين لبيب يشى بأننا أخوان . ولعلك تفهمين الآن سبب غضبى حين تشبث دانييل بملاحظته هذه .

كانت أختى نزيهة امرأة ذات قلب حنون طيب ، والتحقت بمدرسة البنات الوحيدة فى المدينة ، وهى مدرسة خاصة . إننى أحبها كثيرا جدا إذ كانت دائما طيبة جدا معى ، حتى عندما تحتدم المنازعات بينى وبين سامى ولبيب .

كنت شيطانا صغيرا . لم تواجهنى مشاكل تذكر فى المدرسة التى التحقت بها . وكانت هذه المدرسة أيضا مدرسة خاصة مجاورة لمسجد عبد الغنى المقابل لقسم أول شرطة . كنت كسولاً إلى حد ما ، ولعلك تدركين الآن من أين جاء كسل ابننا .

وتوفى أبى عام ١٩٣٦ وكنت فى التاسعة من العمر ، وكانت نزيهة فى الحادية عشرة ، وكان لبيب فى الثالثة عشرة . أما سامى ، البالغ من العمر آنذاك الثالثة والعشرين ، فكان قد تخرج من الجامعة منذ فترة ، وأصبح يعمل مدرسا للغة الإنجليزية فى المدرسة الابتدائية فى مصر الجديدة بالقاهرة . وأحسب أنك تعرفين مصر الجديدة جيدا حيث كان مكتب شركتنا آجيبيتكو .

وأصبح سامى رأس الأسرة منذ ذلك الحين ، ومن ثم أتى بنا جميعا ، ومعنا أمنا إلى مصر الجديدة ، كان يسكن فى شارع يعقوب أرتين المتفرع من ميدان الاسماعيلية . وأشرفت أمى على شؤون البيت . واستطاعت نزيهة أن تحقق حلمها ، وتلتحق بالمدرسة الثانوية للبنات فى مصر الجديدة .

التزم لبيب بمشورة سامى والتحق بمدرسة تجارية متوسطة حيث تعلم إمساك الدفاتر والإدارة . والتحقت أنا بمدرسة ابتدائية حكومية تحت رعاية سامى كولى لأمرى . وفى صيف ١٩٤٠ أكملت تعليمى بالمدرسة الابتدائية بتفوق(*) . وستجدين فى هذه الأوراق شهادتى المدرسية . كنت آنذاك فى الرابعة عشرة من العمر . وكان سامى يريد أن يتزوج ويبدأ حياته الأسرية الخاصة .

قرر سامى هو وأمى أن التحق بمدرسة تجارية للحصول على مؤهل متوسط . وإذا كنت أريد مزيدا من التعليم الأرقى ، فإن بإمكانى أن أعمل نهارا وألتحق بمدرسة مسائية . وبذا يمكننى أيضا أن التحق بالجامعة . وبدا هذا أفضل الحلول نظرا لأن لبيب لم يكن راغبا فى رعايتى وتولى مسؤوليتى لفترة أطول كثيرا . وهكذا تحدد مصيرى . لم تكن لدى أدنى فكرة عن كل هذا ، وقبلت قرار عائلتى . ونظرا لأننى كنت فى الرابعة عشرة من عمرى ، فلم يكن أمامى خيار آخر .

كنت أنتمى إلى جيل الحرب العالمية ، وتأثرت بالبريطانيين وحاولت أن أبدو بريطانيا . كنت أتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانية ، والفرنسية بلكنة فرنسية إذ كان معلمى من باريس . وتغير سلوكى بحكم الظروف المحيطة بى . وغضب لبيب وأمى لذلك واستشعر سامى حرجا من ذلك ، بعد أن أصبح المدرس الخصوصى الذى يعلم أخوى الملكة فريدة اللغة الإنجليزية .

وكان من بين زملائى فى الفصل الدراسى الذى جاهدت كثيرا لكى أتلاءم معه ، عدد كبير من هواة الذهاب إلى السينما . كنت أستمتع بالسينما كثيرا

(*) صورة الشهادة فى الجزء الخاص بالوثائق فى نهاية الكتاب ص (٢٢٣) .

وكيّفت سلوكى وفقا لما تقدمه من أفلام ، وأخذت أحاكى ما أراه فى السينما . وأصبحت مشهورا جدا بين أقرانى فى الفصل . واعتدت أن أذهب إلى السينما مرات ومرات لكى أدرس أدوارا بذاتها من حيث الحركات وطريقة الكلام لكى أحاكيها فى المدرسة .

ومن خلال السينما اتسعت مداركى ومعارفى عن التاريخ العربى مثلما عرفت منها الكثير من الأعمال الأدبية العالمية . وأضحت السينما مدرستى الثانية . وخلال نهاية عام ١٩٤٠ تهيأت لى الفرصة لزيارة استوديوهات السينما فى مناسبات مختلفة . وأثناء إحدى هذه الزيارات ، كان يجرى تصوير فيلم كوميدى بطولة بشارة واكيم . وانتظرت إلىَ أن دخل هذا النجم الكبير إلى غرفة الماكياج وغاب عن الأنظار ، وتسللت إلى غرفته التى يغير فيها ملابسه وكانت مفتوحة . وظللت فى مخبئى هذا أقلد دورا من أدوار بشارة واكيم المشهورة بصوته وبأسلوبه المتميزين . وفجأة وجدته واقفا أمامى وأخذتنى الصدمة . أخرجنى من مخبئى ، وعنفنى أمام الماكيير المسؤول عن عمل الماكياج له . وسأل بشارة واكيم الرجل عن رأيه فى أدائى فأجاب أنه ظن أننى بشارة واكيم نفسه .

وتحول بشارة واكيم إلى إنسان ودود ، وسألنى عن اسمى وعمرى وعملى . وقال إننى موهوب أصلح للسينما ، وطلب منى أن أعود بعد أن أكمل الدراسة . أحسست بنشوة غامرة ، وكان قرارى أن أكمل الدراسة وأصبح ممثلا .

وفى بداية عام ١٩٤٣ تزوجت أختى نزيهة من الملازم أول أحمد شفيق . وتركت شقتنا التى نسكن فيها جميعا . وانتقلت أمى إلى دكرنس حيث يعيش أخوها . وكان سامى بصدد تأسيس أسرته الخاصة ، وشرع فى البحث عن شقة أسكنها أنا ولبيب . لم أكن آنذاك فى نظر لبيب أكثر من مهرج . وكانت تروعه فكرة أن يتولى هو أمرى . كان على وشك التخرج فى المدرسة الثانوية التجارية وتقدم بطلب للتوظف فى بنك باركليز . وأخيرا عثر سامى على شقة لنا فى شارع الجامع الاسماعيلى بالقرب من ميدان لاظوغلى .

وهكذا فجأة وجدت نفسى محروما من أمى وأختى مرة واحدة . كانت نزيهة دائما هى الأقرب لى دون بقية أفراد الأسرة . كانت تكتم السر ، ومن ثم كنت أودعها الكثير من أسرارى . والآن ، على حين بغتة ودون توقع ، فقدت كل هذا . تذكرت أن لبيب هو صاحب فكرة إلحاقى بمدرسة تجارية . وفهمت الآن أن لا أحد يريد تولى مسؤوليتى . ومن ثم بات لزاما أن أعتمد على نفسى ، وأن أقوم بكل شؤونى فى أسرع وقت . ولكى أفعل ذلك كان يتعين علـىّ أن أكمل دراستى . وشعرت بالصدمة حين أدركت أن أمامى عاما دراسيا واحدا فقط ، ينبغى لى بعده أن أعول نفسى . ولهذا تعمدت على سبيل الاحتجاج أن أرسب فى امتحان نهاية العام الدراسى للصف الثالث فى الأول من يونيو .

وأتى هذا بالنتيجة المتوقعة ، وثار الجميع . فلم يحدث أن رسب أى منا فى أى امتحان . وبدا ذلك غريبا لكل الأسرة نظرا لأن جميع درجاتى على مدار السنوات الدراسية كانت جيدة .

تزوج سامى بابنة محرم فهيم الذى كان آنذاك رئيسا لنقابة المحامين ، ثم انتقل مع زوجته إلى شقة فى شارع دسوق فى مصر الجديدة . وهكذا بقيت وحدى مع لبيب الذى بدأ للتوّ عمله كاتبا فى أحد البنوك فور تخرجه من المدرسة . كانت هناك ملاحق لامتحانات نهاية العام تجرى قبيل العطلة الصيفية . غير أننى كنت مصرا على ألا أبدأ حياتى العملية مبكرا ، ومن ثم رسبت مرة ثانية .

ظل لبيب يندب حظه الذى ربطه بى فى شقة العزوبية المشتركة . كان يقول إننى عديم القيمة وإننى التافه الوحيد فى أسرتنا المحترمة . سئمت هذا الكلام ، وأردت أن أغير الحال ، ولكننى لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك . اجتزت امتحان نهاية العام الدراسى للصف الثالث فى يونيو ١٩٤٥ بحيث لم يبق أمامى غير عام دراسى واحد .

ثم ماذا بعد ؟

فى عيد ميلادى السابع عشر زرت ستوديو مصر ، حيث كنت قد التقيت من قبل ببشارة واكيم . كنت محظوظا ، فقد كان الرجل موجودا وتذكرنى .

قلت له إننى أعتزم ترك المدرسة دون أن أدرى ماذا أفعل بعد ذلك . سألنى إذا ما كنت أريد أن أمثل فى فيلمه . تملكنى خوف ، وقلت له إننى ليس عندى أدنى فكرة عن التمثيل . فقال إننى أصلح لأداء أدوار أشخاص من كل الجنسيات . كنت شابا يبلغ طوله ٥,٨ قدم ، أسود الشعر ، فاتح البشرة .

وتغير بذلك مصيرى ، واستقر عزمى أكثر مما مضى على أن أشق طريقى ومستقبلى فى السينما . وعندما أخبرت لبيب بذلك شعر بصدمة ، وقال إن هذا عار ولا يليق بأحدنا أن يمتهن مثل هذا النوع من الأعمال . لم أعبأ بكلامه وقررت أن أكون جزءًا من عالم السينما الساحر ، وقد ملأنى الحماس لذلك . أديت دورا صغيرا فى فيلم بشارة واكيم وكان اسمى فيه رفعت على . واشتريت من أول مال كسبته هدية لأختى نزيهة وابنها بكر المولود الجديد ، وقصدت بيتها لأراهما . واستقبلتنى نزيهة رقيقة دافئة العواطف كعهدى بها دائما . ولسوء الحظ حضر زوجها وانفجر فىّ غاضبا ، وقال إننى إنسان بلا قلب ولا فائدة . وخرجت من عندها مجروحا غاضبا .

حقق الفيلم نجاحا باهرا مما جعلنى أشعر بزهو كبير . وأحس زملائى فى المدرسة بالفخر والغيرة منّى . لم يعنهم فىّ شىء إن كان دورى صغيرا أم كبيرا . وكان من الطبيعى أن يفسد لبيب علىّ الاستمتاع بشهرتى الجديدة . ولم يكف عن الشكوى منى والصراخ فى وجهى .

وخلال العام الدراسى ١٩٤٥ / ١٩٤٦ ظهرت فى فيلمين آخرين ، وعقدت العزم أيضا على أن أكمل دراستى . وأكملت بالفعل دراستى فى صيف ١٩٤٦ بينما كنت أمثل فى فيلم جديد . وهنا قابلت « بيتى » وهى راقصة شابة ، وأصبحت أول حب فى حياتى . كانت مراهقة طائشة ، ولكنها كانت آنذاك ذات شأن كبير بالنسبة لى .

فقد فتحت أمامى عالما جديدا . كانت تكبرنى بعام واحد ، ولكنها كانت تفوقنى تحررا وخبرة وعلمتنى الكثير . ووصل الأمر إلى أنى انتقلت للعيش معها حيث كانت تسكن قريبا من الاستوديوهات التى تعمل بها . كانت هى أول امرأة قبلتها ، وبالطبع كان الرأى السائد فى تلك الأيام هو أن من مظاهر الفسق

التى تستثير المشاعر أن تحيا مع امرأة لست متزوجا بها . واستشاط لبيب غضبا . ومع هذا فقد كنت صبيا خاما حين انتقلت للعيش معها ، وخرجت من عندها رجلا .

أخذت من « بيتى » كل ما يمكن أن يأخذه إنسان . علمتنى الكثير ، غير أننى أحسست أنه قد حان الوقت لكى انتقل إلى مجال آخر . إذ فقدت الرغبة فى متابعة عملى كممثل ، وبدأت البحث عن عمل آخر ، لأنه بدون ذلك لم أكن أستطيع كسر القيود التى كبلتنى بها « بيتى » . وتقدمت بطلب لوظيفة لدى شركة بترول أجنبية على ساحل البحر الأحمر .

واختارونى على الرغم من كثرة عدد المتقدمين . وتسلمت العمل فورا ، ومن المؤكد أنه ساعدنى فى هذا أننى كنت أتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة . وانتقلت إلى رأس غارب التى تقع على بعد ١٥٠ ميلا جنوب السويس .

حاولت أن أنسى الماضى ، وعملت بدأب وجد قدر استطاعتى فى وظيفتى كمحاسب . وبقيت هناك لمدة خمسة عشر شهرا ، وتعلمت فيها كل ما يمكن تعلمه عن أعمال صناعة النفط وأقمت علاقات مع كثيرين من مهندسى النفط البريطانيين والأمريكيين .

وفى خريف عام ١٩٤٧ قرر رئيسى نقلى إلى المركز الرئيسى فى القاهرة ، غير أننى عزمت على رفض الترقية ، لأننى كنت أخشى الحياة قريبا من أسرتى ، خاصة أختى نزيهة وأبناءها . إذ كنت أعرف أننى لن أحتمل أن أعيش قريبا منها ولا أستطيع أن أراها . وكنت قد تعرفت على أحد رجال الصناعة من الاسكندرية اعتاد أن يتردد كثيرا على السويس لأعمال تجارية ، وحاول مرارا وتكرارا أن يشدنى للعمل فى شركته التى تعمل فى الكيماويات . وما أن حانت الفرصة للقائه حتى سألته عما إذا كان العرض الذى قدمه لا يزال قائما أم لا .

سره سؤالى ورد بالإيجاب ، وانتقلت معه إلى الاسكندرية . ولأول مرة

منذ أن خرجت من شقة سامى منذ خمس سنوات مضت وجدت فى هذا الرجل وأسرته بديلا لأسرتى ، وقررت أن أضرب بجذورى فى الاسكندرية . فالدفء والحب الأبوى اللذان حرمت منهما وجدت لهما بديلا مضاعفا هنا . فقد أبدى رئيس شركة الكيماويات رضاه البالغ عن عملى وشخصى حتى أنه رقانى وعاملنى كأب لى . وزرت أسرته مرات وتعرفت على ابنته هدى . واعتدت أنا وهدى أن نلتقى بين حين وآخر ونذهب معا إلى السينما . وعرف رئيسى ذلك ولم يعترض . بل على العكس شجع علاقتنا وأفهمنى أنه يرى فىّ الابن الذى حرم منه . وحفزنى هذا فى المقابل على التفكير فى إكمال تعليمى والانتساب إلى الجامعة .

ولكن القدر أراد لى شيئا آخر . فبعد عيد ميلادى الثانى والعشرين بقليل طلب منى رئيسى فى العمل السفر إلى فرع الشركة فى القاهرة لأنه غير مطمئن إلى المدير هناك . وطلب منى أراجع عمله . وسافرت إلى القاهرة حاملا معى هدايا لأختى وأبنائها .

وعلى الرغم من شعورى ببعض الاكتئاب حين يعاودنى التفكير فى الماضى ، ولأن أمى ماتت فى دكرنس بينما كنت أعمل فى رأس غارب ، إلا أننى شعرت أيضا بالفخر لأننى أعود لأختى وأنا رجل أعمال ناجح ومحترم .

فحصت دفاتر الحسابات فى فرع الشركة بالقاهرة ، وراجعت كل شىء آخر فيه . لم أجد أى شىء غير عادى . بل راجعت أيضا رصيد النقدية ، ووضعت الرصيد فى الخزانة وأغلقتها دون أن أدرى أن مدير الفرع معه مفتاح ثان للخزانة . واكتشفت فى اليوم التالى ضياع مبلغ ألف جنيه مصرى ، وحيث أننى من الناحية الرسمية كنت الوحيد الذى يحمل المفتاح ، فقد بات واضحا أننى سرقت النقود . واتصل مدير الفرع برئيس الشركة فى الاسكندرية وأبلغه أنه قد تم العثور على النقود فى غرفتى بالفندق ، وذلك محض كذب . خجلت من جريمة لم أرتكبها وعدت إلى الاسكندرية . ولكن سرنى أن رئيس الشركة قال لى انه يصدقنى ، وأننى ضحية دهاء مدير الفرع . ولكن رئيس الشركة لم يستطع الإبقاء علىّ فى وظيفتى تجنبا لإجراء أى تحقيقات رسمية . ورتب

لى فرصة الالتحاق بعمل جديد لدى صديق له يدير خطا ملاحيا . صدمت ولكن لم يكن أمامى خيار آخر .

بدأت عملى كمساعد لضابط الحسابات على سفينة شحن اسمها « حورس » ، وبعد أسبوعين كنت على متن السفينة لأغادر مصر لأول مرة . طال سفرنا ، وتقوقعت على نفسى غير مصدق أننى أبحر بعيدا عما أردته لنفسى . توقفنا فى نابولى وجنوه ومارسيليا وبرشلونة وجبل طارق وطنجة ، ثم بعد ذلك وصلنا إلى ليفربول . وفى ليفربول أدخلت السفينة إلى الحوض الجاف ، لعمل بعض الاصلاحات . وكان من المقرر أن تتجه بعد ذلك إلى بومباى . وحيث أنه كان من المقرر أن نظل وقتا طويلاً فى انجلترا ، فقد بدأت مغامرتى لاستكشاف المنطقة داخل ليفربول وحولها . وذات ليلة وأنا فى مرقص قابلت فتاة اسمها جودى موريس . ذكرتنى ببيتى . رقصنا معا وقضينا أمسية رائعة . أحببتها ومارست معها كل ما تعلمته من بيتى . وقعت جودى فى غرامى . ومنذ ذلك الحين أصبحنا نقضى معا كل لحظة تكون فيها بلا عمل . ورحب بى أبوها الذى كان شخصية نقابية هامة ورئيسا للعمال فى الأحواض الجافة ، ودعانى لزيارتهم فى البيت . وأمضيت معهم وقتا رائعا .

عندما تهيأت « حورس » للسفر إلى الهند بكت جودى بحرقة وتوسلت إلىّ ألا أسافر . ولم أكن أنا أيضا متحمسا للسفر إلى الهند ، غير أننى لم أكن أريد أن أفقد وظيفتى ، ولا أن أبقى فى انجلترا بطريقة غير مشروعة . ولكن جودى أوضحت لى أن كثيرين من البحارة يضطرون إلى استئصال الزائدة الدودية ، ومن ثم يتخلفون عن السفر . وينتظرون إلى أن تعود سفنهم مرة ثانية إلى ليفربول ليلتحقوا بها . وأخبرتنى أن أباها يمكنه مساعدتى فى الحصول على تصريح إقامة . قالت وفعلت . وأدعيت أننى أعانى ألما حادا تم تشخيصه على أننى مصاب بالتهاب الزائدة الدودية ويتطلب إجراء جراحة فورا .

وعقب إجراء العملية خرجت لأكون فى رعاية جودى . وبعد أن شفيت بدأت أعمل مع والد جودى فى الميناء ، بعد أن رتب لى تصريحا بالعمل .

وخلال هذه الفترة ، قابلت قسا طلب منى أن يعرف كل شىء عن

الإسلام ، واتفقنا سويا على أن أعلمه كل ما أعرفه عن الإسلام ، ويعلمنى هو فى المقابل كل ما يعرفه عن المسيحية . وأسعدنى أن تتاح لى فرصة أن أقدم بعض معلوماتى وأن أتعلم شيئا جديدا . غير أننى لم أكن مستعدا للتخلى عن إيمانى بدينى . ولم تعبأ جودى بذلك ، إذ كان كل ما تريده هو أن تتزوج منى أيا كانت عقيدتى . وحين تأملت أحوال أسرتها وأحوالها وتدبرت أمرى أيقنت أنها لا تصلح لى كزوجة . ولذلك ، فإنه ما أن عادت « حورس » حتى ودعتها وصعدت إلى السفينة عائدا إلى مصر ، وودعتنى جودى وهى تقول إنها سوف تنتظرنى ، ولكننى كنت على يقين من أنه لا أمل فى ذلك .

عدنا إلى مصر فى مارس ١٩٥٠ . كنت موزع الوجدان بين الإحساس بالسعادة والحزن . لم أجد لى أسرة أعود إليها ، ومن ثم قررت أن أترك البلاد ثانية بأسرع ما يمكن . عدت لأعمل مستخدما على متن سفينة تحمل العلم الفرنسى ، وأبحرت بى لنصل بعد أربعة أيام إلى مارسيليا . وهناك نزلت فى فندق فى الميناء سيىء جدا وصغير جدا . واستثمرت إجادتى للفرنسية وسحرى مع النساء وكل ما تعلمته من بيتى . وأفضى بى هذا إلى أن تشملنى امرأتان عجوزتان برعايتهما وتتوليان أمرى وتدفعان لى أجرا مقابل صحبتهما والتسرية عنهما . وظننت أن الأسلوب الذى نجح معى فى مارسيليا سوف ينجح أيضا فى باريس وربما على نحو أفضل ، فشددت الرحال إلى العاصمة الفرنسية ، ولم أكن مخطئا فيما اعتقدته . إذ لقيت سيدات كثيرات دفعن لى مالا وفيرا مقابل تمضية وقت ممتع . وواجهت خطر الطرد من البلاد لأننى لم أكن أملك تأشيرة إقامة .

لهذا ركبت القطار إلى لندن زاعما أننى مضطر إلى إستشارة الطبيب الذى أجرى لى العملية الجراحية لاستئصال الزائدة الدودية . وحصلت على تأشيرة دخول لزيارة تمتد أسبوعين . بدا الأمر مختلفا تماما هذه المرة ، فقد أصبحت جسورا مغامرا بصورة عدوانية وأنانيا . وقفت مستقلا على قدمى قادرا على أن أفعل كل ما أريد . لم يعد بمقدور أحد أن يدفعنى بعيدا عن طريقى المرسوم . حققت بعض الثروة بفضل سخاء السيدات اللاتى صاحبتهن . لم يكن لى من حاجة تدفعنى للسفر إلى ليفربول غير أنى ذهبت إلى هناك لأرى جودى

التى استبدت بها فرحة غامرة لرؤيتى جعلتها تبكى طوال الوقت . ظننت أننى عائد إليها ومن أجلها ، ولم يكن هذا صحيحا . غير أننى مكثت معها إذ أدركت أن هذه أفضل فرصة لى . وساعدنى القس الذى التقيت به سابقا فى الحصول على وظيفة فى وكالة للسفريات حيث بدأت العمل بحماس كبير . كان اسم وكالة السفريات التى عملت بها « سلتيك تورز » . وكانت لدى أفكار لتطوير عملها . إذ أقنعت رئيسى بأن أسافر إلى لندن فى محاولة للحصول على موافقة السفارة المصرية على أن تتولى وكالتنا تنظيم سفر الدبلوماسيين المصريين والحاصلين على منح دراسية من وإلى بريطانيا العظمى . وكنت على ثقة من نجاحى على الرغم من أن شركة « توماس كوك » كانت هى التى تقوم بهذه الأعمال وقتذاك . ذهبت فى لندن لمقابلة الملحق المصرى وأقنعته بأن يوكل إلينا هذا النشاط ، وأوضحت له أن أسعارنا أرخص ، وأننى كابن بلد سوف أتابع ذلك لأضمن لجميع العملاء أفضل رعاية . وعدت إلى ليفربول حاملا فى جيبى عقدا مربحا وبلغت عمولتى عن هذه الصفقة ٢٠٠٠ جنيه استرلينى .

كانت هذه مجرد بداية . وفى أقل من خمسة أشهر تضاعف حجم عمل وكالة السفريات وزادت حصتى إلى ٥٠٠٠ جنيه أودعتها فى بنك أميركان اكسبريس مقابل شيكات سياحية بنفس القيمة . واقترحت بعد ذلك على رئيسى أن أبذل نفس المحاولة مع السفارة المصرية فى نيويورك . ووافق على الفور وحجز لى تذكرة سفر إلى نيويورك . وودّعت جودى ووعدتها بالعودة سريعا . ولم يدر بخاطرى أن هذا كان وداعنا الأخير .

وفى نيويورك قال لى المدير المسؤول عن وكالة للسفريات حاولت التعاون معه فيما جئت لأجله أن ليفربول مدينة صغيرة ولا يمكن أن يتم فيها تنظيم السفريات لأمريكا . وامتدحنى قائلا : إننى موهوب وأن علىّ أن أبرز مواهبى فى نيويورك ، وعرض علىّ وظيفة وقبلتها . واهتز قلبى فرحا لنجاحى .

كان قبولى لهذا القرار يعنى من الناحية القانونية أننى خدعت صاحب الوكالة الإنجليزية ، وحصلت بموجب ذريعة كاذبة على تذكرة سفر بالطائرة من إنجلترا إلى الولايات المتحدة . ومن ثم كان منطقيا أن يوجه لى رئيسى السابق فى ليفربول تهمة الغش . بقيت فى نيويورك وحولت شيكاتى السياحية

إلى دولارات بما يساوى قيمة ما معى من جنيهات استرلينية مرتين ونصفا . وأصبحت بذلك أملك اثنى عشر ألف دولار ملكية قانونية ، غير أن إقامتى فى الولايات المتحدة لم تكن قانونية لأنى لم أحصل على بطاقة التأمين الاجتماعى الخضراء التى تضفى على وجودى وضعا قانونيا . وبدأ موظفو إدارة الهجرة يهتمون بى . لذلك رحلت إلى كندا حيث تقدمت بطلب للحصول على تأشيرة دخول للزيارة فى مطار مونتريال . وحصلت على التأشيرة لزيارة مدتها أسبوع . وعلى أية حال ، فلم أكن أرغب فى البقاء أطول من ذلك لأن كندا كانت جزءا من الكومنولث البريطانى ، وهو ما من شأنه أن يسبب مشكلة لى . تم وضع اسمى فى القائمة السوداء فى الولايات المتحدة ، ومن ثم طرت إلى فرانكفورت فى ألمانيا حيث حصلت على تأشيرة عبور لمدة ٤٨ ساعة . ومن هناك طلبت السفر إلى النمسا ، غير أن الأمور جاءت على غير ما أريد .

ففى مطار فرانكفورت قابلت فتاة شقراء عرضت علىّ مساعدتها . ولتأمين نفسى من المفاجآت خبأت نقودى عندما ذهبت لقضاء ليلة معى فى غرفتى بالفندق ، وبالفعل وجدت النقود كما هى فى صباح اليوم التالى ، لكن الفتاة كانت قد اختفت ومعها جواز سفرى . توجهت إلى القنصلية المصرية وأبلغت عن فقدى لجواز السفر ، وتقدمت بطلب للحصول على جواز جديد . وألمح القنصل إلىّ أننى بعت جواز سفرى لأن كثيرين من النازيين السابقين كانوا آنذاك يحاولون الخروج من البلد . ومن ثم يشترون جوازات سفر أجنبية ليسافروا بها . وبعد يومين أوقفتنى الشرطة للتحقق من شخصيتى ، واحتجزونى مؤقتا فى حجز قضائى ، وأحالونى إلى القضاء . وأودعونى الحبس بتهمة الإقامة غير المشروعة . وصدر ضدى حكم بعد ثلاثة أشهر بدفع غرامة كنت قد استنفدت قيمتها خلال فترة احتجازى إلى حين المحاكمة ، ورحلونى قسرا على متن أول طائرة إلى القاهرة .

عدت إلى القاهرة مرة ثانية فى مايو ١٩٥١ ، ومعى مبلغ كبير من المال ولكن بدون جواز سفر . وتقدمت بطلب للحصول على جواز سفر جديد ولكن طلبى رفض . ذلك أن القنصل المصرى فى فرانكفورت أرسل تقريرا عن الحادث الذى وقع لى إلى القاهرة . وأصبح بلدى سجنا كبيرا بالنسبة لى ، وقررت البحث عن مكان لى فيه .

فكرت فى أن أفضل فرصة متاحة لى بفضل قدراتى فى اللغات هى العمل فى شركة قناة السويس . ولكننى كنت بحاجة إلى وثائق « هويّة » للسفر إلى هناك . فتعرفت على رجل يزور ويبيع جوازات السفر ، وأعد لى جواز سفر باسم على مصطفى . كانت الوثيقة أصلية غير أن الصورة هى فقط التى أبدلت بصورتى . وفى يونيو ١٩٥١ سافرت إلى قناة السويس باسم على مصطفى . اجتزت الكثير من نقاط التفتيش والتحقق ونجحت هويتى المزيفة ، وحصلت على وظيفة فى شركة القناة . وسارت الأمور سيرا حسنا إلى أن بدأ البريطانيون فى شهر أكتوبر فى فحص الهويات الشخصية بتدقيق أكثر . قررت ترك هذه المنطقة والعودة إلى القاهرة حيث حاولت الحصول على هوية جديدة لمواطن من دولة محايدة مثل سويسرا . ووجدت ضالتى وأصبحت الآن صحفيا من جنيف اسمه « شارلز دينون » . كنت لا أزال أملك اثنى عشر ألف دولار فى صورة شيكات سياحية لأنى كنت قبل ذلك أنفق على معيشتى من راتبى من شركة القناة . ارتديت ملابس أجنبية ونزلت فى فندق دولى .

وفى تلك الفترة وقعت فى القاهرة اضطرابات سياسية وبدأت الشرطة تحركات مكثفة للتنقيب والتحقق ، ومن ثم كان لا بد وأن أنهى إقامتى سريعا . وقررت فى مارس ١٩٥٣ مغادرة هذه المدينة باسم الصحفى السويسرى شارلز دينون . ركبت القطار إلى الاسكندرية ومعى شيكاتى السياحية ، مقتنعا بأن أفضل شىء لى هو مغادرة البلاد . سعيت للحصول على جواز سفر جديد بشخصية جديدة . وحصلت بالفعل على جواز سفر بريطانى باسم دانييل كالدويل . وعزمت على الخروج من مصر عبر ليبيا متجها مباشرة إلى بنغازى عن طريق التطفل على السيارات العابرة (أوتوستوب) . سارت الأمور على خير وجه وعبرت الحدود إلى ليبيا وكانت آنذاك مجرد سور صغير . وبعد أن قطعت عشرين ميلا داخل حدود ليبيا التقيت بداورية عسكرية بريطانية . لم تساورنى أى شكوك بالنسبة لسلامة هويتى الشخصية . كنت على يقين من أننى سأجتاز عملية التحقق هذه دون مشكلات . ولكننى كنت مخطئا . إذ وقف الضابط المسؤول قبالتى وسألنى عن جواز سفرى . فناولته جواز السفر ، وقد ارتسمت على شفتى ابتسامة عريضة متأكدا من أننى سوف أجتاز هذا الاختبار الصغير .

وسألنى :

- هل أنت دانييل كالدويل ؟

أجبت دون اكتراث :

- نعم يا سيدى . مؤكد أنا .

- هل يمكننى أن أرى جميع الوثائق الأخرى التى تحملها معك ؟

- يقينا .

هكذا أجبته للمرة الثانية ، وأنا أناوله حافظتى الجلدية .

تفحص كل شىء بداخلها بدقة شديدة ، ثم سألنى ثانية :

- هل أنت دانييل كالدويل ؟

- نعـم .

ثم رددت عليه بسؤال آخر :

- ومن تظننى إذن سواه ؟

- إذا كنت أنت دانييل كالدويل ، فمن أين لك بهذه الشيكات السياحية التى تحمل اسم رفعت الجمال ؟

كنت قد فكرت فى كل شىء إلا فى شيكاتى السياحية . إنها باسمى الحقيقى . اشتد توترى وجاهدت للخروج من الموقف .

وعاد الضابط ليسألنى :

- إذا كانت هذه الشيكات لك إذن فما هو اسمك ؟

أجبت :

- دانييل كالدويل .

سألنى :

- ومن هو صاحب هذه الشيكات ؟

أجبـت :

- أنـا .

قـال :

- هذه الشيكات بحاجة إلى توقيع ثان عند صرفها ، وحيث أن التوقيع الأول لشخص اسمه رفعت الجمال ، فكيف لك أن تصرفها ؟

وكانت الإجابة الوحيدة والشديدة الغباء التى يمكن أن أدلى بها هى قولى :

- هذه ليست مشكلة . سوف أوقع رفعت الجمال .

قال الضابط بجفاء :

- أخشى أن تكون هناك مشكلة . هذا تزوير فى وثائق رسمية .

واستطرد قائلا :

- إما انك البريطانى دانييل كالدويل ، أو المصرى رفعت الجمال . أم أن لديك رأيا آخر ؟

صحت به :

- وماذا يعنيك أنت فى هذا ؟ أنا مجرد عابر طريق ، وسوف أترك بنغازى مباشرة . وأمورى المالية ليست من شئونك .

ولكن الضابط قال :

- ولكنك بريطانى يا سيدى كما تقول . وهذا يهمنى . ربما كنت جنديا فارا من الجيش . فكثيرون من الجنود يفرون من وحداتهم فى الاسكندرية . آسف ولكن واجبى يقتضى التحرى عنك فى لندن .

سألته :

- وماذا لو أننى لست مواطنا بريطانيا ؟

أجـاب :

- إذا لم تكن بريطانيا ، فإن معنى هذا أنك مزور لهويتك الشخصية .

وحيث أنك قادم من الحدود المصرية ، فسوف اضطر إلى إعادتك إلى السلطات المصرية .

وكان سؤالى الوحيد :

– ثم ماذا بعد ؟

– هذه مشكلة السلطات المصرية . غير أن لدى انطباعا بأنك لست بريطانيا ولا مصريا . أظن أنك يهودى مصرى ، واحد من أولئك الكثيرين من اليهود الذين يحاولون شق طريقهم من مصر إلى إسرائيل ، إنك مجرد ديفيد آرونسون آخر(*) من عديدين من أمثالك .

كان الموقف ميئوسا منه ، وما هو مقدر لابد منه . أعادونى إلى السلطات المصرية وحططت الرحال داخل أحد أقسام الشرطة فى الاسكندرية . أخذ الضابط البريطانى جواز سفرى المزور ، وهو الشىء الوحيد الذى كان يعنيه ، وأرسله للتدقيق والمراجعة .

وفى الاسكندرية مثلت أمام القاضى الذى جابهنى قائلا : إننى يهودى ، ديفيد آرونسون ، أحاول مغادرة مصر بأوراق مزورة وشيكات سياحية مسروقة . ودار حوار مع القاضى دفاعا عن نفسى باللغة العربية . وزاد هذا الطين بلة وجعلنى فى موقف أسوأ . ذلك أن الذنب الذى اقترفته ، فى نظر القاضى ، تأكد من خلال كلامى بلغة عربية مصرية . توقفت عن الحوار ورفضت كل ما عدا ذلك . ورحلونى إلى مصر الجديدة فى القاهرة لأن اسم رفعت الجمال مسجل هناك .

وفى القاهرة بدأ كل شىء دورته من جديد . استجوبونى ولم أجب . وبقيت فى الحجز عدة أيام . وذات يوم أحضرونى إلى أحد المكاتب ، وتوقعت المزيد

(*) ربما كان الضابط يشير إلى شبكة التجسس اليهودية التى أنشأها آهارون آرونسون – مستشار القائد التركى جمال باشا – فى دمشق ، والتى انتشر كل أفرادها فى الإمبراطورية العثمانية ، بل إن آرونسون نفسه عمل فى مصر – الناشر .

من الاستجواب . رأيت فى انتظارى رجلا ضخم البنية ، يوحى بالجدية ، يرتدى ملابس مدنية ، هادىء الصوت فى ود حين يلقى أوامره .

وجه كلامه للحارس الذى اصطحبنى قائلا :

- يمكن أن تتركنا الآن وحدنا .

واتجه ناحيتى وطلب منى الجلوس . جلست . وفى داخلى قلق حقيقى . يسيطر علىّ مزاج عنيد وملل وضيق مما سيأتى ، فقد سئمت وضقت ذرعا من القيود التى وضعونى فيها . وعندما قدم لى الجالس قبالتى سيجارة ثنيت يدى فى هدوء فانسلتا خارج القيد الحديدى . تردد الرجل لحظة ، ولكنه لم ينطق بشىء ، ولم يستدع الحارس . جلس خلف مكتبه ، الذى أجلس قبالته ، وقد رسم على شفتيه ابتسامة وهو يتطلع إلىّ .

قدّم لى نفسه قائلا :

- اسمى حسن جسنى من البوليس السياسى .

قفزت إلى رأسى علامة استفهام كبيرة : ما علاقتى أنا بالبوليس السياسى ؟ إن المباحث الجنائية هى وحدها المسؤولة عن الجرائم التى يحاولون اتهامى بها .

استطرد الرجل قائلا :

- لا أستطيع أن أخاطبك باسمك لأننى لا أعرف أى اسم استخدمه من أسمائك الثلاثة . يجب أن تعرف أن قضيتك صعبة جدا . ليست المسألة خطورة جرائمك ، بل لأننا ببساطة لا نعرف من أنت . إن الثورة فى بلدنا لا تزال حديثة عهد ، بلا خبرة أو استعداد . ونحن لا نستطيع إصدار وثائق إثبات الشخصية للجميع لأننا لا نملك الوسائل اللازمة ولا العاملين اللازمين لذلك . وكما ترى فإننى صريح معك . وحيث أنك حتى هذه اللحظة مجرد مشتبه فيه ، فالواجب يقضى بأن لا تبقى فى الحجز أكثر من يومين . بعد هذا لا بد من عرضك على قاض أو إطلاق سراحك . ولكن يجب أن نتحفظ عليك حتى

تفصح لنا عن حقيقة هويتك . نحن فى ثورة ولسنا على استعداد لتحمل أى أخطاء فى هذه المرحلة .

أنصت إليه بانتباه محاولا تصور ما يرمى إليه . واستطرد قائلا :

- أود أن أغلق قضيتك . لا يوجد أى بلاغ عن سرقة جواز سفر بريطانى باسم دانييل كالدويل . ولا أستطيع أن أفسر كيف ظهر فى ملفك إنك يهودى باسم ديفيد آرونسون . ثم إن رفعت الجمال لا توجد اتهامات ضده ولا أبلغ هو عن سرقة أى شيكات سياحية . سأدعك تخرج إلى حال سبيلك شريطة أن أعرف فقط من أنت على حقيقتك . والآن ما هو قولك ؟

قلت له :

- ألا تريد أن تخبرنى لماذا أنت مهتم بى ؟ واضح إننى لست هنا بسبب اتهام ما .

وكان رده :

- أنا معجب بك . إجابتك أسرع مما توقعت .

تصورت أنه ما دام من البوليس السياسى ، وهو ما أصدقه ، فليس من المنطقى أن يعرفنى باسمه مع أول اللقاء إلا إذا كان على يقين من أمرى .

كان البوليس السياسى فى ذلك الوقت نوعا من المخابرات . وعلى الرغم من إدعائه من أنهم لا يملكون الإمكانيات إلا أنهم كانوا يعملون بدأب شديد .

استطرد قائلا :

- أنا مهتم بك . فقد تأكد لنا أنك قمة فى الذكاء والدهاء . لقد أثرت حيرة الرسميين إزاء الصور التى ظهرت عليها حتى الآن . قد تكون إنجليزيا أو يهوديا أو مصريا . غير أن ما أثار اهتمامى كثيرا بشأنك هو أن أحد رجالنا الذين دسسناهم بينكم فى حجز الاسكندرية أفاد بأن جميع النزلاء اليهود الآخرين اعتقدوا عن يقين أنك يهودى .

دهشت للطريقة التى يعملون بها . لقد وصل بهم الأمر إلى حد وضع مخبرين داخل السجن للتجسس على الخارجين على القانون . وواصل حسن حسنى حديثه قاصدا مباشرة إلى ما يرمى إليه فقال :

- يجب التزام الحذر . أعداء الثورة فى كل مكان ويريدون دفع مصر مرة ثانية إلى طريق التبعية للأجانب وكبار الملاك الزراعيين . بيد أن هذا موضوع آخر . فأنت كإنجليزى لا يعنيك هذا فى كثير أو قليل . وأنا على يقين من أنك لا تضمر كراهية للشعب المصرى .

انفجرت فجأة قائلا :

- هذه إهانة أنا مصرى ، وحريص كل الحرص على مصر وشعبها .

صحت وصرخت بأعلى صوتى لهذه الإهانة التى وجهها لى . وما أن انتهيت من ثورتى الغاضبة حتى أشعل سيجارة وابتسم ابتسامة المنتصر . وعندئذ عرفت أننى وقعت فى المصيدة التى نصبها لى . عرفت أنه انتصر علىّ . فقد استفزنى إلى أقصى الحدود ليجعلنى أظهر على حقيقتى ، واستطاع ببضع كلمات عن أعداء مصر أن يجعلنى أكشف الستر عما أخفيته .

وهنا قال :

- رفعت أنا فخور بك . أنت مصرى أصيل . أطلب منك أن تخبرنى شيئا واحدا وبعدها سأعترف لك بالسبب فى أنك هنا ، وفى أنى مهتم بك أشد الاهتمام . كيف نجحت فى جعل اليهود يقبلونك كيهودى ؟

أجبت قائلا :

- هذه قصة طويلة ، وأنا واثق من أنك لا تريد سماعها .

وكانت إجابته :

- جرّب . عندى وقت طويل .

سألته :

- وفيم يهمك هذا ؟

- لأننى بحاجة إليك ، وعندى عرض أريد أن أقترحه عليك .

ربما كنت انتظر هذه اللحظة . إذ سبق لى أن عشت أكاذيب كثيرة فى حياتى ، وبعد أن قضيت زمنا طويلا وحدى مع أكاذيبى ، أجدنى مسرورا الآن إذ أبوح بالحقيقة إلى شخص ما . وهكذا شرعت أحكى لحسن حسنى كل شيء عنى منذ البداية . كيف قابلت كثيرين من اليهود فى استوديوهات السينما ، وكيف تمثلت سلوكهم وعاداتهم من منطلق الاهتمام بأن أصبح ممثلا . وحكيت له عن الفترة التى قضيتها فى إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، ثم أخيرا فى مصر . بسطت له كل شيء فى صدق أمامه . إننى مجرد مهرج ، ومشخصاتى عاش فى التظاهر ومثل كل الأدوار التى دفعته إليها الضرورة ليبلغ ما يريد فى حياته .

بعد أن فرغت من كلامى اتسعت ابتسامة حسنى أكثر مما كانت وقال لى :

- رفعت الجمال ، أنت إنسان مذهل . لقد اكتسبت فى سنوات قليلة خبرة أكبر بكثير مما اكتسبه شيوخ على مدى حياتهم . أنت بالضبط الشخص الذى أبحث عنه . يمكن أن نستفيد منك استفادة حقيقية .

وكان سؤالى هذه المرة :

- ما الذى تريدنى من أجله ؟

أجاب قائلا :

- كما قلت لك من قبل هناك مشكلات خارجية كثيرة تواجه مصر . وتوجد فى مصر أيضا رؤوس أموال ضخمة يجرى تهريبها . والملاحظ أن كثيرين من الأجانب وخاصة اليهود هم الذين يتحايلون لتهريب رؤوس الأموال إلى خارج البلاد . يمكنهم تحويل مبالغ بسيطة فقط بشكل قانونى ، غير أنهم نظموا فرقا تخطط وتنظم لإخراج مبالغ ضخمة من مصر . واليهود هم الأكثر نشاطا فى هذا المجال . إن إسرائيل تأسست منذ خمس سنوات مضت ، وهناك كميات ضخمة من الأموال تتجه إليها . ونحن ببساطة لا نستطيع تعقب حيلهم ، ومن

ثم فنحن نريد أن نغرس بينهم شخصا ما ، يكتسب ثقتهم ويطمئنون إليه وبذا يكتشف حيلهم فى تهريب أموالهم إلى خارج البلاد ، كما يكشف لنا عمن وراء ذلك كله . نريد أن نعرف كيف تعمل قنوات النقل التى يستخدمونها وكل شىء آخر له أهمية . وأنت الشخص المثالى لهذا العمل . الشخص الذى نزرعه وسطهم لابد وأن يكون يهوديا . ولقد استطعت إقناعهم بأنك كذلك . ما رأيك ؟ هل أنت على استعداد لهذه المهمة ؟

حدقت فيه كأنه نزل إلىّ من السماء . لم أشعر بالاطمئنان ، ولم تكن لدى فكرة عما أنا مزمع عمله . أوضح لى أننى أفضل فرس رهان بالنسبة له . وأضاف أنهم سوف يتولون تدريبى ، وإيجاد قصة جيدة الإحكام لتكون غطاء لى ، ثم يضعونى وسط المجتمع اليهودى فى الاسكندرية .

سألته :

- وماذا يعود علىّ أنا من هذا ؟

- سيتم محو ماضى رفعت الجمال تماما ، ويجرى إسقاط جميع الإجراءات القضائية الأولية لإقامة دعاوى ضدك بسبب جوازات السفر المزورة ، والبيانات الشخصية عن على مصطفى وشارلز دينون ، ودانييل كالدويل ، وأى أسماء أخرى سبق لك أن استعملتها ، كما سيتم إسقاط أى اتهامات أخرى ضدك . وسوف تستعيد قيمة شيكاتك السياحية ، أو تكتب بالاسم الذى تتخذه لنفسك وتعيش به كيهودى . هل نعقد الصفقة معا ؟

عدت لأسأله :

- هل لى حق الاختيار ؟

- من حيث المبدأ لك الخيار . فإذا كنت قد اعتدت على حياة السجن ، فمن المؤكد أنك تستطيع اختيار هذا لأن السجن سيكون هو مكانك ومآلك زمنا طويلا ما لم تسقط الاتهامات ضدك .

- وكيف نبدأ إجراءاتنا من هنا إذا ما قبلت عرضك ؟

- سنشرع فى تدريبك على الفور . سيكون تدريبا مكثفا ويحتاج إلى زمن طويل . وسوف تكون لك شخصية جديدة وتنسى ماضيك تماما . وما أن توضع فى مكانك الجديد حتى تغدو مسؤولا عن نفسك . لن يكون لنا دور سوى دعمك بالضرورات ، ولن نتدخل إلا إذا ساءت الأمور ، أو أصبح الوضع خطرا .

جلست فى مكانى أفكر فى الفرص المتاحة لى ، مدركا ألا خيار آخر أمامى إذا لم أشأ دخول السجن ، لقد أوقع بى حسن حسنى حيث أراد لى ، ولا حيلة لى إزاء ذلك . وقفت وبسطت يدى لأصافحه موافقا وأنا أقول له :

- حسن ، أظنك أوقعت بى حيث تريد لى أن أكون . إذن لنبدأ .

أجاب وعلى شفتيه ابتسامة :

- أنا سعيد جدا أن أسمع هذا منك .

وبدأت فترة تدريب مكثف . شرحوا لى أهداف الثورة وفروع علم الاقتصاد ، وتعلمت سر نجاح الشركات متعددة القوميات ، وأساليب إخفاء الحقائق بالنسبة لمستحقات الضرائب ، ووسائل تهريب الأموال ، وتعلمت بالإضافة إلى ذلك عادات اليهود وسلوكياتهم . وتلقيت دروسا مكثفة فى اللغة العبرية كما تعلمت تاريخ اليهود فى مصر وأصول ديانتهم . وعرفت كيف أمايز بين اليهود الاشكناز(*) والسفارد(**) والشازيد(***) . وحفظت عن ظهر قلب الشعائر اليهودية وعطلاتهم الدينية حتى أننى كنت أرددها وأنا نائم . وتدربت أيضا على كيفية البقاء على قيد الحياة معتمدا على الطبيعة فى حالة إذا ما اضطرتنى الظروف إلى الاختفاء فترة من الزمن . وتدربت بعد هذا على جميع عادات الشرطة السرية للعمل بنجاح متخفيا . وأخيرا تقمصت شخصيتى الجديدة . وأصبحت منذ ذلك التاريخ جاك بيتون المولود فى ٢٣ أغسطس عام ١٩١٩ فى المنصورة ، من أب فرنسى وأم إيطالية . وأن أسرتى تعيش الآن فى فرنسا بعد رحيلها من مصر ، وهى أسرة كانت لها مكانتها وميسورة الحال . وديانتى هى يهودى اشكنازى . وتسلمت وثائق تحمل اسمى الجديد والتواريخ الجديدة .

(*) يهود شرق أوروبا - الناشر .

(**) يهود أسبانيا والبحر المتوسط - الناشر .

(***) من طائفة اليهود الحسيديين الذين نشأوا فى بولندا وأوكرانيا وغيرها - الناشر .

٥ الرحيل إلى عرين الأسد

وخرجت إلى العالم بهذه الشخصية الجديدة ، وبكل ما تعلمته قصدت الاسكندرية مباشرة . كنت رسميا فى الرابعة والثلاثين من العمر آنذاك ، وإن كنت أبدو أصغر سنا . وتسلمت رقم تليفون ، وتحدد لى موعد للاتصال عن طريقه ، والإفادة بما لدى من معلومات .

وصدرت لى تعليمات بأن يكون الاتصال مع حسن حسنى فقط عن طريق هذا الرقم . إذ كان هو الوحيد ، لدواعى الأمن ، الذى يعرف دورى ومهمتى .

وعثرت فى الاسكندرية على شقة صغيرة جميلة فى حى من المدينة يكثر به اليهود ، وحصلت على وظيفة كاتب فى إحدى شركات التأمين ، ورويدا رويدا تزايدت ثقتى بنفسى وزايلتنى مخاوفى وبدأت « اقتنع » بأننى يهودى . وبعد فترة قصيرة قابلت ليفى سلامة الذى زاملته فى زنزانة السجن وقتما كنت نزيلا به فى فترة سابقة باسم ديفيد آرونسون . حيانى كصديق قديم واصطحبنى وقدمنى إلى أصدقائه . وعلى الرغم من حذرى إلا أننى كنت على يقين من أنه صدقنى وسلّم بأن هذه هى حقيقتى . وبذا كان مفتاحى إلى قلب الطائفة اليهودية . وحيث أننى لم أكن قد قلت له اسمى قبل ذلك ، فلم أجد مشكلة فى تقديم نفسى له باسم جاك بيتون . وبعد ثلاثة أيام من لقائنا قابلنى بعد انتهاء العمل وقدمنى إلى امرأة شابة تدعى « مارسيل نينو » كانت فى زيارة إلى القاهرة . وكان واضحا فى ضوء ما تعلمته فى السابق أن القصد من اللقاء هو أن تتفحصنى بدقة نيابة عن ليفى سلامة وأصدقائه . وحيث أننى كنت أعرف الهدف جيدا من اللقاء ، فقد اجتهدت وسارت الأمور على ما يرام . كانت

مارسيل امرأة جذابة ، ومن ثم لعبت عليها وبدأت علاقة معها . جذبت كل الخيوط التي أعرفها ، وسرعان ما كسبتها إلى صفى . وقدمتنى لرجل كان يعمل لحساب نفس المجموعة . كان اسمه إيلى كوهين . أبواه من سوريا ، ولذا كان يتحدث العربية بلكنة سورية . وهو يهودى وعضو له مكانته وسط الطائفة اليهودية فى المدينة . أصبحنا صديقين وبدأنا نقضى معا وقتا طويلا . وكان سلامة قريبا منا أيضا . وذات يوم قلت له إننى أريد إخراج مبلغ كبير من أموال الأسرة إلى خارج البلاد . وثبت صواب شكوكى من أن سلامة متورط مع المسؤولين المباشرين عن هذا . إذ تلقف الكرة على الفور ، وأتانى بعروض عديدة رفضتها جميعا بحجة أنها غير جادة . وبالطبع ، كنت أبلغ حسن حسنى بانتظام بكل ما أتوصل إليه من معلومات . حاولت أن أتعقب سلامة لأكتشف قنوات نشاطه وأسلوب عمله . جاهد للتمويه علىّ ، غير أننى فى النهاية ظفرت به . عرفت أن التنظيم يرأسه رجل أعمال إنجليزى من سويسرا ، اسمه جون دارلنج . وتلقيت من حسن حسنى مبلغا كبيرا من المال لأسلمه إلى سلامة . نجحت الخطة ، ووضع حسنى سلامة تحت المراقبة ، وتم القبض على كل المنظمة متلبسة فى مصر . لم يكتشف أحد أمرى وقمت بدور الضحية ، إذ بدوت فى صورة شاب خسر ثروته بسبب سلامة . نجح الغطاء الذى اتخفى تحته ، وتلقيت تعليمات للتأكد من حقيقة إيلى كوهين . أصبحنا صديقين بمرور الوقت . ووثق بى كوهين وائتمننى على الكثير من أسراره .

اكتشفت أنه نشيط جدا فى مناهضة البريطانيين ، وانه يساعد اليهود على الهجرة من مصر إلى إسرائيل . وعرفت أنه عضو نشيط لحساب مجموعة « العالياه بيت » المسؤولة عن تنظيم عمليات الهجرة إلى إسرائيل .

وخلال هذه الفترة كانت المخابرات العسكرية السرية الإسرائيلية « الأمان » قد بدأت تنشط داخل مصر . وكان الكولونيل أفراهام دار على رأس الوحدة الخاصة التى أنشأتها فى مصر للشروع فى سلسلة من الأعمال التخريبية ضد المؤسسات الأجنبية لتبدو الأحداث فى صورة أعمال إرهابية يرتكبها الوطنيون المصريون . وتم تجنيد إيلى ضمن هذه المجموعة . وبناء على أوامر من حسن حسنى عمدت إلى إقناع كوهين بضمى إلى هذه المجموعة أيضا .

وهكذا أصبح دورى الآن أشد خطرا بكثير من السابق ، فها أنذا الآن أتعامل مع قضايا عسكرية وليس مع مواطنين عاديين يقترفون جريمة ما . ثم إن المجموعة التى كنت أتابع حينذاك نشاطها متخفيا لم تكن تتورع عن قتل عدوها . لا أدرى ما الذى حفزنى إلى ذلك ، غير أننى كنت مقتنعا تماما بأنى أعمل كل ما فى وسعى لكى أساعد بلدى . وحضر حسن حسنى بنفسه إلى الاسكندرية لكى يسمع منى معلوماتى . وما أن وصلت إلى النقطة الخاصة باجتماعنا السرى حتى وجدته بصحبة رجل آخر . عرفنا ببعضنا . كان هذا الرجل هو « على غالى » المسؤول فى مصر عن نشاط الجاسوسية والجاسوسية المضادة . وحيث أن مهمتى الآن أصبح لها طابع دولى ، فقد أصبح غالى مسؤولا عنى ، إذ كان حسن حسنى مسؤولا فقط عن القضايا الداخلية . شكرنى حسن على جهودى حتى الآن ، وتركنى مع على غالى وحدنا . قال لى غالى إنه فخور بجهدى حتى الآن ، ويريدنى أن أبقى على العهد وأكون عند حسن الظن . وأخبرنى أن الاستعدادات تجرى لتوسيع نشاط جهاز المخابرات المصرى . وأضاف أننى الآن أصبحت واحدا من عملائه ، ويتوقع منى أن أستمر فى عملى مثلما كنت فى السابق . اختلط علىّ الأمر وإن لم يهن عزمى . وأيقنت أننى انزلقت إلى ميدان الجاسوسية . لم أدرك الفارق . وفى عام ١٩٥٣ كنت ضمن مجموعة كولونيل أفراهام دار ، ومعى إيلى كوهين .

ونظرا لوجود مجموعات مماثلة لهذه المجموعة فى البلدان العربية الأخرى ، فقد أطلق على التنظيم الموجود فى مصر اسم « الوحدة ١٣١ » . كنت ما أزال مرتبطا بمارسيل التى انضمت هى الأخرى إلى المجموعة . وكانت خطة المجموعة حينذاك هى إفساد العلاقات المصرية الأمريكية عن طريق القيام بمجموعة من الأعمال الإرهابية تنفذها « الوحدة ١٣١ » . وتقرر أن توجه جميع الأنشطة ضد المؤسسات الأمريكية فقط ، ويفضل أن تتم أثناء الليل . وأراد رئيسى غالى التريث لمعرفة أكبر قدر من المعلومات حتى يتسنى القبض على أكبر عدد ممكن من أعضاء « الوحدة ١٣١ » . واكتشفت فى هذه الأثناء أن ماكس بينيت ، الشخصية البارزة فى دوائر اليهود المصريين من أعضاء المخابرات العسكرية الإسرائيلية « الأمان » ، وأن بينيت على اتصال كذلك بالوحدة « ١٣١ » وأنه نشيط جدا ، وأن « الوحدة ١٣١ » خططت للعديد

من عمليات تفجيرات القنابل الكبرى فى القاهرة والاسكندرية على أساس أن يتم تنفيذها فى يوليو ١٩٥٤ . أبلغت غالى بكل شىء وبأماكن وجود أعضاء « الوحدة ١٣١ » ليلة الحادث . كانوا قد وضعوا القنابل فى المواقع المحددة لها ولكنها لم تنفجر . وألقى القبض على ١٤ عضوا من أعضاء « الوحدة ١٣١ » . وتم القبض على ماكس بينيت فى بيته . واعتقلونى أيضا حيث كنت مع إيلى كوهين فى نفس الليلة ، ولم يشأ غالى أن تنكشف حقيقتى . كان بينيت صيدا ثمينا . وأحيط أمر اعتقاله بالكتمان . وقد انتحر فى السجن قبل تقديمه للمحاكمة . وحوكم أعضاء « الوحدة ١٣١ » وصدرت ضدهم أحكام مختلفة ، منها الإعدام شنقا لاثنين ، والسجن خمسة عشر عاما لمارسيل وشخص آخر ، وسبع سنوات لاثنين آخرين ، وبراءة الباقين . وأطلق سراحى أنا وإيلى كوهين حيث أننا لم نكن عضوين لهما حيثية تذكر ، ولم يكن هناك ما يديننا . وتلقينا إنذارا بالطرد من البلاد فى حالة وقوع أى اعتداء آخر . وأدى اعتقال ماكس بينيت وتدمير « الوحدة ١٣١ » إلى وضع نهاية مفاجئة لنشاط التجسس والتخريب الإسرائيلى فى مصر خلال تلك الفترة . وأحدثت القضية صدى عميقا فى إسرائيل . وثارت شكوك بأن عضوا من مجموعة أفراهام دار فى إسرائيل هو الذى أفشى للسلطات فى مصر أمر « الوحدة ١٣١ » . واتجهت الشكوك إلى بول فرانك الذى كان خارج البلاد آنذاك . وما أن عاد إلى إسرائيل حتى قبض عليه وأودع السجن لمحاكمته ، وصدر ضده حكم بالسجن اثنى عشر عاما . واستغربت عندما سمعت بذلك فى فترة تالية خاصة وأننى أنا الذى كشفت العملية و « الوحدة ١٣١ » .

عدت إلى الاسكندرية لفترة . واختفى إيلى كوهين ، ولم يكن لدى أى دليل عن مكان وجوده . بلغ الوضع السياسى فى مصر ذروته ، ورأى اليهود أن فرصهم فى مصر تنحسر وتتقلص إلى الصفر . وكما قلت لك فى السابق مرات كثيرة ، فقد أجبروا على ترك البلاد وهاجر أكثرهم إلى إسرائيل .

طلبوا منى العودة إلى القاهرة لكى أقابل على غالى . وحين وصلت لم يشأ الرجل أن يضيع وقتا ، ودخل فى الموضوع مباشرة ، وقال :

– جاك نحن فخورون بك ولكن لسوء الحظ لا نستطيع أن نخبر أى إنسان

بما أسديته لبلدك مثلما أننا لا نريد أن نكشف عن الغطاء المحكم الذى تتخفى وراءه ، ونود أن نستفيد بك أكثر من ذلك فى الخارج .

صدمت وصحت قائلا بأعلى صوتى :

- فى الخارج ، ما هو المطلوب منى هناك ؟

- نفس الشيء الذى فعلته هنا . لقد أديت دورك بامتياز ، وقدمت عملا رائعا . فجاك بيتون لا تحيط به أى شبهات ونود إرسالك إلى الخارج ، حيث يتلقفك ممثلو الوكالة اليهودية ليتفحصوك بدقة ويتحروا عنك . وسوف يتبين لهم أنك على ما يرام . والأهم من ذلك أنهم سيعرفون أنك من أعضاء « الوحدة ١٣١ » مما يجعلك تتلألأ بين صفوفهم . وتستطيع بمساعدتهم أن تغير اتجاهك إلى إسرائيل عن طريق إيطاليا ، ومن هناك يمكنك أن تزودنا بمعلومات قيمة . تذكر ما فعلناه من أجلك ، وأنت لا تزال بشكل أو بآخر مدين لنا . فما رأيك ؟

مرة أخرى وجدت نفسى أقف عند نقطة تحول خطيرة فى حياتى . لم أكن أتصور أننى ما أزال مدينا لهم ، ولكن الأمر كان شديد الحساسية عندما يتعلق بجهاز المخابرات . فمن ناحية روعتنى فكرة الذهاب إلى قلب عرين الأسد . فليس ثمة مكان للاختباء فى إسرائيل ، وإذا قبض علىّ هناك فسوف يسدل الستار علىّ نهائيا . والمعروف أن إسرائيل لا تضيع وقتا مع العملاء الأجانب . يستجوبونهم ثم يقتلونهم . ولست مشوقا إلى ذلك . ولكنى كنت أصبحت راسخ القدمين فى الدور الذى تقمصته ، كما لو كنت أمثل دورا فى السينما ، وكنت قد أحببت قيامى بدور جاك بيتون . أحببت اللعبة ، والفارق الوحيد هذه المرة هو أن المسرح الذى سأؤدى عليه دورى هو العالم باتساعه ، وموضوع الرواية هو الجاسوسية الدولية . وقلت فى نفسى أى عرض مسرحى مذهل هذا . لقد اعتدت دائما وبصورة ما أن أكون مغامرا مقامرا ، وأحببت مذاق المخاطرة . وتدبرت أمرى فى إطار هذه الأفكار ، وتبين لى أن لا خيار أمامى . سوف أؤدى أفضل أدوار حياتى لأواجه خيارين فى نهاية المطاف : إما أن يقبض علىّ واستجوب وأشنق ، أو أن أنجح فى أداء الدور واستحق عليه جائزة أوسكار . وكنت مقتنعا أيضا بأنى أعمل الصواب من أجل مصر وشعبها .

قلت لغالى :

- إذا كنت تعتقد أننى قادر على أداء المهمة فإنى لها .

ثم كان السؤال الثانى :

- كيف نبدأ من هنا ؟

- سوف يجرى تدريبك على العمل على الساحة الدولية . كل ما تتعلمه يجب أن يسرى فى دمك . هذا هو سر اللعبة . أنت مخرج عرضك المسرحى ، وإما أن تنجح فيه بصورة كاملة ، أو تواجه الهلاك .

تصافحنا علامة الموافقة وبدأت جولة تدريب مكثف . ودرست تاريخ اليهود الأوروبيين والصهيونية وموجات الهجرة إلى فلسطين . تعلمت كل شىء عن الأحزاب السياسية فى إسرائيل والنقابات و « الهستدروت » أو اتحاد العمال ، والاقتصاد والجغرافيا والطوبوغرافيا وتركيب إسرائيل . وأصبحت خبيرا بأبرز شخصيات إسرائيل فى السياسة والجيش والاقتصاد عن طريق دراسة أفلام نشرات الأخبار الأسبوعية . وأعقب هذا تدريب على القتال فى حالات الاشتباك المتلاحم والكر والفر ، والتصوير بآلات تصوير دقيقة جدا ، وتحميض الأفلام وحل شفرات رسائل أجهزة الاستخبارات والكتابة بالحبر السرى ، ودراسة سريعة عن تشغيل الراديو ، وفروع وأنماط أجهزة المخابرات والرتب والشارات العسكرية . وكذلك الأسلحة الصغيرة وصناعة القنابل والقنابل الموقوتة . وانصب اهتمام كبير على تعلم الديانة الموسوية واللغة العبرية . واعتدت أن استمع كل يوم ولمدة ساعات إلى راديو إسرائيل . بل وعمدت إلى تعميق لهجتى المصرية فى نطق العبرية لأننى فى نهاية الأمر مولود فى مصر .

بعد التدريب تحددت لى مهنة . تقرر أن أكون وكيل مكتب سفريات حيث أن هذا سيسمح لى بالدخول إلى إسرائيل والخروج منها بسهولة ، وتقرر أن أؤدى اللعبة لأطول مدة ممكنة . لم يكن ثمة حد زمنى ، وكان لى الخيار بأن أترك الأمر كله إذا سارت الأمور فى طريق خطر . وسوف نرى إلى أين



● جاك بيتون
فى سن التاسعة والعشرين .

تمضى بنا الأمور . وقيل لى أننى أستطيع بعد ذلك العودة إلى مصر واستعيد شخصيتى الحقيقية . وتسلمت مبلغ ٣٠٠٠ دولار أمريكى لأبدأ عملى وحياتى فى إسرائيل . وفى يونيو ١٩٥٦ استقليت سفينة متجهة إلى نابولى قاصدا فى الأصل إلى أرض الميعاد . ودعت مصر دون أن أدرى ما سوف يأتى به المستقبل .

□ □ □

كم هو غريب أن أتذكر ماضىّ . انقضى الآن أسبوعان وأنا أحاول ذلك جاهدا ، مما استنفد قدرا كبيرا من عافيتى . أحس بالبرودة تسرى فى جسدى وأكاد أشعر كيف ينهشنى المرض من الداخل . ولكن يجب أن أمضى قدما فيما عزمت عليه . فلا يزال هناك الكثير مما يتعين علىّ أن أقوله . وأتساءل فى نفسى ترى ماذا تقولين وفيما تفكرين وأنت تقرأين هذا الكلام . ربما كنت غاضبة أشد الغضب منى الآن ، بيد أننى فعلت ما كان لزاما علىّ أن أفعله .

كنت مكرها من ناحية على أن أعيش هذه الحياة ، وأحببتها من ناحية أخرى لأنها عرض مسرحى مثير .

تحدثت إلى دانييل طويلا اليوم . انه يعرف أننى سأموت . لم يقل ذلك غير أننى أدركت من عينيه أنه يعرف . لقد نضج كثيرا خلال الأسابيع الماضية . أعرف أن الأمر قاس عليه غير أنه يواجه الوضع على نحو جيد . أكره أن أحمله المسؤولية منذ الآن ، ولكن ليس أمامى خيار آخر . لقد حم القضاء وسوف أقضى عاجلا ومن ثم عليه أن يتدبر أمره . وأنى على ثقة من أنه سيحسن التصرف .

أعرف أنك تواجهين وقتا عصيبا فى الشركة ، ولا تريدين التحدث إلىّ فى هذا الشأن . افعلى ما ترينه صوابا . لا تثقى فى أى إنسان آخر . جميع المشاركين لا يعنيهم غير ملء جيوبهم بالمال . حافظى عليها فإنك تقومين بعمل بارع . إن مرضى يستفحل ويسوء يوما بعد يوم والألم يزداد حدة مع كل لحظة . أتمنى لو زايلنى ولو لساعة أو ساعتين على الأقل ، كم يكون جميلا لو حدث هذا ، إذ أستطيع أن أستريح لفترة قصيرة . أجد لزاما علىّ أن أمضى فيما اعتزمت أن أفضى به إليك قبل أن يقضى الأمر ويحين أجلى .

□ □ □

استغرقت رحلة السفينة من مصر إلى نابولى ثلاثة أيام . كان أمامى وقت طويل لكى أقتله . ولم يكن لدىّ شىء أفعله على متن السفينة ، لذا حاولت أن أتخيل ما ينتظرنى فى إسرائيل . تساءلت فى نفسى عما إذا كانوا سيدعوننى أدخل إسرائيل ، وإلى أى مدى ستدقق المخابرات الإسرائيلية فى أمرى . كان غالى قد أخبرنى أن الوكالة اليهودية لن تمهلنى طويلا قبل أن تتحرى عنى . وكان على صواب . فقبل وصولى إلى نابولى بيوم واحد وقفت على ظهر السفينة أتطلع إلى البحر غارقا فى أفكارى ، وسمعت صوتا ورائى :

- أدون جاك بيتون ؟

تلفت حولى ووجدتنى قبالة رجلين يبدو أنهما أوروبيان تماما .

قال الرجل الواقف إلى اليمين :

- أنا برونو شتينبرج ، وهذا هو روبرت جيزيل .

قلت لهما :

- طالما أنكما تعرفان اسمى ، فهل لى أن أسألكما ماذا يمكن لى أن أفعله من أجلكما ؟

- لا ، لا يوجد ما تستطيع أن تقدمه لنا بل ما الذى نستطيع نحن أن نقدمه لك . نحن من الوكالة اليهودية ونرحب بك فى نابولى ، ونحن هنا لمساعدتك فى كل ما تحتاج إليه ؟

وكانت إجابتى :

- معى كل ما أحتاج إليه ، شكرا .

وكان سؤالهما الثانى :

- هل لنا أن نسألك عما تعتزم عمله الآن ، وإلى أين تريد أن تذهب من هنا ؟

- لا أدرى بعد ، غير أننى أريد التوجه إلى فرنسا حيث أن لى أسرة هناك .

- ألم تفكر فى التوجه إلى إسرائيل ؟

أجبت بالسؤال التالى :

- وما حاجتى للذهاب إلى هناك ؟

كنت قد عرفت من على غالى أن الوكالة اليهودية ستحاول الاتصال بى . لقد سمعوا عنى وعرفونى مثلما عرفوا « الوحدة ١٣١ » ويريدون منى الذهاب إلى إسرائيل حيث يمكن أن تفيد الدولة من أمثالى . كنت شابا ذكيا نشيطا وأبديت رغبتى فى مساعدة إسرائيل . أو هكذا بدوت على الأقل فى نظرهم . وعرفت أن علىّ أن أبذل جهدا مضنيا لأنجح فيما أنا بصدده ولا تتكشف حقيقة نواياى . ها هما لا يريدان منى أن أمضى إلى حال سبيلى ، ويريدان إقناعى بالتوجه

إلى إسرائيل . قلت لهما إننى بحاجة إلى أن أفكر فى هذا وسوف أخبرهما . وما أن وصلت إلى نابولى حتى اصطحبنى شتينبرج وجيزيل إلى أحد الفنادق حيث كانا قد أعدا لى غرفة دفعا تكاليفها . شعرت فى داخلى برغبة فى الضحك لأمر هذين المهرجين . لو أنهما يعرفانِ حقا ما أنا عازم عليه لتخلصا منى فورا . ولكنهما لا يعرفان شيئا . تركانى وشأنى ليلا حيث ذهبت لأنام مبكرا . وعادا فى صباح اليوم التالى ، وقررت أن اللحظة المناسبة قد حانت لأدعهما « يلحان علىّ ويقنعانى » بالذهاب إلى إسرائيل . سأدعهما يبذلان معى جهدا كبيرا ثم أوافق فى النهاية على الذهاب إلى إسرائيل . وأحسا بالسعادة والرضا عندما نجحا فى مهمتهما بكفاءة . وحجزا لى تذكرة مدفوعة الثمن للسفر بحرا إلى إسرائيل على أول سفينة متجهة إلى هناك . وقبيل الرحيل قالا لى ان هناك من سيستقبلنى وكل شىء سيسير فى مجراه . ووقفت على ظهر السفينة التى ستنقلنى إلى وجهتى الجديدة وبإحساس متبلد .

وحل يوم الوصول إلى أرض الميعاد . قابلنى موظف من الجمارك كان ودودا معى وساعدنى على إنجاز جميع الإجراءات الرسمية . وحيث أننى رجل أعمال ، فقد كانت لى حرية اختيار مكان الإقامة . واخترت تل أبيب حيث كانت العاصمة وقتذاك . وتم حصر ما معى من نقود أجنبية وتسجيلها ، ثم أصبحت طليقا أذهب حيث أشاء . تمشيت عبر الميناء ، وتعجبت لماذا سارت الأمور هكذا فى سلاسة . ربما كانوا على علم مسبق بقدومى وأرادوا فقط أن أشعر بالاطمئنان قبل أن يتدخلوا . كانت هذه الأفكار تدور فى رأسى بينما أسير متجولا باحثا عن سيارة أجرة .

– ترى أقول أدون جاك بيتون ، أم أقول أدون ديفيد آرونسون ؟

رأيت فى مواجهتى رجلا ضخم الجثة فى ملابس مدنية . ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وبدا لحيما أو شحيما . ومع هذا كان وجهه ودودا ، وعرفت أن وقت التحرى عنى قد بدأ .

وأجبت قائلا :

– لا أعرف عن أى شىء تتحدث ؟

– أنا سام شواب ، وقد أسلونى لتحيتك فى إسرائيل ومساعدتك فى أى شىء قد تحتاج إليه . نحن نعرف أنك عضو فى « الوحدة ١٣١ » وأنه لشرف لى أن أقابلك . نحمد الله أن نجحت فى الخروج من مصر . أهلا بك فى وطنك يا أدون جاك بيتون .

وحمل عنى حقيبتى وتقدمنى فى السير . ودون أن أعرف من هو هذا الرجل سرت وراءه . توقف أمام سيارة ووضع أمتعتى داخلها وطلب منى أن أركب . خمن الرجل أننى عازم على الذهاب إلى تل أبيب ومن ثم سيصحبنى إلى هناك وينزلنى فى أحد الفنادق . ورأى أن يصحبنى فى جولة داخل المدينة ويساعدنى على أن أبدأ حياتى فى بلدى ووطنى الجديد . وبينما كانت السيارة تمضى بنا على الطريق أمطرنى بوابل من الأسئلة . ووضح لى أنه من جهاز المخابرات ويعمد إلى سبر أغوارى .

سألنى :

– قل لى يا جاك أى مهنة تريد أن تعمل بها هنا ؟

رددت عليه بسؤال آخر :

– لمـاذا ؟

– لأننى أريد أن أعرف نوع المهنة التى أثبتها فى جواز سفرك الجديد .

وكانت إجابتى :

– معى جواز سفر ، ولست بحاجة إلى غيره .

– إننى أتحدث عن جواز سفرك الإسرائيلى يا جاك . أنت فى وطنك الآن ، وسوف تتسلم جميع الوثائق اللازمة لك باسم البلد الذى تنتمى إليه الآن(*) .

أجبت مبتسما :

– وكيل سفريات .

(*) صورة جواز السفر الإسرائيلى فى الجزء الخاص بالوثائق فى آخر الكتاب ص (٢٣٢) .

أحسست فى داخلى بهجة ، وهنأت نفسى . فقبل وقت غير بعيد كنت أخشى القبض علىّ ، ولكن ها هى الترتيبات يتم إنجازها الآن للحصول على جواز سفر إسرائيلى . إذن لقد اجتزت الامتحان .

هيأ لى سام شواب غرفة فى فندق أنيق واصطحبنى فى جولة داخل المدينة . أفادنى كثيرا . إذ حصلت بفضل مساعدته على شقة مؤثثة فى تل أبيب بعد أسبوع من وصولى . وأشار علىّ باسم محام أنجز لى جميع الترتيبات الضرورية للشروع فى عملى ، كما جمعنى مع الدكتور وايز الذى وافق على أن نكون شركاء فى العمل . كان الدكتور وايز مقيما فى إسرائيل منذ النشأة الأولى . وبفضله سار عملنا منذ البداية سيرا حسنا . كان يكبرنى بعشر سنوات ، رقيق الحاشية ، ذكى واسع الإطلاع ، له كثير من الاتصالات المفيدة . وعثرنا على مكان لمكتب السفريات الذى أقمناه فى شارع بريرنر رقم ٢ وسط المدينة فى تل أبيب وكان اسمه « سى تورز » . واستأجرنا سكرتيرة ، امرأة متزوجة كبيرة السن . وكان من المهم لى جدا أنها متزوجة ، إذ تعلمت أثناء تدريبى مدى خطر الوقوع فى حب امرأة موجودة فى محيط عملك طوال اليوم . وشرعت فى إجراء اتصالاتى والتعرف على الناس .

أفادنى سام شواب فى هذا كثيرا جدا ، إذ قدمنى للكثيرين من العاملين لحساب الحكومة وتعارفنا . وذات مساء خرجنا سويا وعرفنى بموشى ديان . وشعرت بنشوة غامرة لهذا . ذلك أن ديان شخصية هامة جدا ، ولأنى أدركت أنه بمرور الوقت سوف أستطيع الحصول على كم هائل من المعلومات عن طريقه . بدأت أبدى اهتماما بسياسة إسرائيل . أعجب ديان باهتمامى هذا ورغب فى تعليمى الكثير . وعرفت من خلال شواب مختلف أجهزة المخابرات ومجالات نشاطها . هناك جهاز الشين بيت الخاص بالأمن الداخلى حيث يعمل شواب ، وجهاز الموساد وجهاز الأمان . أرسلت بطاقات ورسائل إلى « أسرتى » فى فرنسا . تسلمها رؤسائى وحلوا رموزها الشفرية . لم يكن قد تجمع لدى بعد الكثير من المعلومات التى أفيدهم بها ، بيد أننى كنت على يقين من أننى سأكتشف الكثير بمرور الوقت . وعن طريق ديان قابلت عزرا وايزمان ، وهو أيضا من كبار الشخصيات داخل الجيش فضلا عن أنه كان قائدا



● أندريا أمام مكتب السياحة « سى تورز » المملوك لجاك بيتون فى تل أبيب ، ٢ شارع برينر .

متميزا للطائرات المقاتلة . اعتدنا أن نقضى وقتا طويلا سويا . كنا نذهب معا إلى النادى ، أو إلى البار ليلا . وأقمنا معا صداقة جيدة ووثيقة .

وذات مساء ونحن فى النادى عرفنى سام شواب بامرأة جذابة اسمها راكيل ابشتين . وبدا واضحا أنه يحاول سبر أغوارى أكثر عن طريقها . تصور أن بإمكانى أن أقع فى حبائل امرأة وأحكى لها كل شىء . عرفت نواياه والتزمت بقواعد اللعبة . كانت راكيل فاتنة وتعمل مدرسة ، نشأت فى ألمانيا وعلمتنى الكثير من اللغة الألمانية . وحرصت على ألا تحصل منى على شىء تفيد به شواب . وعندما اطمأن منها وثق هو بى وتأكد من أننى يهودى وإسرائيلى حقًّا . وعرضت عليه استعدادى لأن أعد جميع الترتيبات اللازمة لسفر زملائه إذا ما أرادوا السفر عن طريق مكتب السفريات الخاص بى .

ومن هنا حصلت على حجم عمل كبير من موظفى الحكومة . قمت لهم بأعمال شراء التذاكر والحجز ... الخ ، وبدأت تنهال علىّ بانتظام الدعوات لحضور الحفلات أو لتناول العشاء حتى يكسبونى إلى صفهم ويضمنوا الحصول

على التخفيضات والخدمات اللازمة . وأفادني هذا كله فائدة جمة . إذ حصلت عن طريقه على معلومات كثيرة استطعت أن أبلغها إلى رؤسائي بالشفرة . وتسلمت فى هذه الأثناء جواز سفر إسرائيليا ، وجميع الوثائق الأخرى التى تجعل منى مواطنا مستوفيا لجميع الشروط القانونية .

وحان الوقت لأول رحلة عمل رسمية أقوم بها خارج إسرائيل . سافرت فى أكتوبر ١٩٥٦ إلى روما للتفاوض بشأن سفر مجموعة من السياح إلى إسرائيل . وبعد يومين والعديد من الإجراءات الاحترازية لتضليل أى عناصر يحتمل أن تتعقبنى ، سافرت إلى ميلانو حيث التقيت برئيسى المباشر ، وهو المسؤول عن فريق المخابرات المصرية العامل فى وسط أوروبا ، حيث أبلغته أن إسرائيل عقدت اتفاقا سريا مع فرنسا حصلت بموجبه على أسلحة ثقيلة ومعدات عسكرية . وبعد أن قدمت له تقريرا كاملا سافرت إلى فرنسا حيث بقيت بضعة أيام لكى أقابل - حسب التصور الرسمى - أسرتى . وعدت إلى إسرائيل بعد غيبة ثمانية أيام . ومضى الوقت دون تطورات تذكر والشىء الهام الوحيد الذى استطعت أن أكتشفه هو أن إسرائيل كانت تجرى مفاوضات مع فرنسا للحصول على مزيد من الأسلحة . إذ كانت فرنسا مهتمة بأن تكون لها سيطرة على قناة السويس ، كما أن إسرائيل لم تكن تطمئن إلى عبد الناصر ، وكانت تبحث مع فرنسا كيفية فرض العزلة عليه أو حتى الإطاحة به . وأعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس وهنا ثارت ثائرة العالم الغربى . وجرت مفاوضات ، ولكنه رفض أى مساومة .

خلال هذه الفترة حصرت اهتمامى لكسب ثقة موشى ديان وعزرا وايزمان وسام شواب . أحسست أن ثمة شيئا هاما يوشك أن يحدث . وعن طريق ديان قابلت جولدا مائير وبن جوريون . أظهرا كلاهما ودًا شديدًا نحوى ، وسرعان ما تعاملا معى مثل ديان . وأفادنى هذا فى مهمتى فائدة كبيرة للغاية . وقد حرصت أشد الحرص على أن أكسب أى موقع فى الصدارة يمكن الوصول إليه . كنت حذرا غاية الحذر ، ومن ثم قضيت أطول وقت ممكن مع ديان وشواب . واكتشفت أن إسرائيل تخطط لعملية عسكرية خاصة بشبه جزيرة سيناء أعطتها

الاسم الشفرى « قادش » ، بهدف تدمير وإضعاف القوة العسكرية المصرية قدر المستطاع . وفى هذه الأثناء كانت مصر تتفاوض مع سوريا والأردن ظنا منهم أنه إذا ما وقع هجوم إسرائيلى فسوف يكون ضد الأردن . وفى اللحظة التى عرفت فيها أمر الخطة رتبت أمورى لمغادرة إسرائيل وإبلاغ رئيسى أن إسرائيل تخطط فعلا لتوجيه ضربة إلى مصر . وهكذا عدت مرة ثانية إلى روما ، واتخذت الخطوات اللازمة لتأمين نفسى ، وسافرت إلى ميلانو لمقابلة رئيسى . فوجىء بى حين رآنى ، ولكن بعد أخذ ورد وافق على أن يستمع لى . لم يصدقنى ، وقال إن إسرائيل ستوجه الضربة إلى الأردن ، وأن جميع الدلائل تشير إلى هذا الإتجاه . استبد بى الضيق ورجوته أن يصدقنى . وأكدت له أن إسرائيل ستعطى لفرنسا المبرر للتدخل ، ومن ثم تستطيع فرنسا أن تسيطر على قناة السويس . وبعد مناقشات طويلة أخذ كلامى مأخذا جادا ، وقال لى إنه سيسافر إلى القاهرة فورا ويبلغهم بمعلوماتى التى توصلت إليها .

عدت إلى إسرائيل وعرفت أنباء الحرب من هناك . ولست أدرى لماذا لم تأخذ مصر تحذيرى بصورة جدية . لا بد وأنهم لم يصدقونى ووقع المقدور . أحسست بالصدمة . لماذا صموا آذانهم عن كلامى ؟ كان عبد الناصر يستطيع على الأقل أن يرد الرد المناسب فى وقت مبكر . ومع ذلك وكما يقول التاريخ فقد حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسى . ومنذ ذلك الوقت هدأت الحال ، ولم يكن عندى غير عملى الروتينى ، وهو إرسال تقارير عادية إلى رئيسى .

ومضت الأيام بصورة طبيعية إلى أن جاء فجأة فى مكتبى فى أكتوبر ١٩٥٧ زائر لم أكن أتوقعه . إنه إيلى كوهين . صحبته إلى المقهى محاولا أن استكشف منه ما إذا كان يعرف أى شىء عن حقيقة عملى فى إسرائيل . وتبين لى أنه لا يعرف شيئا وأنه لا يزال يصدق أننى يهودى . تحدثنا طويلا ، وحكى لى كل ما فعله خلال الفترة الماضية التى لم نلتق خلالها . وقال لى أيضا انه حصل على وظيفة فى وزارة الدفاع ، وعينوه فى إدارة التجسس فى القطاع العربى . قلت فى نفسى على الفور ها هو مصدر معلومات آخر جيد دون أن يعرف . وقررت أن يكون هناك اتصال منتظم بينى وبين إيلى كوهين . ذلك أن وظيفته الجديدة مهمة جدا بالنسبة لى . واعتدت أنا وإيلى أن نقضى أوقاتا

كثيرة سويا . وقدمته إلى سام شواب الذى كان لا يزال يعمل فى الشين بيت ، جهاز المخابرات الداخلية ، ويعتبر إلى حد ما زميلا لإيلى كوهين . وخالجنى شعور بأنهما يعرفان بعضهما من قبل ، غير أننى كتمت هذا الشعور فى داخلى .

وفى مايو ١٩٥٨ وقع الاختيار على مكتبى السياحى لإقامة جسر للنقل الجوى من بيروت إلى إسرائيل . كانت إسرائيل قد قررت إخراج اليهود اللبنانيين من لبنان . ومن ثم عمدت إلى الاتفاق معى لتنظيم رحلات جوية من بيروت إلى إسرائيل . وقررت أنا وشريكى تنظيم العملية بالاتفاق مع شركتى طيران لوفتهانزا الألمانية ، وشركة طيران أوليمبيك اليونانية . وواتتنى الفرصة مرة أخرى لمغادرة البلاد رسميا . ذهبت ثانية إلى روما لمناقشة مسائل العمل مع الوكالة اليهودية فيما يختص بعمليات النقل من لبنان . وذهبت كما هى العادة من هناك إلى ميلانو . ونظرا لأنه لم تعد هناك أحداث كثيرة فى إسرائيل ، فقد قررت أن أبحث إمكانية ترك هذه المهمة المنوطة بى والعودة إلى مصر .

وفى ميلانو لم تمض الأمور فى لقائى على النحو الذى خططت له . إذ بعد أن أبلغت رئيسى عن رغبتى فى ترك عملى قال لى كلاما ساءنى . قال لى إننى عملت بنجاح فى إسرائيل على مدى ثلاث سنوات ، وأننى خلال هذه الفترة أقمت علاقات قيمة جدا بالنسبة لهم . وإذا ما أرسلوا بديلا فلن يكون مثلى ، إذ لن يستطيع أن يصل إلى الوضع الذى بلغته ، لأنه سيحتاج إلى وقت أطول لكى يقيم علاقات مثل علاقاتى ، ويحتل وضعا مماثلا للوضع الذى أنا فيه الآن . وأهم من ذلك أن علاقاتى واتصالاتى بالمستويات العليا تحول دون تحقيق رغبتى فى ترك عملى . ذلك أننى أصبحت معروفا جدا ، ومن ثم ، فإننى إذا رحلت فسوف تكتشف الموساد أمرى إن آجلا أو عاجلا . وقال إن المخابرات المصرية ليست بدورها على استعداد لأن تتركنى أمضى إلى حال سبيلى . لقد استثمروا أموالهم وخبراتهم فى تدريبى وليسوا على استعداد للتخلى عنى . وإننى واحد من رموزهم الكبيرة فى خارج مصر ، فضلا عن أننى نجحت فى أن اندمج جيدا داخل إسرائيل ومن ثم فإن استمرار بقائى داخل

إسرائيل له أهمية قصوى . وأضاف إن الشيء الوحيد الذى يمكن تدبيره لى هو إحضارى إلى القاهرة لبضعة أيام وفقا لإجراءات أمنية مشددة حتى أستطيع أن أزور أختى وأبناءها . قلت فى نفسى هذا أفضل من لا شيء . وغادرت المكتب لأشترى بعض الهدايا لنزيهة وأولادها . وجعل هذا مزاجى أحسن قليلا .

عدت إلى روما فى اليوم التالى . واستقبلنى هناك مسؤول الاتصالات وسلمنى جواز سفر باسم أنور طالب ، وجعلنى أتنكر بحيث أطابق الصورة الواردة به . هبطت فى القاهرة بعد ثلاث ساعات . واستشعرت غرابة لعودتى . استقبلنى ضابط من مركز القيادة ، واصطحبنى إلى شقة فى مصر الجديدة بالقاهرة وجدت فيها على غالى ، حيث بادرنى قائلا :

– كيف حالك يا رفعت ؟

– يعنى ، كيف سأكون ؟ أعتقد ألاّ بأس ، غير أننى غير مبتهج لأنى سأضطر للعودة لإسرائيل

– نحن فخورون بك ، ولن نتركك . لقد أصبحت ثروة بالنسبة لنا . تذكر أنك تقوم بالمهمة لأجل بلدك . على أية حال أنا لم أحضر هنا لمناقشة ذلك . لديك أوامر ونتوقع الالتزام بها ، جئت فقط لأراك الآن . وغدا يمكنك أن ترى نزيهة وأسرتك . لك أن تقول لهم إنك تعمل مع المكتب الخارجى فى أوروبا . أذكر اسم أى مكان فى أسبانيا ، البرتغال ، بلجيكا ، أى اسم من هذه البلدان أو أذكرها جميعا . المهم ألاّ تذكر اسم أى مكان من الأماكن الحقيقية . وبعد غد سوف تغادر القاهرة إلى إسرائيل عن طريق فرنسا وإيطاليا . أنت حر الآن لتفعل ما تشاء اليوم وغدا . سأنصرف الآن . تعرف طريقة الوصول إلى الضابط الذى أحضرك إلى هنا فى حالة ما إذا احتجت إلى أى شيء . وسوف يصحبك هو أيضا إلى المطار ليودعك . وداعا الآن يا رفعت . كن حذرا والله معك .

أصبحت وحدى فى الشقة . تخلصت من مستلزمات التنكر ، واستحممت ثم ذهبت لأنام . كنت متعبا بحيث لم أستطع عمل أى شيء . وذهبت فى اليوم

التالى لرؤية نزيهة وأبنائها . كم كان جميلا أن أراهم ثانية . لقد كبر الأطفال ، أما نزيهة فكانت لا تزال كما هى ، هذا فضلا عن أن زوجها كان سعيدا لرؤيتى . فقد أصبحت إنسانا ناجحا الآن ، وعلى الرغم من أنه لا يعرف حقيقة عملى بالضبط إلا أنه أدرك أنه عمل هام من أجل الحكومة . قضينا معا ليلة رائعة ثم تركتهم آسفا . وتجولت بقية اليوم فى أنحاء القاهرة . جميل أن أسير دون أن أنظر خلفى طوال الوقت حذر المراقبة . مضى النهار والمساء سراعا وحضر فى صباح اليوم التالى الضابط المختص واصطحبنى إلى المطار بعد أن أجريت لوازم التنكر . وصلت إلى إسرائيل ثانية باسم جاك بيتون عن طريق باريس وروما . كان من المفروض رسميا أننى كنتِ فى نيس ومونت كارلو وجنوه . وكنت قبل سفرى إلى مصر قد كتبت عدة بطاقات تم إرسالها من هذه المدن لتأكيد عملية التخفى بصورة ملائمة لا تثير الشكوك .

ركزت اهتمامى على صفقة الجسر الجوى الخاص بلبنان وسارت الأمور سيرا حسنا . حققنا مكاسب كبيرة ومضت العملية فى سلاسة ويسر . مرت الأيام حتى أصبحنا فى صيف ١٩٥٩ وليس لى عمل سوى إرسال الرسائل الروتينية لإعلامهم بما يجرى . ثم التقيت بإيلى كوهين حيث أخبرنى بأنه ترك عمله فى المخابرات لأن العمل المكتبى لا يرضيه . وأنه خطط للزواج ، ومن ثم أعددت له ولزوجته رحلة إلى إيلات هدية منى بمناسبة الزواج . وركزنا فى العمل أكثر وأكثر على سفريات الوزارات والهيئات الحكومية . وأفادنى هذا كثيرا إذ تمكنت بفضله من أن أبقى وسط ساحة النشاط ، وأحصل بانتظام على معلومات عن مجريات الأحداث . وكثفت اتصالاتى بكل من ديان ووايزمان وشواب . ونظرا لصلة ديان الوثيقة ببن جوريون ، فقد استطعت أن أكسب ثقة بن جوريون أيضا . وأصبحت عضوا فى مجموعة الشباب المحيطين به . إذ كان يحب أن يحيط به الشباب ويستمع لآرائهم وأفكارهم . أما جولدا مائير فكانت تتميز بأنها امرأة عطوف ، وأبدت ودا شديدا نحوى ، وكثيرا ما تساءلت بينى وبين نفسى ماذا عساهم أن يقولوا عنى لو اكتشفوا حقيقتى وعرفوا أنى استخدمتهم .

كان الموضوع الهام الذى استطعت أن أبلغه إلى ميلانو هو أن إسرائيل

تبنى مفاعلا نوويا . كان واضحا أنهم أجروا تجارب لإنتاج أسلحة نووية . وسرعان ما شاع الأمر غير أن إسرائيل أنكرت اعتزامها إنتاج أى أسلحة ذرية . وعمدت إلى عكس الموضوع وإتهام مصر بإجراء تجارب على الكوبالت ، وإن كان بمقادير ضئيلة جدا لم تسبب تفاعلا ضخما . وتصاعد الضغط الدولى ضد إسرائيل . ومن ثم أرجأت فكرة إجراء تجارب على الأسلحة الذرية ، ومن ثم إقامة المفاعل النووى . واستطعت علاوة على هذا ، أن أبلغ رؤسائى بأن ألمانيا تدرب العسكريين الإسرائيليين على استخدام أسلحة ذات مستوى تكنولوجى راق . وحدث فى تلك الأثناء أن تم القبض على عملاء كثيرين من الجانبين . وكلما وقعت مثل هذه الأحداث تملكنى إحساس مزعج . وللمرة الثانية قررت أن أفاتح رئيسى فى ترك العمل خاصة وأنه لم يكن هناك شىء بالغ الأهمية يجرى على الساحة . اتخذت الاحتياطات اللازمة وسافرت فى يونيو ١٩٦٣ إلى ميلانو عبر القنوات العادية . وحققت هذه المرة قدرا قليلا من النجاح على عكس ما حدث فى السابق .

قيل لى إن بإمكانى أن أترك مهمتى شريطة أن ننجز هذا تدريجيا . فليس بإمكانى أن أغادر إسرائيل وأعود إلى مصر هكذا ببساطة . وإنما يتعين علّى أن أبقى باسم جاك بيتون خلال الفترة الحالية ، وانسحب إلى بلد آخر يفضل أن يكون أوروبيا . وقالوا إن العودة إلى مصر مسألة فى غاية الخطورة إذ ستعثر علّى الموساد وستكون فى هذا نهايتى . حاولت أن أجادل فى هذا ، غير أن رئيسى أوضح لى أنهم لن يعيدوا إلّى هويتى الحقيقية لما يمثله هذا من خطر شديد . وحيث أننى ذكرت أن أحد الأسباب التى تحفزنى إلى ترك العمل رغبتى فى الزواج ، فقد أخبرونى بأنه لا يمكن لى تحت أى ظرف من الظروف أن أتزوج بامرأة إسرائيلية ، أو بامرأة من أصل عربى فى إسرائيل . إذ أن هذا يعنى إضافة عامل آخر من عوامل الخطر . وقالوا لى إن كل ما يمكن أن أعمله هو أن أحيا فى بلد ثالث غير إسرائيل أو مصر باسم جاك بيتون ، فربما تفقد الموساد الاهتمام بى بعد فترة من الزمن . وبعد هذا يمكننى العودة إلى مصر .

أدركت أن رئيسى على حق ، إما أن أواصل أو اتجه إلى بلد ثالث غير

مشارك فيما يجرى من أحداث . تركته بعد أن اتفقت معه على أن أواصل عملى إلى أن اهتدى إلى مخرج من وضعى الراهن ، وبحث فكرة الارتباط بامرأة من أحد البلدان الأوروبية لكى أبدأ الحياة فى بلد آخر . وقلت لنفسى انهم على أقل تقدير فهموا منى هذه المرة أننى أريد أن أترك العمل ، وسوف يستجيبون لى . وعدت إلى تل أبيب وهذه الأفكار تدور فى رأسى . وشرعت فى الإعداد لكى أهجر عرين الأسد شيئا فشيئا . وبدأت سلسلة من الأسفار إلى جميع أنحاء أوروبا . وشاركت فى صفقات تجارية بغية جمع قدر من المال ، وأيضا للبحث ، من ناحية أخرى ، عن امرأة أتزوج بها .

٦

العـودة لمصر .. لـكن ؟!

وفى أكتوبر ١٩٦٣ سافرت إلى ألمانيا وزرت صديقى القديم هورست سومر الذى سبق لى أن قمت معه ببعض الأعمال فى مناسبات مختلفة . وأفضى إلىّ بأنه سيخرج فى المساء مع صديقته هيلجا ، وقال إن بإمكانها أن تحضر معها إحدى صديقاتها . وافقت ، وحيث أننى كنت أعرف أن هورست حسن الذوق ، فقد توقعت أن ألتقى بسيدتين جذابتين جدا . وبالفعل كانت الفتاتان من عالم آخر . كانت صديقة هورست حسناء ، أما أنت يا فالتراود فكل ما أستطيع قوله عنك أنى وجدتك رائعة إلى حد لا يصدق . وقعت فى غرامك منذ اللحظة الأولى التى وقعت فيها عينى عليك . أذكر أول لقاء لنا وكأنه حدث بالأمس فقط . ذهبنا معا إلى فندق فرانكفورتر هوف لتناول العشاء ولم أرفع عينى عنك . قصصت علىّ الكثير عن نفسك أثناء حديثنا ، وفى هذه الأثناء قررت أنك أنت ضالتى المنشودة . لم أشعر بأى غضاضة لأنك كنت متزوجة قبل ذلك أو لأن لك ابنة من هذه الزيجة . كنت سعيدا غاية السعادة بك . نعم ، عزمت على الزواج بك بيد أننى لم أتوقع أن يتم هذا سريعا ، ولم أحلم يقينا أننى سأحبك بمثل هذا القدر . لاحظت فى تلك الليلة أن هيلجا حطت عينيها علىّ باهتمام شديد أيضا وأنها شعرت بالغيرة . ولعل هذا هو السبب فى أنها لم تتحدث إليك ثانية بعد أن قلت لها انى أريد الزواج بك . ومضت سهرة المساء سريعا ورافقتك لبيتك فى سيارة أجرة . وسألتك قبل أن تصعدى درجات السلم إذا كنت تريدين الزواج منى . أنا واثق من أنك تصورت أننى مجنون ، بيد أننى أيقنت أننى أريدك من كل قلبى . طلبت منك أن تفكرى فى هذا ، وأننى عازم على السفر إلى فيينا من أجل العمل لمدة عشرة أيام وسوف أعود لأسمع



● جاك بيتون فى باريس ١٩٦٤ .



● جاك بيتون وزوجته فى تل أبيب فى ١٩٦٤ .

إجابتك . لم أكن قاصدا فيينا بل ميلانو . أردت أن أحدث رئيسى عنك وأن يستوضح أمرك ويعطينى موافقته بشأنك . ووافق رئيسى فى ميلانو على أن يتحقق من أنك لا تعملين لحساب الموساد أو المخابرات الألمانية BND . واستغرق بحث ذلك عشرة أيام حتى تأكدنا منك . وفرحت بالنتيجة فرحة صبى صغير فى عيد ميلاده . عدت على الفور إلى فرانكفورت وفوجئت أنت بعودتى . لا بد أنه راودك الظن بأننى لن أعود . واصطحبتك لتناول الغداء وصارحتينى بأن ثمة شكوكا تساورك من ناحيتى . واستغرق الأمر بعض الوقت ثم أقنعتك أخيرا . وذهبنا معا لمقابلة ابنتك أندريا وأمك . كم كانت ابنتك الصغيرة حلوة ، ولقد أحببتها كثيرا منذ اللحظة الأولى ، أحسست كأنها طفلتى أنا . وكانت أمك سيدة عذبة ساحرة ارتحت إليها منذ البداية ، وبعد ذلك أحببتها كثيرا . كان لها قلب حنون لم أر مثله حنانا وعطفا . أما أبوك فلم تعجبه الفكرة ، غير أننى كنت على يقين من أننى مع الزمن سوف أقنعه وسوف أجعله يرضى بى .

واصطحبتك على الفور إلى باريس . وتذكرين أننى تركتك وحدك فى الفندق لمدة ثلاث ساعات فى اليوم التالى لوصولنا . كان لا بد لى أن أقابل رجل الاتصالات . أردت أن أخبره بما خططته لمستقبلى فى هذه الفترة حسبما أراد أن يعرف رئيسى ومركز القيادة فى القاهرة . قضينا وقتا جميلا فى باريس واستمتعت بكل لحظة معك . وسافرنا من هناك إلى تل أبيب . وعرفتك هناك بجميع أصدقائى . أحبوك وأعجبوا ايما إعجاب بجمالك ، وتذكرين أن ديان نفسه أتى إلى البيت ليرى « الغلطة التى ارتكبتها » . وضحكت أنا وديان مرات ومرات كلما فكرنا فيما حدث . لقد أخبرنى بأنك عندما رأيته لأول مرة ارتسمت على وجهك تعبيرات غريبة مضحكة . وعشنا وقتا طيبا فى إسرائيل . واصطحبتك فى جولات لتشاهدى البلد والمدن . وأرسلت فى هذه الأثناء بطاقات بريدية إلى « أسرتى » فى فرنسا . ولم يكن هذا سوى روتين لإبلاغ ما لدى من معلومات . ولعلك تفهمين الآن لماذا لم أصطحبك يوما لمقابلة « أسرتى » فى فرنسا . واعتدت كلما سألتيننى عنهم أن أقول لك أن علاقتى بهم سيئة . ومضت بنا الأيام ولا شىء يبهجنى فى حياتى سواك . بقينا فى إسرائيل حتى آخر ديسمبر ١٩٦٣ ثم سافرنا إلى ألمانيا لقضاء بعض الوقت مع أندريا وأبويك . كان وقتا رائعا حقا . وزاد حبى لأندريا مع كل لحظة ، وبدأ أبوك يرتاح إلىّ ويثق بى . واشتريت لك فى ألمانيا سيارة وشحناها إلى إسرائيل حتى يتسنى لك التنقل داخل المدينة بصورة أفضل .

وعدنا إلى إسرائيل فى أوائل يناير ١٩٦٤ . قدمتك إلى جولدا مائير وأحبتك كثيرا ، ثم اصطحبتك فى زيارة إلى بن جوريون فى الكيبوتز الخاص به . رافقنا ديان فى هذه الزيارة ، وبعد أن استقبلك بن جوريون العجوز مرحبا ، طلبت منك التجول فى الكيبوتز إلى أن نفرغ من حديثنا أنا وبن جوريون وديان . لم يتناول نقاشنا شيئا له أهمية كبيرة ، ولكن كان لا بد وأن أكون متابعا لمسرح الأحداث . وسافرت فى فبراير إلى فرنسا بشكل رسمى ، ولكننى فى الحقيقة اتجهت إلى لندن لمقابلة رئيسى لأبلغه بآخر التطورات . فعلاوة على تقريرى المكتوب عن التعاون الألمانى الإسرائيلى ، توفرت لدى تفصيلات جديدة عن الدعاوى الإسرائيلية بشأن مياه نهر الأردن التى تتنازعها سوريا وإسرائيل . واتجهت من لندن إلى فرانكفورت . وحيث

أن أباك كان هو المسؤول عن أندريا فقد أقنعته بأن يستخرج لها جواز سفر لأصطحبها معى إلى تل أبيب . فاجأتك بوصول أندريا معى إلى تل أبيب وغمرتك فرحة كبيرة . كنت قد أدركت أنك اشتقت إليها ، وحيث أننى كنت أعتبر أندريا مثل ابنتى ، فقد آثرت أن نكون جميعا كأسرة صغيرة . أعرف أنك غاضبة إذ تقرأين هذا لأننى وضعتكما بهذا معا فى موقف خطر . ولكن صدقينى كان كل شىء آمنا . كنت أسيطر على الموقف تماما ، وحيث أننى لم أكن أعتزم البقاء فى إسرائيل لفترة طويلة ، فلم تكن هناك أى مشكلة . وقضينا ثلاثتنا وقتا جميلا فى إسرائيل .

وحضر أبواك فى أواخر العام لزيارتنا لمدة ثلاثة أسابيع . تجولنا معهما لمشاهدة معالم المدينة واستمتعت بصحبتهما أيما متعة . وسعيت لنكون أنا وأبوك صديقين مخلصين ، وسعدت أنا وأنت لذلك سعادة كبيرة . وطواك حزن شديد حين سافر أبواك إلى ألمانيا ، غير أننى فاجأتك بأننا أنت وأنا وأندريا سوف نسافر فورا إلى ألمانيا . وكم كانت فرحتك غامرة لقرارى هذا . واتفقت أنا وأبوك على أن نسكن فى منزله خارج فرانكفورت . وبعد فترة قصيرة من سفر والديك زرت الطبيب وعدت بأنباء عن الوليد المنتظر . غمرتنى الفرحة والسعادة . كان هذا أجمل نبأ تلقيته . قفزت هنا وهناك مثل صبى صغير ولم أصدق أن حظى قد تحسن بهذا القدر ، لكنى لم أشأ أن يولد ابنى فى إسرائيل ، وأقنعتك بأن تضعى حملك فى ألمانيا . لعلك أدركت الآن أيضا لماذا . لم أشأ أن يحصل ابنى على جنسية إسرائيلية ، وهذا جعلك تضربين أخماسا فى أسداس غير أننى مصرى من صميم قلبى ، ولم أكن أريد لابنى أن يحمل جنسية إسرائيل . كنت قد عقدت العزم عند زواجنا على أن أتقدم بطلب للحصول على الجنسية الألمانية ، ومن ثم يحصل الطفل عليها بالتبعية . ومن ثم انتهينا إلى نتيجة هى أن الأفضل أن تسافرى أنت وأندريا فورا إلى ألمانيا ، وسوف أتنقل جيئة وذهابا بين تل أبيب وفرانكفورت ، إلى أن يتسنى لى تصفية أعمالى . واضطررت أيضا إلى الانتظار فترة أطول قبل أن أغادر إسرائيل نهائيا حتى لا أثير الشكوك .

وفى صيف ١٩٦٤ تزوجنا فى فرانكفورت وأصبحنا زوجا وزوجة

شرعا . وعلى الرغم من بعض المشكلات الخاصة بالوثائق إلا أننا تجاوزنا الأمر فى النهاية . ما أزال أبتسم كلما تذكرت قصتى القصيرة عن أصلى ومنشئى حين أقسمت أمام المسؤولين الألمان وصدقونى . وطرنا عائدين مرة ثانية إلى إسرائيل لتودعى الأصدقاء هناك . وأبلغنا كل من نعرفهم أنك لا تحتملين المناخ ، ولهذا فإننا مضطرون إلى الانتقال إلى ألمانيا . وأسعدنى أن هذه القصة المختلقة نجحت وصادفت تصديقا . وعدت أنت إلى ألمانيا بعد أسابيع قليلة ، وبقيت أنا لأتابع أعمالى . الآن تحررت من أعبائى بحيث أصفى آخر متعلقات مهمتى وأخرج من عرين الأسد .

وجاء ميلاد ابننا فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر(*) . وصلت إلى فرانكفورت فى اليوم التالى لولادته ، وأنا حزين إذ لم أكن معك لحظة وصول دانييل . أحسست بالفخر بالطفل الوليد ، وإن بدا لى قبيحا جدا . أصبح لنا ابن . والابن يعنى أشياء كثيرة جدا لى . أحببت أندريا كثيرا جدا ، ولكن بالنسبة لى كمصرى فإن الابن له معنى خاص جدا . بقيت أنت مع الطفلين فى ألمانيا ، وسافرت أنا إلى تل أبيب عبر إيطاليا لأبلغ رؤسائى أن ألمانيا قد أرسلت إلى إسرائيل أسلحة قيمتها ٢٠٠ مليون دولار . واشتملت هذه الأسلحة - من بين أنواع كثيرة - على طائرات هليكوبتر ومقاتلات نفاثة ودبابات وقوارب بل وغواصات . وقرر عبد الناصر مواجهة الحكومة الألمانية بهذه المعلومات . ثم أرسلت بعد ذلك تقريرا يفيد أن ألمانيا تعتزم تزويد إسرائيل بالمزيد من الأسلحة . وحين جابه عبد الناصر الحكومة الألمانية بهذه المعلومات أنكرت بشدة . وحدث أن أغفلت القاهرة المعلومات التى نقلتها الخاصة بالاتفاق السرى بين شيمون بيريز عن إسرائيل ، ووزير الدفاع الألمانى بشأن المزيد من إمدادات الأسلحة ، فقد صدق المسؤولون فى مصر الألمان . وفيما عدا ذلك لم تحدث أشياء تذكر ، وظللت أتنقل بين إسرائيل وألمانيا . لم يحدث أن اتجهت مباشرة إلى تل أبيب ، وإنما اعتدت أن أسافر دائما عبر مطار ترانزيت فى بلد ثالث لأسباب أمنية . ودهشت من أنَّ أحدا لم يلحظ ذلك .

(*) صورة شهادة ميلاد دانييل فى الجزء الخاص بالوثائق فى آخر الكتاب ص (٢٣٠) .

عدت من ألمانيا إلى إسرائيل . وعند وصولى وجدت ديان يحمل مفاجأة لى . لقد وضع اسمى لأكون أحد المرشحين لعضوية مجلس الوزراء . شعرت برغبة فى أن أضحك فى داخلى غير أننى تذكرت أن كوهين احتل منصبا سياسيا رفيعا ثم اكتشف أمره . استهوانى الأمر غير أننى كنت واثقا من أن الشين بيت سوف تتحرى عنى بصورة أكثر تركيزا وهو أمر خطير . لذلك أثنيت ديان عن رأيه بأن قلت له إننى أريد الانتقال إلى ألمانيا نهائيا لأبقى مع زوجتى وطفلى . وكان هذا هو الأفضل . وبدأت أنشط فى سبيل بيع نصيبى فى مكتب السفريات . وتبين أن الأمر أصعب مما توقعت . وشرعت فى متابعة وتعلم الأعمال الخاصة بتجارة النفط . وعزمت على أن أبدأ فى ذلك بعد أن يستقر بى المقام نهائيا فى ألمانيا . ولم أفعل فى هذه الأثناء شيئا سوى إرسال رسائلى الروتينية إلى رئيسى .

وعندما أصبحت فى ألمانيا . شرعت فى التعجيل بمسألة تبنى أندريا . كنت أريدها ابنتى أمام القانون وبصورة شرعية ، لأنها تحتل مكانها فى قلبى ، وكنت أريد كل شىء بطريقة رسمية . وكان ابننا دانييل لا يزال بدون جنسية لا ينتمى لدولة بذاتها . إذ قيل لى ان حصولى على الجنسية رهن بالحياة فى ألمانيا خمس سنوات أولا . وتقدمت بطلب للحصول على الجنسية بعد أن قال لى رئيسى ان بإمكانى كألمانى أن أذهب وأجىء إلى مصر كرجل أعمال . طال الوقت وسارت الأمور بطيئة . أنجزنا على الأقل مسألة تبنى أندريا وشعرت لهذا بسعادة غامرة .

فى غضون هذه الفترة تدهورت الأوضاع السياسية بين إسرائيل ومصر . وكانت هذه هى البداية لما حدث فى عام ١٩٦٧ . كنت ما أزال أتردد ذهابا وجيئة بين ألمانيا وإسرائيل . واستطعت فى أبريل أن أخطر رئيسى بأن إسرائيل عمدت إلى القيام بعمليات استطلاع للكثير من القواعد العسكرية الجوية العربية الأساسية وتصويرها من الجو ، وأنهم فى إسرائيل أعادوا بناء نماذج مطابقة لكل قاعدة وتدربوا على قصفها من الجو . وأضفت أن من بينها مواقع مصرية . وأعربت عن تصورى بأنه إذا كان ثمة احتمال لعملية عسكرية ، فإنها ستكون عن طريق القيام بهجمات جوية ضخمة . ولم يأخذ أحد معلوماتى مأخذا



● فى حفل تبنى أندريا فى ١٩٧٣ مع والدى فالتراود .

جادا على نحو ما كشفت عنه الأيام بعد ذلك . إذ ساد التوقع بأن إسرائيل لو حاولت القيام بعمل عسكرى ، فإنها ستهاجم سوريا . جاهدت مرارا وتكرارا لأقنعهم بأن الضربة ستوجه إلى مصر ، ولكنهم لم يصدقونى . وفى شهر مايو أغلق عبد الناصر مضيق تيران أمام جميع السفن الإسرائيلية . وفى يونيو هاجمت إسرائيل القواعد الجوية الكبرى فى مصر وسوريا والأردن والعراق على السواء . ثارت ثائرتى . لماذا لم يسمعوا كلامى ؟ لقد أبلغتهم قبل وقوع الكارثة بزمن طويل ولم يعبأوا بما قلت . غضبت وبلغ بى الغضب مداه حتى أننى عقدت العزم على أن أترك العمل . تذكرين يا فالتراود كيف أنك لم تفهمى لماذا وصفت المصريين بالغباء ولم أكن سعيدا بانتصار إسرائيل . كل شىء كان واضحا ومعروفا لديهم ، ولم يكن عليهم سوى أن يستعدوا لوقوعه ، وينتظروا إسرائيل إلى أن تأتى بنفسها . ومع هذا فقد دفعوا ثمنا غاليا نتيجة إغفالهم لما قدمته لهم من معلومات . ومضى الزمان ، ومات عبد الناصر . وأصبح أنور السادات رئيسا لمصر فى عام ١٩٧٠ . تخليت فى هذه الأثناء عن منزلى

فى إسرائيل واعتدت أن أنزل فى فندق كلما ذهبت إلى هناك . وكنت حتى ذلك الحين لم أجد مشتريا لحصتى فى مكتب السفريات . وذات يوم ونحن فى ساعة الأصيل جمعتنى جلسة مع ديان فى نادى تل أبيب . عرفت منه معلومات حيوية عن أنور السادات . وقال لى ان روسيا استقر عزمها فى نهاية عهد عبد الناصر على تحويل مصر إلى دولة تابعة للسوفيت .

أسست شركة جديدة فى ألمانيا اسمها « بى تى ام » للسمسرة وتجارة النفط . وسارت الأمور سيرا حسنا وحققت أرباحا من عملى الذى تعلمته حديثا . وانتظم الطفلان فى المدرسة ، وقررت أنت افتتاح بوتيك صغير لملابس السيدات . عشنا حياة سعيدة فى ألمانيا وقلّت تدريجيا زياراتى لإسرائيل . ذهبت إلى هناك مرات كثيرة دون علمك . كنت تظنين أننى فى اليونان وقبرص ، وواقع الأمر أننى لم أذهب إلى اليونان . إذ تهيأت لنا قنوات معلومات جديدة . كنت أذهب إلى تل أبيب ، ومن هناك إلى قبرص لأقابل رجل الاتصالات . لم يكن هناك الكثير مما يستحق أن أبلغه سوى العمل الروتينى . ومضت الأيام وبعت فى النهاية مكتبى فى تل أبيب . لم أحصل على الثمن الذى كنت آمل فيه . وواقع الأمر أننى حصلت على مبلغ زهيد . لم أخرج من إسرائيل غنيا .

وخلال زيارتى الأخيرة لإسرائيل عمدت إلى أن أقوم بآخر عملية تجسس لى وربما الأهم والأخطر شأنا لصالح مصر . كانت العلاقات السياسية بين إسرائيل ومصر قد تدهورت مرة أخرى مع استمرار الجدال بشأن شبه جزيرة سيناء . وللمرة الثانية أخذ القدر مساره فى اتجاه العنف . واكتشفت من خلال سام شواب أن ثمة تخطيطا لتوجيه ضربة عسكرية أخرى ضد مصر . وأدركت أن من واجبى أن أعمل . وتلقيت معلومات عن طريق كل من شواب وديان ووايزمان عن الخطط العسكرية المختلفة المبيتة . كان كل شىء بدا مبسوطا واضحا أمامى . وغمرتنى الرغبة فى الضحك . على مدى كل هذه السنوات كنت أعد العدة لكى أترك إسرائيل مرة وإلى الأبد ، وأن أترك عملى مع جهاز المخابرات ، وعندما حان الوقت لذلك استطعت أن أنجز أروع أعمالى . وتوفرت لى معلومات تزيد عن الحاجة ، نقلتها جميعا : الزمن والتاريخ

والموقع ، كل شيء كان هناك . وصدقني المصريون هذه المرة على نحو ما تشير أحداث التاريخ . وغمرتني سعادة بالغة لذلك . ولأول مرة انتصرت مصر على إسرائيل في حرب ١٩٧٣ . وقررت أن هذه نهاية عظيمة لمهمتي . وأبلغت رئيسي أن هذه نهاية عملي معهم . وعدت إلى ألمانيا حيث حصلت على الجنسية الألمانية . وحصل دانييل بدوره على جواز سفر ألماني ، وأصبحت إقامتنا الآن شرعية في البلاد . وسرني أن تخلصت من جواز سفري الإسرائيلي . ففي النهاية كنت دائما مصريا في صميم فؤادي ، بل كان الزعم بأنني إسرائيلي أو يهودي يجرحني في داخلي . ولكن كان الواجب يقتضيني أن أنجز مهمتي ، وقد أديتها على خير وجه . وأستطيع أن أقول بشكل ما إنني كنت فخورا بنفسي قليلا . وطلبوا مني أن أحضر إلى ميلانو مرة أخرى ، حيث قال لي رئيسي :

– لقد أنجزت عملا بالغ الروعة ونحن فخورون بك . لقد استطعت أن تقدم أكثر مما كنا نتوقع . فما هي خططك الآن ؟

– حسن ، أريد لعملي في مجال البترول أن ينجح . وحيث أنني حصلت على الجنسية الألمانية الآن ، فإنني أستطيع أن أدع أمر إسرائيل جانبا ، وأصب اهتمامي على حياتي الخاصة .

– هناك في مصر أيضا حجم أعمال ضخم في مجال البترول . نستطيع أن نساعدك للنجاح في هذا المجال كتعبير عن عرفاننا بجميلك الذي أسديته . لكن تذكر أن اصطحابك لأسرتك إلى مصر ، يمكن أن يكشف ما قمت به من قبل وبالتالي يهددك ويهددهم كذلك .

– لن أترك أبدا أسرتي ، فهي كل ما لي .

– ستكون بذلك مصدر خطر شديد على أسرتك . نحن كفيلون بحمايتك ، ولكننا لا نستطيع حماية زوجتك وطفليك طوال الوقت . إذا لم تكن على استعداد لأن تتركهم في ألمانيا فستضطر إلى البقاء باعتبارك جاك بيتون الألماني الذي عاش في إسرائيل يوما ما . فكر في هذا وتدبر الأمر .

وقاطعته قائلا :

- هل هذا معقول ؟ إننى أحب فالتراود والطفلين حبًّا يملك علىّ أعماق نفسى . لا سبيل على الإطلاق إلى أن أتركهم .

استطرد قائلا :

- جميل . إذا كان هذا هو ما تريد فليكن . غير أننا معنيون بك ليس إلا . أسرتك هى شأنك . إذا بقيت معهم ، لن تستطيع العودة إلى مصر وتصبح رفعت الجمال . كذلك ستكون مسؤولا عن نفسك . وإذا ما اكتشفت المخابرات الإسرائيلية حقيقة ما فعلت فإنهم سيعثرون عليك أينما كنت .

- انهم لن يكتشفونى . لقد عشت داخل عرين الأسد زمنا طويلا وأعرف حيلهم . لقد سددت دينى إلى مصر ثلاثة أضعاف ، وسوف أتصرف على مسؤوليتى مثلما اعتدت دائما . وإذا كان قدرى هو أن أواصل العيش باسم جاك بيتون فليكن . غير أننى لن أترك زوجتى وطفلى تحت أى ظرف من الظروف . إنهم مسؤوليتى وأنا أحبهم إلى أقصى الحدود .

- وهو كذلك يا جاك بيتون . لقد حددت اختيارك . وأصبحت كما قلت لك مسؤولا عن نفسك . نحن نشكرك على جهودك ونرجو لك حظا طيبا . كان الله معك .

وقف الرجل ومد يده لى فصافحته وانصرفت .

□ □ □

تفاقمت حالتى المرضية . وبدأت منذ أكتوبر ١٩٨١ أتلقى علاجا كيميائيا فى لندن . ولم يعد العلاج يفيد شيئا . قال لى الطبيب انه لم يبق أمامى سوى ثلاثة أو أربعة أشهر . لقد تعبت تعبا شديدا ، والألم فى غاية القسوة . أود لو زايلنى . إن كتابة الماضى تستنفد منى جهدا كبيرا يتزايد مع كل ساعة تمر . لقد تدهور بصرى ، وفقدت الكثير من وزنى . لم أعد أستطيع الكتابة فترة طويلة . كل ما آمل فيه هو أن أنتهى من كتابة كل ما أريد أن أقوله قبل أن أمثل أمام الله . أعرف أن ثمة مشكلات مع الشركة . لم يقل لى أحد شيئا ولكننى

أعرف . أنا الذى أقمت صرح هذا العمل ولا يستطيع أحد أن يستغفلنى . وأرجو أن تتمكن فالتراود من أن تتدبر الأمر . أمامها فترة صعبة . فالناس فى القاهرة وكذلك شركائى هنا فى ألمانيا جميعهم يترقبون موتى . وحينئذ سيبذلون جهدهم للاستيلاء على العمل . آه لو أننى أستطيع مساعدتها . غير أننى واهن أشد الوهن . لم أعد أستطيع عمل شىء . لقد افترسنى المرض بقسوة حتى لم يكد يبق على شىء منى . إن الألم يقتلنى . لم تعد تجدى معى شيئا جرعة المورفين التى يحقنونى بها كل يوم . فالألم باق ولا يفارقنى . وأريد أن أواصل الكتابة لكى أفرغ مما أريد أن أبوح به . أجد لزاما علىّ أن أفضى بكل الحقيقة إلى أسرتى . حتى وإن لم يعرفوها إلا بعد موتى . أعرف أن أسئلة كثيرة ستلح عليهم ، كم وددت لو بقيت لأجيبهم عليها . ولكننى عجزت عن أن أحكى لهم وأنا فى حياتى . ما أزال ملتزما بالقسم الذى أقسمته لبلدى . يجب علىّ أن أمضى فيما أنا بصدده ، وأفرغ مما أريد أن أقوله .

□ □ □

استبد بى الضيق ، بعد انتهاء علاقتى مع جهاز المخابرات . لقد تدبرت شؤونى كل هذه السنين وسوف استمر فى تدبيرها بنفسى . ها أنذا أصبحت ألمانيا الآن ، وبحوزتى جوز سفر أوروبيا أصيلا(*) . ولى زوجة حبوبة وطفلان رائعان . وأعمالى تسير سيرا حسنا . ليس عندى ما يؤرقنى . وبعد هذا لا بد وأن أبقى جاك بيتون . يالعذاب الجحيم . لقد عشت بهذا الاسم زمنا طويلا . وبات لزاما أن أواصل حياتى به . كنت على يقين من أننى سأعود إلى مصر يوما ما بطريقة أو بأخرى . لم أكن أعرف كيف ولكننى كنت مقتنعا من أننى بمرور الوقت سأهتدى إلى وسيلة ما . لم يكن يعنينى أن أعود باسم جاك بيتون أو رفعت الجمال ، ولكنى كنت أريد فقط أن أعود وكنت واثقا من ذلك . ذهبت واشتريت هدايا للأطفال ثم عدت إلى فرانكفورت .

لقد وضعت حدا لعملى فى مجال التجسس الذى أديته حقا بسعادة غامرة .

(*) صورة جواز السفر الألمانى فى الجزء الخاص بالوثائق فى نهاية الكتاب ص (٢٣٣) .

وإذا عدت بنظرى إلى الماضى أجدنى أقول : « إنى أديت واجبى على الوجه الأكمل » .

رجعت إلى ألمانيا وركزت كل اهتمامى على عملى . وأبرمت صفقة مع ليبيا . ونظرا لحاجتى إلى السفر إلى هناك ، فقد كان لزاما أن أخرج مسرحية صغيرة بالاشتراك مع القس صديقى فى ألمانيا . حدثته عن خططى للسفر إلى ليبيا وصارحته بمخاوفى بسبب أصلى اليهودى . وإذا بالرجل ودون أدنى تردد يكتب لى رسالة موضحا أننى جاك بيتون من أبناء كنيسته البروتستانتية . كانت هذه الرسالة هامة جدا حيث أن الدين غير مذكور فى جواز السفر الألمانى . ولسوء الحظ أن الوثيقة التى حصلت عليها من القس كانت هى النجاح الوحيد الذى حققته . فعلى الرغم من أننى نجحت فى مقابلة مسؤولين كبار فى الحكومة الليبية إلا أن الصفقة لم تتحقق . وأصبحت الآن بصدد مشكلة مالية كبيرة . كان هذا فى عام ١٩٧٥ وأصبح لزاما علـىّ أن أبدأ كل شىء من جديد .

ولأول مرة منذ ذلك الحين ، سافرت إلى مصر باسم جاك بيتون الألمانى الجنسية . فرحت إذ أعود وأرى بلدى ثانية . والتقيت هناك بعدد من رجال الأعمال ، وقررنا أن نبدأ فى تأسيس شركة تتعامل فى الجوانب المالية للنشاط التجارى فى مجال البترول . اشترك معنا أخى لبيب . قلت له إننى الآن أعيش بالاسم الفرنسى جاك بيتون تيسيرا لحياتى العملية فى ألمانيا ، وأن أسرتى لا تعرف شيئا عن أصلى المصرى حيث أننى كنت أعمل فى السابق لحساب الحكومة ولم أشأ أن أخيفهم . فهمنى وبلغ بى الأمر أن دعوته إلى بيتنا فى ألمانيا ، وسار كل شىء على ما يرام . قدمت لبيب للناس باعتباره شريك عمل ، وصدق الجميع ذلك . ولكن دانييل هو الوحيد الذى أدرك الحقيقة إذ رأى التشابه بيننا وأننا قد نكون أخوين . لعلك تفهمين الآن السبب فى أنى غضبت منه لتشبثه بما قال . كان لا يزال طفلا آنذاك ، وجريئا جدا . والآن وأنا أسطر كل هذه الذكريات أجدنى أريد أن ابتسم . أحمد الله أنه فهمنى وهو لا يزال طفلا وقتذاك ، على الرغم من أن أيا منكم لم يكتشف ما اكتشفه هو .

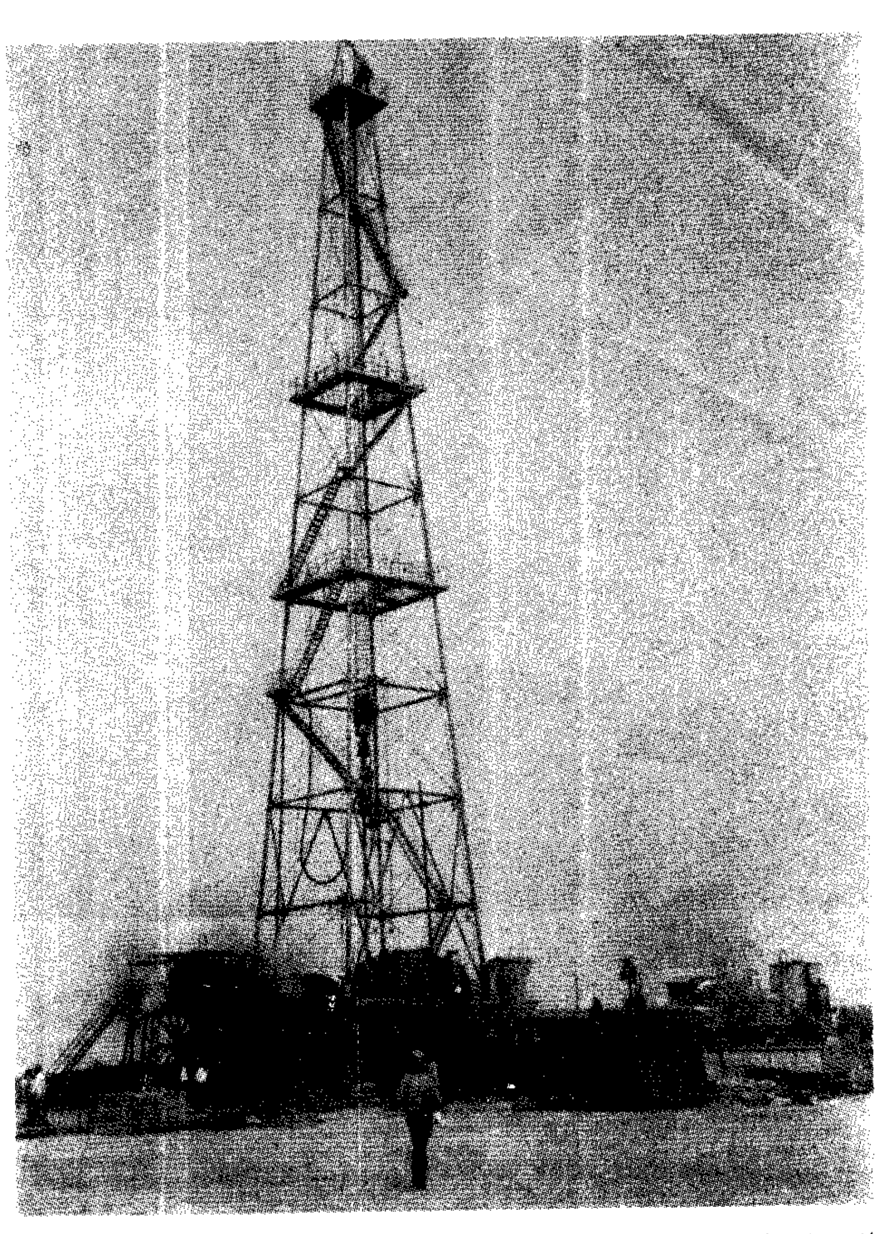
اضطررنا بسبب عملنا الجديد أن ننتقل إلى جنيف فى عام ١٩٧٦ . ولسوء



● توقيع اتفاقية الامتياز للتنقيب عن النفط الذى حصل عليه جاك بيتون من الهيئة العامة للبترول فى ١٩٧٨ .

الحظ ، فإننا لم نحقق نجاحا كبيرا هناك أيضا . إذ خدعنى أحد شركائنا وخدع الآخرين معى وفر هاربا ومعه كل أموال الشركة . اضطررنا إلى العودة إلى ألمانيا ، وسألت أباك أن يساعدنى ماليا . كان الأطفال بحاجة إلى نفقات المدرسة ، وكنا نحن بحاجة إلى أن نعيش . وشكرا لله أن ساعدنى أبوك . ثم قررت فى عام ١٩٧٧ أن أبدأ العمل فى مصر ، عندما سمعت أن الحكومة تعتزم منح امتياز لحقل للبترول نظرا لأن صاحب الامتياز السابق عجز عن مواصلة الحفر بحثا عن البترول فيه .

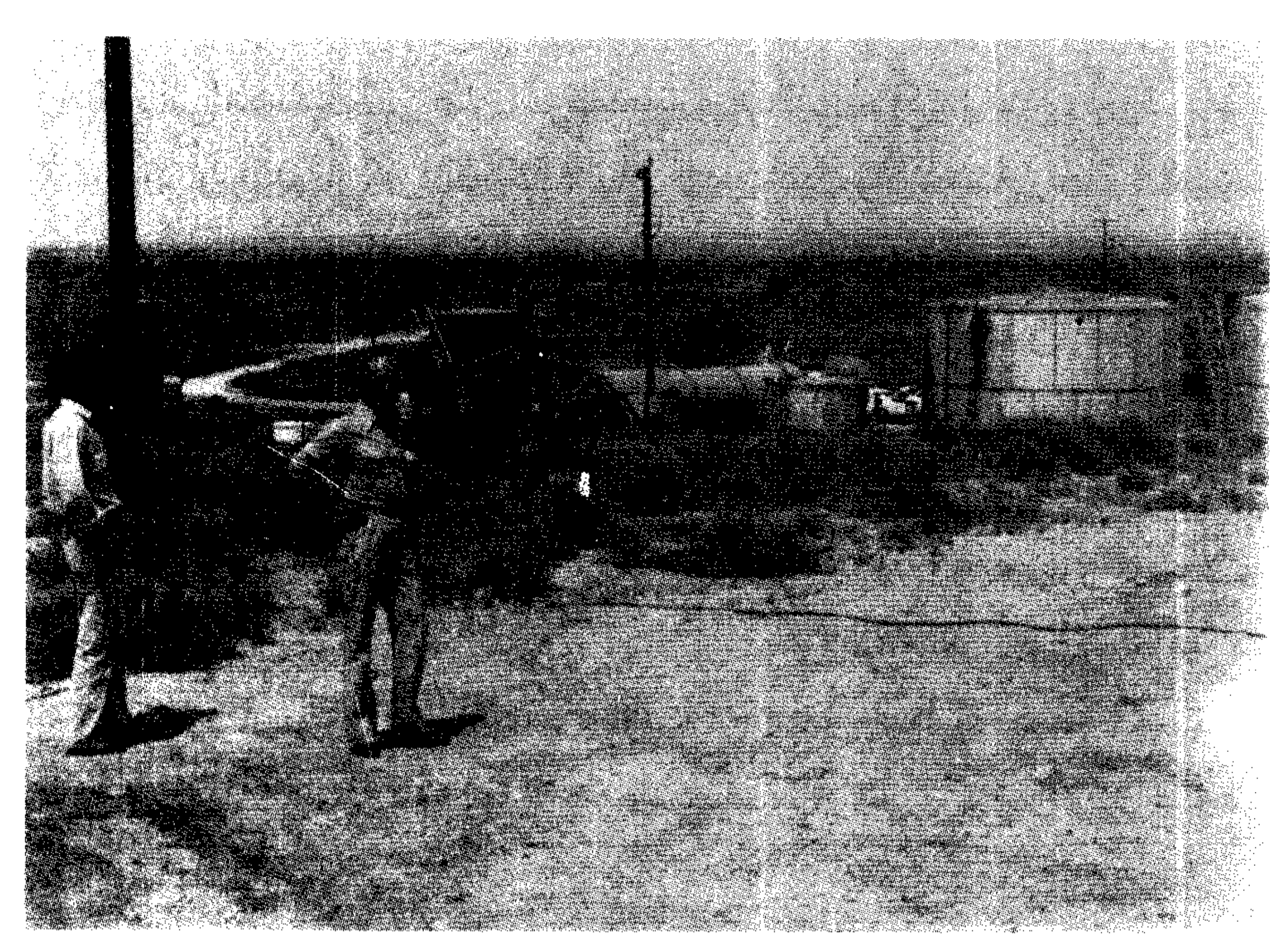
اتخذت جميع الترتيبات اللازمة . واستطعت أن أتنقل بحرية عبر دهاليز مختلف الوزارات مستعينا فى هذا بفترة عملى فى جهاز المخابرات . فضلا عن أن الأمور سارت على نحو أيسر نظرا لأننى أتكلم العربية . وعرف كل من فى مصر أننى جاك بيتون رجل الأعمال من ألمانيا . لم يكتشف أحد أننى أصلا من مصر ، وأنى تركتها يوما ما . واستهان بى كثيرون ، ولكننى نجحت فى تدبير شؤونى لخبرتى بعادات وسلوك المصريين . واهتديت إلى شركاء



● حفارة البترول الروسية التابعة لشركة النفط التى أسسها جاك بيتون فى منطقة مليحة .

عمل بغية الاستثمار فى العمل الجديد فى مصر ، واستثمرت كل ما نملكه فى هذه الشركة . وكنت واثقا من النجاح . وتساءلتِ دائما لماذا أسميت الشركة آجيبيتكو . وقلت لك ان كلمة آجيبيتكو تعنى فى العربية تقريبا « أعود إلى الوطن » . لأن هذا ما كنت حريصا عليه دائماً . كانت العودة إلى الوطن هى حلمى الأكبر . وحين كنت أجادل رئيسى فى ميلانو أقسمت لنفسى أن أعود إلى مصر يوما ما وبطريقة ما . حسن وها قد واتتنى الفرصة لأن أشيد عملا فى وطنى . وغمرتنى السعادة حين اصطحبتك أنت وابننا دانييل إلى القاهرة لأول مرة فى عام ١٩٧٨ ، لقد أقمت شركة ألمانية لاستكشاف النفط الخام وإنتاجه فى مصر .

وسارت الأمور فى مجراها بنجاح . ووجدت عددا كافيا من المستثمرين خاصة من الألمان ، ودفعت كل ما أملك لكى أشارك به فى تقديم مبلغ ٢ مليون دولار أمريكى للحكومة المصرية علاوة توقيع نظير الحصول على حق



● موقع العمل فى بداية تنفيذ امتياز مليحة فى ١٩٧٩ .

الامتياز فى منطقتى مليحة والرزاق الغربية . وأنفقنا أموالا إضافية فى سبيل تجهيز الحفارات ومن أجل الإنتاج . كم كان عسيرا جدا أن نجمع كل الأموال اللازمة . وبدأنا فى السفر والعودة بين مصر وألمانيا . وأدركت أن شركة آجيبيتكو تمثل آخر فرصة لى لتحقيق عمل ناجح ، ولكى أؤسس شيئا ثمينا أتركه من بعدى لزوجتى وأطفالى . راودنى الأمل دائما فى أن أرى ابنى دانييل وقد انخرط فى هذا العمل بعد أن أكمل تعليمه الجامعى . وكنت قد وظفت - دون أن يدرى أحد - اثنين من أبناء سامى فى المكتب الذى بدأته فى القاهرة . وسعدت إذ استطعت أن أقدم شيئا لكل من على وعزيزة . ولهذا السبب أيضا بذلت جهدى لمساعدة محمد ، أكبر أبناء سامى ، ليبدأ حياته العملية الطبية فى ألمانيا . كانت لدى دائما الرغبة فى أن أعرب عن شكرى إلى سامى لما أسداه لـى ، ولكنه مات قبل أن أعود إلى مصر . فإن لم استطع ، فعلـىّ أن أساعد أبناءه على الأقل .

أحسنا تدبير أمورنا بالنسبة للشركة غير أننا كنا بحاجة إلى مال أكثر

مما توقعنا . وبدأت تظهر لنا مشكلات كثيرة . أهمها أننى عرفت فى أبريل ١٩٨١ أننى مصاب بالسرطان . وصدمت . إذ أننى لم أكن أريد أن أموت بعد . كنت أريد أن أثبت أركان الشركة ، وأن أرى دانييل وقد أصبح رجلا . قصدت جميع الأطباء الذين نصحونى بهم ولكن دون فائدة . رفضت إجراء عملية جراحية لأننى أخاف ذلك . قد تحدث تعقيدات ، وأنا لا أريد أن أعيد عقارب ساعة القدر للوراء . إذا كان الله يريدنى إلى جواره فلتكن مشيئته . لم أطلع أحدا على مرضى غير أسرتى . حاولت جهدى لكى أوقف الشركة على قدميها . وأيقنت أنه لا بد لى وأن أحيط فالتراود علما بكل صغيرة وكبيرة لأنها ستضطر إلى أن تواصل ما بدأته . وبعد أن تدهورت حالتى المرضية قررت أنا وفالتراود أن أبقى فى البيت . حاولت أن أسدى إليها النصيحة فيما يتعين عليها أن تعمله بالنسبة لنشاطنا التجارى ، وقد سافرت إلى مصر وشرعت فى إنجاز ما طلبته منها .

□ □ □

ها أنذا جالس فى البيت أعرف أننى سأموت وأتأمل حياتى وما قدمت خلالها . عزمت على أن أكتب كل شىء لأننى لم أكن لأستطيع أن أحكى لأحد . كنت إنسانا عاش شخصيتين فى آن واحد . لست آسفا على شىء . وإذا تطلعت إلى الفترة التى عشتها فى إسرائيل أستطيع أن أقول : إننى قدمت أروع أداء . لقد بدأت عملا أرجو أن يهيىء لزوجتى والطفلين وضعا راسخا متينا . أعرف أننى أقدمت على مخاطرة كبرى باستثمار كل ما أملك فى هذه الشركة . لم أكن أبدا ثريا واسع الثراء ، بل حاولت أقصى جهدى أن أهيىء حياة جميلة لأسرتى ولنفسى . وأحسب أننى نجحت على نحو ما . لن أخلف ورائى مالا وفيرا بيد أننى أعرف أن الشركة سوف تنتج يوما ما ومن ثم يتوفر المال . كل ما آمل فيه ألا يخدع فالتراود شركائى هنا فى ألمانيا أو فى مصر . ولسوء الحظ ، فإننى على يقين من أن المشاركين الآخرين سوف يسعون جاهدين لسلب فالتراود مالها وسرقة العمل منها . إننى ضعيف غاية الضعف ، ولم أعد قادرا على أن أساعدها . ستضطر إلى أن تقاتل على مسؤوليتها . لا أملك شيئا أتركه لها غير هذه المذكرات التى فرغت من كتابتها توا . سوف تتسلمها جميعا بعد

ثلاث سنوات من وفاتى . ثلاث سنوات كافية لكى تهدأ نفسا . سوف تعرف القليل عنى فور موتى . لقد أعطيت رسالة وبعض المعلومات المكتوبة فى مظروف مغلق إلى محمد الذى يعيش هنا فى ألمانيا لكى يعطيها لها بعد أن أموت مباشرة . وددت لو أعطيتها إلى دانييل أولا ولكنه لا يزال حدثا ، فقد لا يفهم ما فيها ، آمل فى أن يصلها المظروف المغلق .

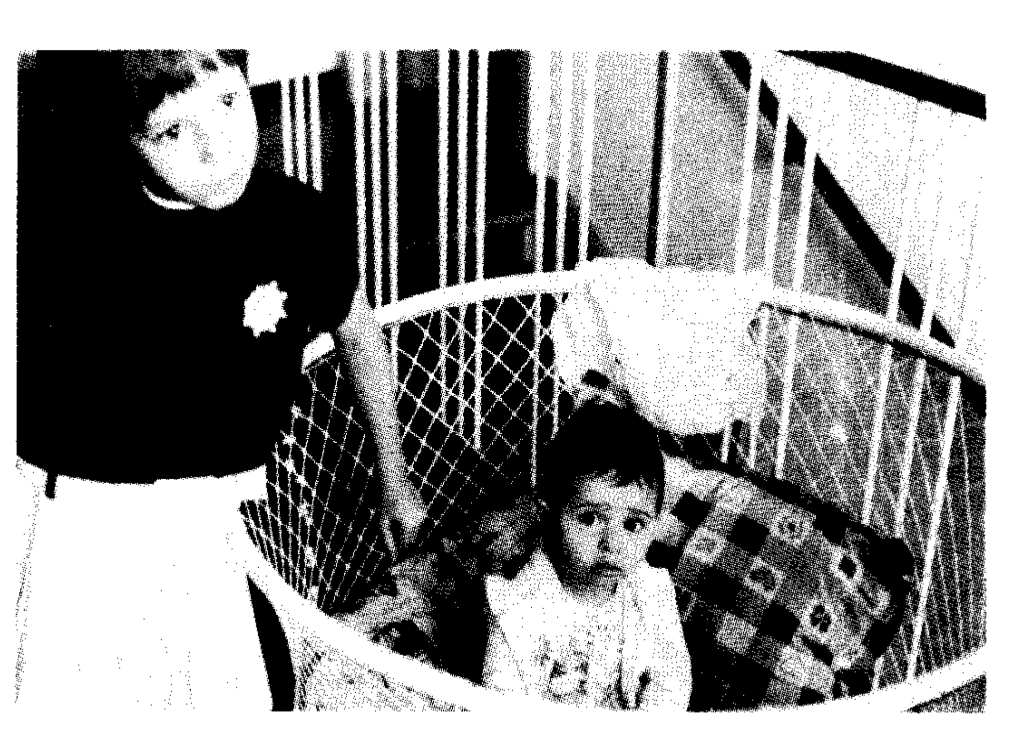
حان أجلى . وفرغت مما أريد أن أقوله . تفاقم المرض والألم حتى بت عاجزا عن الاستمرار . ولكننى مسرور إذ أكملت روايتى ، ومسرور لأن زوجتى وطفلى سيعرفون قصة حياتى الحقيقية . يكفينى الآن على الأقل أنهم يعرفون من أنا ومن كنت . أعرف أننى سأقضى عاجلا . أكاد أحس بالموت آت . سأطلب من فالتراود أن تصحبنى إلى المستشفى . لا أريد أن أموت فى البيت إذ قد يكون هذا قاسيا على نفس فالتراود والطفلين . علاوة على هذا فقد أصبحت لا أطيق تحمل الألم . كان الله مع زوجتى وطفلى المحبوبين . حم القضاء وبلغت النهاية . ولقد تهيأت لأمثل أمام خالقى . ليشملنى الله بواسع رحمته .



● فالتراود بيتون في القدس مع والديها في ١٩٦٤ .



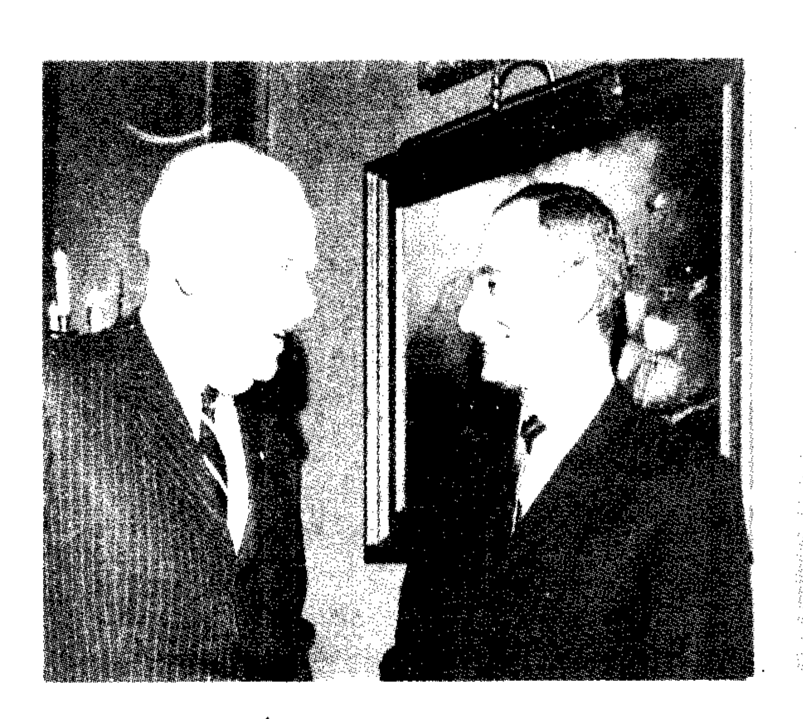
● جاك بيتون مع أندريا على الشاطئ في تل أبيب ، ١٩٦٤ .



● دانييل وأندريا في ألمانيا في ١٩٦٦ .



● جاك بيتون وزوجته وأسرتها فى النقب
فى إسرائيل فى ١٩٦٤ .



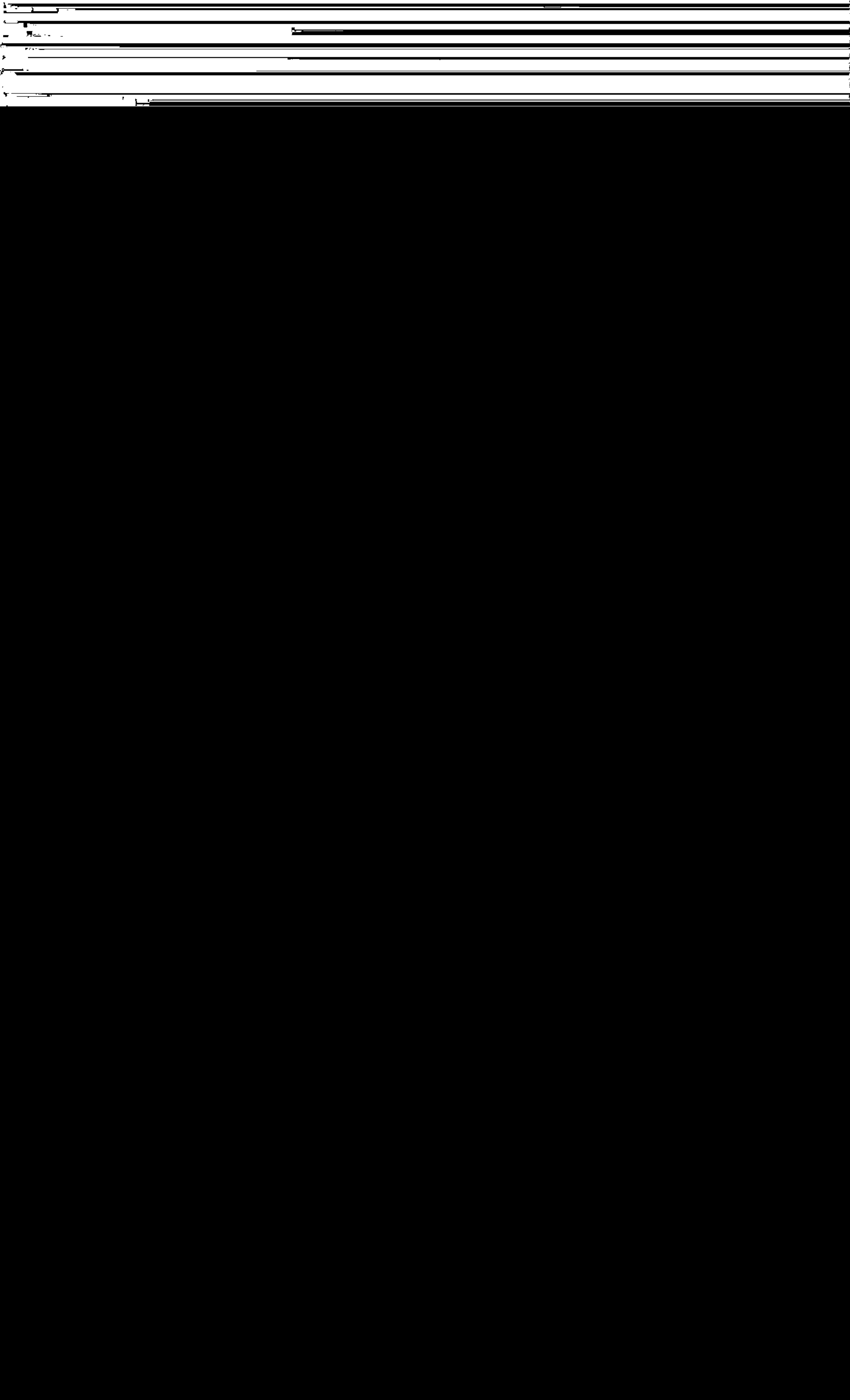
● جاك بيتون مع سناتور أمريكى
فى الولايات المتحدة فى ١٩٦٩ .



● جاك بيتون مع شركاء فى الأعمال
فى فندق هيلتون النيل فى ١٩٧٩ .



● جاك بيتون مع صديقين من رجال الأعمال
فى روما عام ١٩٧٢ .





● جاك بيتون فى عسقلون فى ١٩٦٤ .



● جاك بيتون فى الأقصر فى فبراير ١٩٨١ .



● جاك بيتون مع دانييل فى نيوريوك ١٩٧٩ .



● جاك بيتون فى الناصرة فى ١٩٦٤ ، مع والد فالتراود .



● جاك بيتون بعدما انتقل من إسرائيل للعيش فى ألمانيا .

الجزء الثالث

ما بعد الرحيل

٧ عـذاب الأيام الأخـيرة

بعد أن فرغت من قراءة مذكرات جاك التى كان قد تركها لى مع المحامى قبل وفاته ، ولم أتسلمها إلا بعد ذلك بثلاث سنوات ، راودنى شعور طاغ بضرورة أن أكتب ما حدث عقب وفاته لتكتمل القصة أمام القارىء المصرى والعربى صاحب الحق فى أن يعرف الحقيقة كاملة ، وحقيقة المشكلات التى واجهتنا بعد رحيله .

أصبحت حياتى خاوية باردة ، رغم أنى لم أكن أجد فرصة للتفكير والتقاط الأنفاس لكثرة ما واجهته من مشكلات قلبت حياتى رأسا على عقب ، وغيرت كل أفكارى وأحاسيسى .

حتى برودة الجو ، أصبحت من نوع آخر غير الذى ألفته عندما كنا معا . فقد افترقنا وأصبحت وحدى الآن . وكلما برد الجو بعد الآن ، فسيكون بردا من نوع آخر . لقد حاربت معه وفى مرضه أمجد معاركى ، ولكن ربما لم أقاتل بكفاءة بالقدر الكافى . لا هذا غير صحيح . إذ لا أحد يتمتع بكفاءة تؤهله تماما للتغلب على سرطان الرئة . وإنما كنت فقط أحاول التغلب على نفسى . آمل ألا أكون قد آذيت أحدا بقدر ما قسوت أنا وجاك على أنفسنا . لم يكن أحدنا يريد أن يوجع الآخر ، ولكن لم يشأ أى منا أن يصارح الآخر بحقيقة الأمر . فقد عرف كل منا أن الحالة ميئوس منها ولا أمل فيها ، ولكن لم يشأ أى منا أن يبدى للآخر ما يعانيه من ضعف . كل ما أستطعنا أن نفعله هو أن نجرى من عيادة طبية إلى أخرى ومن وعد إلى آخر . عرف كل منا أنه ليست هناك أى فرصة حقيقية للشفاء ، ولكن الشىء الوحيد الذى استطعنا أن نفعله هو أن يعلل

كل منا الآخر بأمل زائف . فالأمل هو زاد المرء الوحيد لمواجهة الأيام الصعبة . وتلك كانت أقسى الأيام . فمنذ أبريل ١٩٨١ أخذ السرطان يدمر بوحشية حياة زوجى الحبيب مثلما يدمر عائلتى . لا أستطيع أن أصف ألم السرطان حين ينهش الجسد ، ولكنى أستطيع أن أتحدث عن ألم من يسهر إلى جانب إنسان عزيز عليه يقتله السرطان ، ويقضى نحبه أمام عينيه .

□ □ □

تحدثت إلى مستشار مدرسة فرانكفورت الدولية بشأن مرض زوجى ، ومدى إشراك ابنى فى المشكلة ، ونصحنى بأن يترك دانييل المدرسة ليقضى أكبر وقت ممكن إلى جانب أبيه . وذهبت بدانييل إلى أبيه فى المستشفى . وانفردا معا فى حديث طويل ليست لدى أى فكرة عما تحدثا بشأنه ، ولا أريد أن أخمن . أعرف أنهما على ما يبدو تحدثا فى أمور كثيرة ، وطال وقت حديثهما . كان ذلك فى ديسمبر ١٩٨١ . كنت أدرك أن جاك كان يود أن يعد ابنه على خير وجه ليسلمه الأمانة من بعده غير أننا أدركنا أنه لن يمتد به العمر بيننا حتى يرى ابنه رجلا على نحو ما كان يتمنى له .

أما أندريا فكانت تعمل وتعيش بعيدا عن البيت حينذاك ، ولكنها كانت تكثر من زياراتها لأبيها قدر المستطاع . فها هو الأب الذى فازت به أخيرا فى حياتها يوشك أن يودعها قبل الأوان ، ولذلك فلم تعد ترى فى الحياة شيئا جميلا بعد الآن .

ولم يفارقنا أبى وأمى فى تلك الأيام كلها . أحسب أن هاينريتش اعتلت صحته وهو يرقب صديقه المخلص يرحل عن الدنيا . إنه لا يبدو فى ظاهره إنسانا عاطفيا ، غير أننا كنا جميعا نعلم أنه فى داخله طفل صغير . لقد تخطى جاك الكثير من الحواجز العالية ليكسب هاينريتش ويكون أخلص أصدقائه . أما أمى فكانت قوية ، وتؤمن بأن جاك لم يهملها أبدا ، ومن ثم لا تريد أن تتخلى عنه الآن . إننى ما أزال مذهولة من تلك القوة التى بدت عليها هذه السيدة .

لقد أبلينا جميعا بلاء حسنا ، وبذلنا أقصى ما فى وسعنا ولكننا لم ننتصر .

□ □ □

كان جاك قد طلب منى فى الثامن من يناير أن أذهب به إلى المستشفى بسبب قسوة وعنف الألم الذى أصبحنا عاجزين عن السيطرة عليه فى البيت ، ولأن الأطباء الألمان لا يحقنون المرضى المتألمين بالمورفين فى البيوت ، ومن ثم لابد أن يودع المريض في مستشفى . وتدهورت حالته سريعا ، بحيث كان يتعاطى المورفين لتسكين الآلام بصورة دائمة .

كان ألم السرطان الذى يعانى منه جاك يفوق احتمال البشر . ومع ذلك ، فقد تحمله بشجاعة أذهلتنى ، رغم أنه لم يكن يطيق الألم وهو متمتع بصحته ، وحتى لو كان ألما طفيفا .

وفى هذا تحضرنى حادثة تبين مدى نفوره من الألم . ففى أحد الأيام كان أبى وأمى يقضيان عطلة لهما بعيدا . وكانت أمى هى التى تطهو لنا الطعام ، وعرض جاك أن يقوم بهذه المهمة ، ولم أكن أحب أن يفعل ليس لأنه لا يجيد الطبخ ، وإنما لأنه كان يترك المطبخ بعد كل وجبة يعدها وقد تحول لساحة حرب ، لأمضى ساعات طوالا فى تنظيفه . وأثناء إعداده للطعام فى هذا اليوم ، جرح نفسه فى أصبعه ، مجرد جرح بسيط ، لكن ذلك كلفنا أن نعيش فى نكد لمدة أسبوع ، لم يكف خلاله عن إثارة أعصاب الجميع بشكواه الدائمة : « إنه يؤلمنى بقسوة » و « إنه يوجعنى » ، « لا أدرى ماذا أفعل لأوقف الألم » ولم أجد بدا من أن أقول له :

– يا عزيزى ، المسألة كلها مجرد جرح بسيط ، هذا كل ما فى الأمر ، ولن تموت بسبب ذلك .

وذات مساء زلت قدمه خارج البيت وسقط على الأرض لأنها كانت مغطاة بالثلج ، وأصيب جنبه الأيسر بكدمات ، فأخذ يتشكى ويتوجع بطريقة مزعجة مثيرة للأعصاب .

ربما كان الخوف من الألم هذا شيئا عميق الغور فى نفسه لإدراكه أنه يقوم بعملية خطرة ، التجسس ، وأنه لو ضبط فسيتعرض لتعذيب شديد غير إنسانى . ربما كان هذا سر نفوره من الألم ، إضافة إلى أنه كان مفرط الحساسية ومرهف الأحاسيس ، والأشخاص من هذا النوع لا يحبون الألم . إن

مجرد فكرة الألم كانت تخيفه ، حتى أنه لم يكن يحب زيارة المستشفيات . فحين ولدت دانييل ، واضطررت لإجراء عملية جراحية فى الوقت نفسه ، زارنى لمدة خمس دقائق وفر هاربا . وقد حزنت لذلك ، لأنى كنت أعرف أنه يحبنى حبا شديدا .

وباسترجاع الماضى ، أنكر أمرا ربما عكس خوفه الدفين من الألم ، لإدراكه أنه معرض لأن يقاسى آلاما مروعة لو وقع . فقد حضر جاك إلى البيت ذات يوم ومعه كتاب « رجلنا فى دمشق » وأعطاه لى وقال :

– يجب أن تقرئى هذا الكتاب . أريد منك أن تقرئيه وتقولى لى رأيك فيه .

سألت :

– لمـاذا ؟

– لأنى أعرف هذا الرجل . كنت أعرفه . كنا أصدقاء فى فترة ما .

قرأت الكتاب ووجدته قصة مثيرة . وعندما انتهيت منه ، وسألنى عن رأيى قلت :

– إيه يعنى . إنها مجرد قصة جاسوس قبضوا عليه وشنقوه هذا كل ما فى الأمر .

– لكن ما رأيك فى رجل يقوم بمثل هذا العمل ؟ لنفترض أنى إيلى كوهين وفعلت شيئا كهذا ، وألقى القبض علـىّ وعذبونى تعذيبا شديدا . ماذا ستفعلين لإنقاذى من هذا العذاب الأليم ؟

– سأحشد أكبر عدد من المحامين للقضية ووزارة الخارجية وسأفعل المستحيل لأخلصك . لن أقبل أن يقبض عليك وتشنق .

ولم أدرك إلا فيما بعد أنه كان يحاول معرفة رأيى فيما يفعل ، وموقفى إذا حدث له شىء ، أو إذا ما اكتشفت حقيقة عمله ، فضلا عن خشيته مما يحدث له لو اكتشف أمره .

□ □ □

فى الأسبوع الأخير من حياته توقف جاك عن الأكل تماما ، وفقد قدرا كبيرا من وزنه حتى بات جلدا على عظم حقا .

وفى المستشفى كان واعيا بما حوله فى معظم الوقت . ولكن الفترات التى كان عقله يتوقف فيها عن التفكير ، كان يصاب فيها بحالة اضطراب تام ، ولا يكف عن التحرك والتقلب فى السرير . ظل يعرفنا جميعا عندما نزوره . وكان أبى نزيلا فى نفس المستشفى لإصابته بأزمة قلبية ، ولم يفارقه فى أى يوم من الصباح والمساء . أما أندريا ودانييل ، فكانا يعودانه ويبقيان معه طويلا . وكنت قد اعتدت أن اذهب للمستشفى مرتين يوميا : مرة فى الصباح أبقى فيها ساعتين معه ، ثم أخرج لمتابعة العمل لأعود إليه فى الخامسة بعد الظهر .

وفى مساء يوم الخميس ، الثامن والعشرين من الشهر ، كان جاك صافى الذهن تماما ، وفوجئت به يقول :

– لقد حانت نهاية الطريق . انتهى كل شىء ، وقضى الأمر . سوف أرحل ويجب ألا تعذبى نفسك . كونى كما عهدتك وافعلى ما أطلبه منك . أرجو أن تعتنى بالطفلين تماما ، وأن ترعى والديك وألا تتركيهما وقد بلغا الكبر . يجب أن تحرصى على أن يتابع دانييل دراسته وأن يكمل تعليمه الجامعى ، وأن توفرى له أفضل تعليم . كما أرجو أن تعنى بالعاملين فى المكتب فى مصر لأنهم بحاجة لمساعدتك . كما أدعوك ألا تحزنى لفراقى لأنى سأكون معك دائما .

ثم صمت برهة وقال :

– هناك مسألة أساسية . لا أريد أن أدفن فى مدافن اليهود .

ومع استغرابى لهذا الطلب أجبت بتلقائية :

– وهو كذلك ، لك ما طلبت ما دامت هذه رغبتك .

وفى صباح اليوم التالى ، الجمعة ، ساءت حالته جدا . طلب عصير برتقال

وأحضرته له ، لكنه شرب منه القليل ثم تقيأه على الفور . لم يعد شيء يستقر في معدته ، سارعت إلى الطبيب مذعورة فرد :

- هذه هي النهاية . ليس بالإمكان عمل شيء له . كل ما أستطيعه هو أن أحقنه بالمورفين كلما أمكن ذلك ، لكن لا فائدة .

- لكن الرجل يتألم ألما شديدا .

- هذا طبيعي في مثل حالته وسأحقنه بالمورفين فورا .

كان أمرا مروعا أن أراه وهو يتعذب من قسوة الألم والعجز عن الحركة ، ويصرخ قائلا :

- إن الألم يقتلني ، لم أعد أعرف كيف أتحمله .

وفي مساء نفس اليوم فقد الوعي ، وظل ساكنا تماما وأعطوه مزيدا من الحقن ، ثم قال لي الطبيب :

- من الأفضل أن تتركيه الآن وتعودي إلى البيت .

وصباح يوم السبت ، الثلاثين من يناير ١٩٨٢ ، استيقظت وقد ساورني إحساس طاغ بالقلق ، وسارعت بتناول حبوب مهدئة ، فلم أكن أريد أن أذهب إليه بمثل هذا القلق . وأراد دانييل أن يذهب معي للمستشفى لكني رفضت ، وطلبت منه أن يأتي لرؤية والده بعد الظهر .

ذهبت للمستشفى ومضيت إلى غرفته الصغيرة التي كانوا قد وضعوه فيها في اليوم السابق لتركيب الأجهزة اللازمة له . رأيت ممرضا يقف خارج الباب ، وكأنه كان هناك بقصد ، وبدا مترقبا حضوري ، فقد سألني من أنا ، ولما عرفته بنفسي بادرني قائلا :

- انتظري هنا ، لا تدخلي حتى أحضر الطبيب .

تملكني الهلع وبدأ جسمي كله يرتجف ، لم أدر ماذا أفعل ، ولا كيف أتحكم في نفسي . وجاء الطبيب ، الدكتور بيرجر ، وطلب مني الانتظار بالخارج دقيقة ، وقال إنه سيطلبني بعد لحظات ، ودخل الغرفة وظل بها بعض الوقت .

ثم دخلت وأمرنى الطبيب أن أمكث بضع دقائق فقط . كم كان مروعا ما رأيت . كانت الغرفة باردة شديدة البرودة وبدت كفراغ مهول على نحو لم ألحظه من قبل . رأيت زوجى أشبه بطفل صغير من حيث الحجم . هذا الجسم النحيل الضئيل الذى لا يكاد يرى من تحت الملاءة لا يشبه الرجل الذى جاب بى العالم كله ، لم يبق منه الكثير ، كان فاقد الوعى ويتنفس بطريقة تثير الهلع . لن أنسى هذا أبدا ، وسأظل أسمع هذا الصوت ما حييت . بدا قلقا ، يتقلب من جنب إلى جنب كأن شيئا ينخسه تحت ملاءة السرير . قال الطبيب إنه فاقد الوعى . لم أدر ماذا أفعل . اقتربت منه وأمسكت يده ، وقبلت جبهته ، وفجأة سكن تماما ، لست أدرى كيف ولماذا ؟ كأنه أحس بوجودى . جلست إلى جانبه وأنا ممسكة يده ، وبدأت أتحدث إليه . ثم أحسست أنه هدأ أكثر ، كان تنفسه متحشرجا ، وقال لى الطبيب إن ذلك يحدث لأنهم فصلوا الآلات عنه . وظللت أتحدث إليه لاعتقادى أنه كان يسمعنى رغم غيبوبته البادية ، لأن هدوءه أخذ يزداد ، ثم فجأة ارتسم على وجهه ما يشبه الابتسامة . بدا وجهه هادئا . ثم طلب منى الطبيب الانصراف لأنهم سيعطونه حقنا مرة أخرى وأصر على ذلك ، ودفعنى دفعا إلى خارج الحجرة . وقبلت جبهته قبل أن أنصرف ، وساورنى شعور بأن أصابعه أحاطت بيدى قليلا فى ضعف ووهن ، وكأنه يودعنى .

خرجت لأبقى خارج الغرفة لكن الطبيب لم يسمح لى بذلك ، وأصر على انصرافى قائلا :

- دعى الأمور تسير فى طريقها ، وسيكون كل شيء على ما يرام .

وهكذا انصرفت . ركبت السيارة وأنا لا أعرف ماذا أفعل ، أو إلى أين أذهب ، وارتكبت مخالفة سرعة . عدت للبيت ووجدت والدى مازالا على مائدة الافطار فى مطبخ بيتنا الكبير . لم أقل شيئا ، ولم يتكلم أحد ، وإن ظلت أمى تحدق فىّ . بقينا جالسين فى صمت منتظرين وقوع حدث جلل ، وكأن على رؤوسنا الطير .

وفى الساعة الواحدة إلا ربعا رن جرس التليفون ، فسارعت إلى السماعة لأسمع صوتا نسائيا باردا مجردا من العاطفة يقول :

- أود أن أخبرك أن زوجك مات ميتة هادئة . أنا آسفة .

- هل يمكن أن أراه ؟ هل بوسعى أن أحضر ؟

- لا ، الطبيب رافض لحضورك .

خارت قواى لفترة ، ثم بدأت اتحرك كالآلة التى تؤدى أعمالا دون أن تدرى كيف . صعدت الدرج إلى دانييل . لا بد أنه سمع التليفون . كان واقفا يحدق فى الخارج من النافذة ، وسألنى :

- هل مات ؟

- نعم . انزل معنا لتحت .

- أرجوك دعينى هنا قليلا ، وسألحق بك .

ومضى وقت غير قصير قبل أن ينزل ، أظنه كان يبكى . لقد تعب كثيرا أثناء مرض والده . وقتما كان جاك فى البيت عاجزا عن الحركة . كان يحمله إلى الحمام ، ويحلق له ذقنه وما إلى ذلك . وجعله هذا يكبر سريعا .

□ □ □

قبع أبى فى مكانه جامدا كقطعة حجر . ساكنا صامتا بلا حراك ، فى حين كانت أمى تحاول فى جلد أن تبدو متماسكة . وتبدى واضحا للعيان كل ما اختزنته من قوة وكل ما كبحته وأنكرته ، ثم أخذت تبكى على حالنا .

وشرعت فى الإجراءات كأنى آلة صماء . بدأت الاتصالات التليفونية . طلبت أولا أندريا وأخبرتها بما حدث . وجمت وعجزت عن الكلام ، ثم انخرطت فى بكاء دون توقف . لم أدر إذا ما كانت سمعت كل كلامى أم لا ، ولكن ما أعرفه أنها حضرت بأسرع ما يمكن . ثم طلبت شريكنا فى العمل فى بلدة دارمشتاد فى ألمانيا ، وبعد ذلك أخطرت المكتب فى مصر الجديدة بالقاهرة . وكانت آخر مكالماتى إلى محمد الجمال الذى جاء على الفور ، ومع زيارته بدأت العاصفة التى لم نهدأ بعدها للحظة واحدة حتى الآن . ففور وصوله سألنى إذا ما كان بالإمكان أن ينفرد بى لبضع دقائق ليخبرنى بشىء ما . وسألته

بدورى ما إذا كان يستطيع الانتظار غير أنه أصر مؤكدا أن من الأهمية بمكان أن أعرف ما يريد أن يقوله لى ، وأن من الضرورى أن أعرفه الآن .

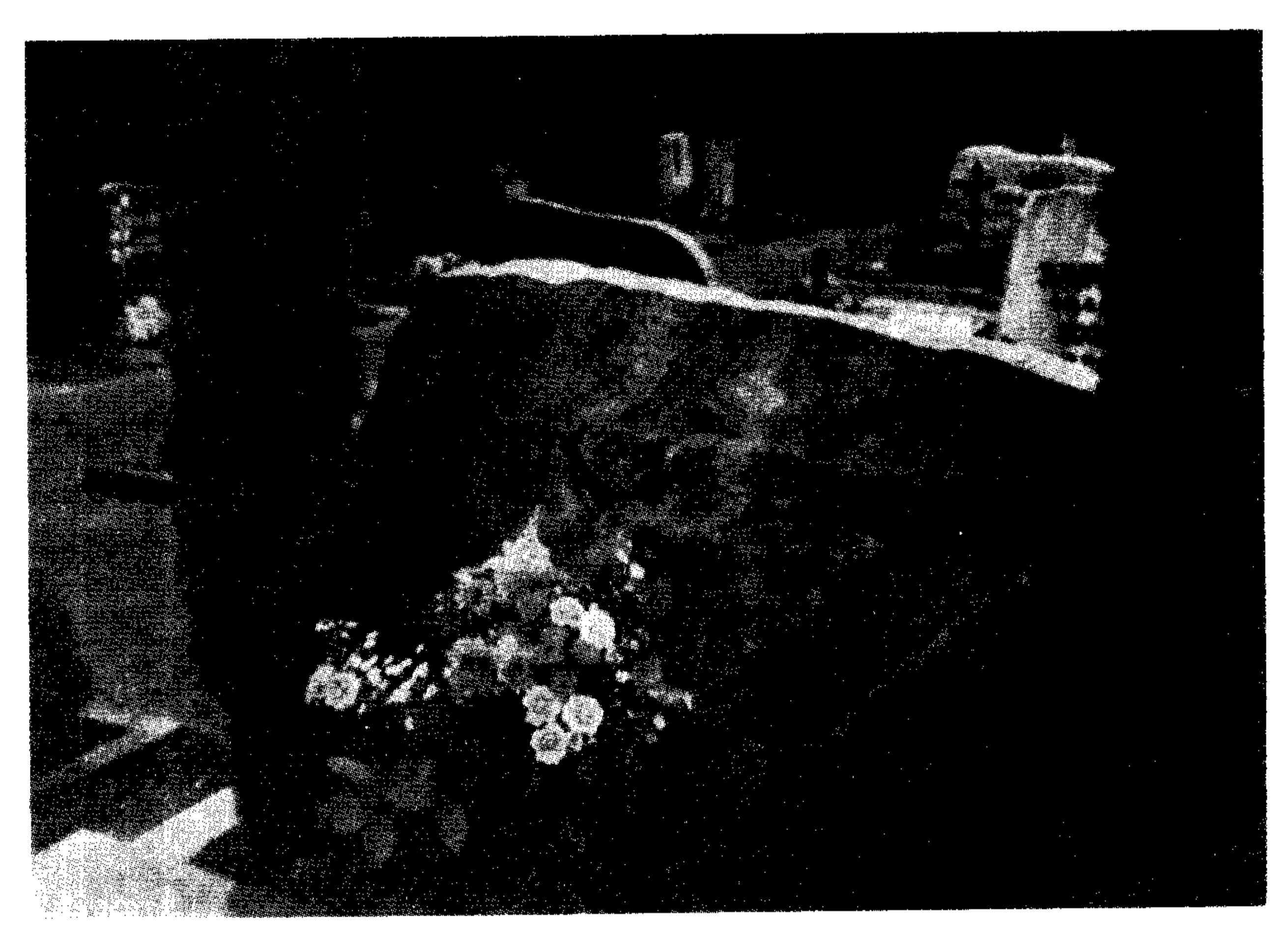
وقص علـىّ محمد قصة لا يمكن تصديقها . إذ قال :

- إن زوجك ليس اسمه جاك بيتون بل رفعت على سليمان الجمال ، وهو عمى ، شقيق أبى سامى . وهو ليس يهوديا بل مسلما . وأنه عميل سرى لجهاز المخابرات المصرية الذى زرعه فى إسرائيل .

لم أسمع باقي كلامه ، بل ولم أدر كيف تحملت سماع كل ما سبق . دار رأسى لهذه السخافات . وحين أدركت ثانية أنه لا يزال يتكلم قلت له لنؤجل ذلك فيما بعد .

وعلى مدى الأيام التالية غرقنا فى دوامة من المكالمات التليفونية والتلكسات والبرقيات . وبدأ الإعداد لمراسم وترتيبات الجنازة . ولما كان مطلب جاك الأخير ألا يدفن فى مقابر اليهود . فقد ذهبت للقس صديقه لأرتب دفنه فى مقابر المسيحيين . لم أجده لأنه كان مسافرا لمصر ، فقصدت قس القرية المجاورة والذى يحل محله عند غيابه . وشرحت له الأمر وقلت له إنه يهودى ولا يريد أن يدفن فى مقابر اليهود ، وأود أن احترم رغبته وأن أدفنه فى المقابر العادية لقريتنا . وتفهم القس الموقف ، وناولته هبة جيدة للكنيسة ، وقال إنه سيقوم له بإجراءات الجنازة ويدفنه فى الجبانة العامة .

اشترينا تابوتا من نوع جيد ، وبدأت إجراءات الجنازة يوم ٣ فبراير فى الساعة العاشرة صباحا والتزمنا فيها بجميع القواعد والمراسم المتبعة فى ألمانيا ، واخترنا له الملابس التى سيرتديها ووسادة حريرية وغطاء من الحرير . ألبسناه قميصا من الحرير وبنطلونا ثم غطيناه بغطاء من الحرير لونه أبيض ضارب إلى الصفرة . قامت بكل هذه الإجراءات شركة لدفن الموتى تسلمته من المستشفى وأبقته لديها حتى موعد الدفن ، لأنه من غير المسموح به فى ألمانيا إبقاء جثث الموتى فى البيوت . قاموا بكل الإجراءات ، وسألونى عما إذا كنت أريد التابوت مفتوحا أم مغلقا ، فطلبت إغلاقه لأنى لم أرد أن يحدق الناس فيه ، لأن منظره كان فظيعا بعد أن فقد هذا القدر الكبير من وزنه .



● مقبرة جاك بيتون فى ألمانيا فى « جوتسينهاين » ، وهى بلدة صغيرة تبعد ١٥ كيلو مترا عن فرانكفورت ، عاش فيها جاك من ١٩٦٤ حتى ١٩٧٨ .

لم أكن أريد أن يراه أحد بهذه الصورة . وأغلقنا التابوت ، وغطيناه بـ ٦٠٠ زهرة حمراء .

وفى مكان إجراء المراسم ، وضعنا سجلا للتوقيعات وتكدست باقات الزهور من كل الأنواع ، وأجرى القس جميع الإجراءات ، ثم حملوا التابوت فى سيارة مغلقة إلى المقبرة ، حيث تحدث القس مرة ثانية عن مناقبه ، وتلا صلاة قصيرة . وهناك ، وقف محمد يقرأ القرآن من مصحف معه بصوت عال ، والناس مندهشين ينظرون إليه باستغراب ، لم يكونوا يعرفون ماذا يقول أو يفعل . وبعد ذلك انزلوا التابوت فى المقبرة ، ونثر الحاضرون الزهور والتراب ، ثم قدموا لى عزاءهم .

كان الحضور جمعا غفيرا ، من الأهل والأصدقاء ، والجيران ، ورجال أعمال وشركاء جاءوا من لندن وجنيف ، والمدير المصرى ، والجيولوجى وزوجته جاءا من انجلترا . كان الجيران يحبون جاك كثيرا ويصادقونه ، رغم

أنهم فى بداية إقامتنا فيما بينهم كانوا يتشككون كثيرا فى أسفاره الكثيرة ، وعزلته وصمته .

اكتظت الكنيسة القائمة فى الجبانة بالمشيعين . وصفت الزهور صفوفا بغير نهاية ، وكنت ترى الزهور على مدى البصر . واضطر الكثيرون إلى الوقوف خارج الكنيسة بعد أن امتلأت عن آخرها . كنت أحس برودة سائدة فى أوصالى ، برودة فى الداخل وبرودة فى الخارج . إن كل مشاعر الحب والعواطف الجياشة التى أبداها العالم من كل أرجائه وفاء لجاك بيتون ، لا يمكن لها أن تملأ الفراغ الذى خلفه رحيله فى قلبى . أعرف أن هذه جميعها مراسم معبرة عن الحب غير أننى لم أكن هناك معهم . كنت معهم بجسدى فحسب . وكنت واثقة من أننى أبدو فى الظاهر فى صورة الزوجة المثلى ، غير أنه لم يكن هناك شىء قادر على أن يعيد قلبى الكسير إلى ما كان عليه . عمد أبى وأمى والطفلان إلى أن يمسكا بى ليعينانى بعد أن خارت قواى وحتى لا أسقط ، كنت قد تظاهرت زيفا خلال الأيام القليلة السابقة أننى أهتم بالحياة ، ولم أكن واثقة إلى أى مدى سأظل متماسكة .

وعقب الدفن دعينا كل المعزين لتناول الطعام كما تقضى التقاليد فى ألمانيا .

وبعد الظهر ذهبنا للمقبرة مرة ثانية حسب الأصول المرعية . وظل دانييل يذهب للمقبرة يوميا لمدة عام تقريبا حتى قلت له :

– دانييل يجب ألا تفعل ذلك ، لأن الذهاب إلى المقبرة يوميا نوع من التعذيب الشديد ، هذا خطأ .

لكنه رفض ، ولا يزال حتى الآن يذهب إلى المقابر كلما صادفته مشكلة .

□ □ □

وعند عودتى للمنزل بعد الدفن أحسست بفراغ هائل داخلى ، ولم أشعر بأى شىء آخر حولى . كنت أثناء الجنازة تائهة لا أدرى بنفسى ، وأتساءل فى

داخلى ماذا سأفعل ، ووقفت أحدق فى التابوت ، وطفلاى بجانبى ممسكان بى ، إذ كانا يخشيان أن أنهار وأسقط على الأرض . ظللت أياما طويلة أرفض أن أصدق أنه مات ، معتقدة أنه فى رحلة ، وسوف يعود إلينا .

قد تكون نعمة أن المشاكل بدأت تحيط بى فى اليوم التالى بحيث لم تترك لى وقتا للتفكير . فقد بدأت لقاءات المحامين ، والمقابلات بشأن مصير الشركة . وبدأت أتصرف كالإنسان الآلى الذى تحركه الأحداث . ففى اليوم التالى للجنازة بدأت المفاوضات لبيع شركة آجيبيتكو . كان القرار قاسيا ، لأن جاك علق عليها آمالا كبارا ، غير أنه لم تكن هناك فرصة للاستمرار ، لأن الشركة غرقت فى الديون . ولم أشأ أن أبلغه فى أيامه الأخيرة كيف ساءت الأمور . ولكنه مات ونحن مدينون بسبعة ملايين دولار هى أموال الشركاء الموصين ، وما استدناه لاستثماره فى الشركة فضلا عن أنه لم يكن هناك أى دخل منها ، بل المزيد من النفقات المفروضة علينا ، انحصر همى الرئيسى فى رعاية موظفى الشركة والحرص على الشركاء والحفاظ على الاسم المتميز لجاك بيتون . لقد تحملت الأسرة نفقات مرض جاك ، وتولت تكاليف إدارة مكاتب الشركة فى ألمانيا ، وفى مصر دون أى عائد . تملكتنى الرغبة فى الجلوس والبكاء غير أنه كان ورائى ناس لأطعمهم ، وأقساط لأسددها ، ولم تكن لدى فكرة عما أفعله حين تحل المواعيد النهائية للسداد .

وعلاوة على التوتر الناجم عن محاولة إيجاد حل لمشكلاتنا المالية ، ظل رأسى مشغولا بالقصة التى رواها لى محمد . لم أكن أريد أن أصدقها غير أنها لاحقتنى . لم أعد أدرى مع من أتكلم بشأنها . أحسست أننى بحاجة إلى شخص يشاركنى ألمى ، والعاصفة التى اجتاحتنى ، ولم أجد من هو أهل لذلك . لم أستطع أن أفهم السبب فى أن جاك اضطر إلى أن يكذب علينا جميعا طوال هذه السنوات ، وهذا ما جعل من الصعب علىّ أكثر وأكثر أن أصدق محمد . فكرت فى التحدث إلى ابنى ، بيد أنه كان لا يزال صغيرا جدا . وأدركت أن أبى وأمى لا يحتملان المزيد وهما فى مثل هذا العمر . ثم إن موت صهرهما وصديقهما قد حطمهما . أما شريكى فى العمل فكان ما يعنيه هو مصالحه

الخاصة ، لم يكن يهمه فى كثير أو قليل ما يصيب الأسرة التى عمل معها ، لذا بات لزاما أن أمضى مكرهة فى معالجة هذه المسألة وحدى .

أدركت أن هذه مشكلة يتعين علىّ أن أحسمها بنفسى . أردت أن استعيد الطمأنينة التى فقدتها منذ أن بدأت هذه العاصفة . ورأيت أن أجرى خلال رحلتى التالية إلى مصر عملية بحث واسعة النطاق قدر المستطاع عن الحقيقة . وحانت الفرصة التالية سريعا . إذ سافرت إلى القاهرة فى العاشر من فبراير ١٩٨٢ ومعى شريك العمل الألمانى . وقابلنا فى المطار مدير المكتب فى القاهرة ومعه زوجته ، حيث حيانى بقوله :

- عزيزتى فالتراود نحن سعداء بأن نراك ثانية هنا . ونرجو لك اقامة طيبة .

شعرت أن كلامه بعيد عن الذوق والكياسة ، غير أنى أدركت أن ما أعانيه ليس مشكلته ولم أكن أريد أن أجعل من ذلك قضية . فقد جئت لمهمة أريد أن أنجزها . وجدير بى أن أكظم أسباب ضجرى . وكان ينتظرنا فى الخارج حجازى صديقنا وسائق سيارتنا . وخفف عنى أن أرى وجها يمكن أن أعتمد عليه . كان زوجى هو الذى وظف حجازى فى الشركة ، وكان حجازى يحب زوجى جدا ، وعلى استعداد لينفذ له أى شىء لكى يرضيه . وقد التحق حجازى بمدرسة لتعلم الإنجليزية ليتفاهم معنا . كان هذا السائق قريبا جدا منا ، واطمأنت نفسى عندما رأيته حاضرا .

ركبت السيارة وانطلقت بنا . لقد أحببت مصر دائما حيث ارتبطت فى ذهنى دائما بأحداث طيبة . وكان من الطبيعى أن يداخلنى شىء من الارتياح والسرور عندما أفد إليها ، غير أنه فى هذه المرة كان يخالجنى شعور غير مريح بالنسبة للرحلة كلها . كنت أعرف أن وجودى هذه المرة ضرورة ، غير أنى كنت أشعر بأن ثمة شيئا خطأ . وقررت أن استمر فقط فى رصد الموقف والآراء . تابعت عن كثب شريكى فى العمل ومدير مكتبنا فى القاهرة . وتساءلت فيما قد يقولونه لو أننى حكيت لهم ما قاله محمّد الجمال عن جاك بيتون ومن يكون . إن العقليات المتباينة لها ردود فعلها المتباينة . فالشريك

الألمانى سوف يقول إنى مجنونة ، أما المدير المصرى فربما يقول إنه يعرف القصة كاملة ، أما حجازى فلن تعنيه القصة فى شىء ولن تغير موقفه منا ، فقد كان طيبا دائما فى معاملته معنا .

كانت الأيام التالية مشحونة بالعمل . دعوت إلى اجتماع فى المكتب وتحدثت إلى العاملين . قلت من بين ما قلت :

– هذه مناسبة حزينة لنا جميعا . لست سعيدة بوجودى هنا الآن ، وذلك بسبب وفاة زوجى ومؤسس شركتنا . أريد أن أشكركم على هذه المشاعر الفياضة التى عبرتم عنها حزنا على جاك ، وآمل فى أن أستطيع الاعتماد عليكم جميعا لمواصلة العمل معى مثلما عملتم معه .

كنت عازمة على أن أقول ما هو أكثر من ذلك غير أننى لم أستطع مواصلة الحديث إذ غلبتنى عواطفى وانخرطت فى بكاء .

لم أدرك حتى ذلك الوقت عمق الصراعات الداخلية فيما يتعلق بسياسة الشركة . ولكننى عندما أرجع اليوم ببصرى إلى الوراء ، يبدو لى أن كلا من المسؤولين فيها كانت تعنيه مصلحته الخاصة فحسب ، وليس مصلحة الشركة .

والواقع إن إدارة الشركة فى هذه المرحلة كانت تمر بمرحلة تسيب ، فلم يعد جاك موجودا لتحقيق الانضباط والحفاظ على تماسك الوضع فيها . وفى ظل هذا ، كان من الطبيعى أن يعمل كل فرد على تحقيق أكبر كسب لنفسه . كان الجميع يريدون التسلق وأن يسبقوا الغير ، بدءا من السكرتارية حتى الإدارة والطاقم الفنى . حتى المدير المصرى ، لم يثمر معه أنى كنت قد زكيته لدى زوجى ، الذى كان قد طلب منى أن ألقاه وأقدم له رأيى فيه ، عندما التقى به عند عودة هذا المدير من إحدى دول الخليج . إذ قال لى جاك حينذاك :

– إن لديك حدسا ممتازا ، لذلك أرجو أن تقابليه وتقولى لى رأيك فيه .

ورغم أنه كان هناك شخص أجنبى آخر مرشح لنفس الوظيفة ، فقد زكيت المدير المصرى لإيمانى بأنه طالما أن الشركة تعمل فى مصر ، فلا بد أن يكون



● لقاء لفالتراود بيتون مع شركاء العمل فى شركة البترول فى فبراير ١٩٨٢ ، بعد وفاة جاك بيتون .

مديرها مصريا ، وأن المصرى المرشح للمنصب كفء له ، لكن هذا المدير أصبح مصدر ضغط كبير علىّ بعد رحيل جاك .

□ □ □

اضطررت إلى القيام بعدة جولات لزيارة المؤسسات التى نعمل معها ، وشكرتهم على ما أرسلوه من بطاقات أو رسائل أو زهور . وأبدوا جميعا مشاعر طيبة .

وكانت الهيئة المصرية العامة للبترول من بين المؤسسات التى زرتها ، لمقابلة رئيسها الذى كان قد أرسل برقية وزهوراً إلى الجنازة . أجلسونى فى حجرة لبرهة ، حتى جاء إليها . أحسست بقشعريرة حين دخل وبادرنى قائلا :

- صباح الخير يا سيدتى ، ترى ماذا يمكننى أن أقدمه لك ؟

تقديرى للموقف أنه فكر وتدبر وقرر الأمر وحده بشأن الاحتمالات المتوقعة لشركة زوجى ، وأنه انتوى تهديدى وتخويفى لكى أسرع بتنفيذ ما يريده .

كانت حربا غير متكافئة ، ولكن كان لا بد لى أن أجاهد لأثبت له أنه ليس من السهل ترويعى ، فأجبته قائلة :

– لست أدرى ما الذى تحاول أن تفعله . إن الامتياز يخص شركة آجيبيتكو وهى شركة ألمانية . وإذا ما قررت بيع شركتى فإننى سوف أبيعها . أنا الذى أقرر ما إذا كنت سأبيع الشركة أم لا . ربما تكون سلطتك كبيرة جدا فى مصر ، غير أنك لا تستطيع أن تصطحبها معك فى ألمانيا . وسوف أعرّفك ماذا أريد أن أفعل عندما أقرر ذلك .

وأجاب دون تمهل أو تدبر قائلا :

– سوف نرى يا سيدتى ، جميل أن رأيناك .

عند هذا الحد نهض واقفا وكأنه يطردنى . وقفت أنا أيضا ، وتصافحنا ، وغادر هو الحجرة وخرجت أنا إلى البهو . كان ثمة شاب واقفا بالخارج ينتظر ، رافقنى على طول البهو إلى أن خرجت . وحدثت مجابهة أخرى بعد شهر من هذا اللقاء .

تذكرت وأنا أغادر الشركة أول لقاء لى مع هذا الرجل . فعندما رأيته للمرة الأولى ، أدركت أنه نوع من سمك القرش ، وقلت هذا لجاك وسألته كيف ينوى العمل معه . لم يكن جاك أبدا من النوع الذى يستسلم ، رغم أن إحساسى أكد لى أن هذا الرجل قد ولد ليأخذ فقط . لكن جاك قال لى :

– يجب أن تعرفى أن ثمة مداخل للتعامل مع هذا النوع من الناس .

وقد استمرت معركتى معه ، غير أننى لم أكن أملك حينذاك من الوسائل ما كان متاحا لجاك .

٨ تجـــربـة فاشـــلة

لم يحضر إلى الفندق طوال أيام إقامتى فى مصر لزيارتى من أسرتى الجديدة سوى شقيق محمد واسمه على الجمال وأمه . لم أر أحدا آخر من الأسرة . فلم أكن أعرف أحدا منهم حتى هذه اللحظة سوى أخت له اسمها نزيهة تعيش فى الاسكندرية . وقد أحست نزيهة بالصدمة عندما رأت دانييل لأول مرة لشبهه الشديد بجاك فى كل شىء ، حتى مقاس أحذيتهما كان واحدا .

□□□

وفى هذه الأثناء سنحت لى هناك فرصة لبيع الشركة . إذ وصلتنى ذات يوم مكالمة تليفونية فى غرفتى بالفندق ، من أحد أصدقائنا المقربين والعاملين فى ذات المجال ، قال لى فيها إنه رتب اجتماعًا بينى وبين شركة بترول أمريكية كبرى ، وأن بعض أعضاء مجلس إدارة هذه المؤسسة موجودون فى مصر للبحث عن شركة لها حقوق امتياز ، وأنا عندى شركتى معروضة للبيع . بدت لى هذه الفرصة هدية من السماء . وبالفعل أبرمت اتفاقا معهم ، تضمن الحفاظ على مصالح العاملين المصريين ، وفرغنا من جميع الاتفاقات الأولية ، ليجرى بعد ذلك عرضها على رئيس هيئة البترول المصرية . وأبديت لمديرى الشركة الأمريكية بعض التحفظات بشأن تعاونه فى ضوء لقائى الأول معه غير أنهم قالوا لى لا عليك من هذا .

وكما توقعت ، فقد رفض الرجل العرض الذى تقدمنا به . ولم يقتصر

الأمر على رفض العرض بل جعل هذا الرفض مسألة شخصية . لقد أعلن من البداية أنه لن يسمح لى ببيع أى شىء لأى أحد ، وأكد تصميمه على هذا . صدمنى رأيه . فهذه صفقة فيها خير للعاملين ، وخير للشركة الألمانية ، وخيز لمصر حيث سيحقق المصريون منها دخلا أسرع إذا ما باشرت هذه الشركة نشاطها . ولكن يبدو أن أصحاب المناصب العليا ينسون أحيانا المصالح التى يشغلون هذه المناصب لخدمتها ، ومن ثم يقحمون مشاعرهم الذاتية فيما يتولونه . لم يكن لدى آنذاك ما يمكن أن أفعله أكثر من هذا .

وجاء عرضان آخران ، ولكن لم ينته أى منهما لنتيجة . وانزعجت بسبب الصراعات بين المديرين فى مكتبنا بالقاهرة ، لذلك رأيت أن أعزز العلاقات بينهم وأدعم الروح المعنوية لديهم ، واعتقدت أنه ربما تكون فكرة طيبة أن أدعوهم معا بصحبة زوجاتهم على العشاء فى شيراتون هليوبوليس حيث أقيم ، وأقدمت على ذلك بالفعل .

وبينما كنت انتظر وصول الضيوف فى ردهة الفندق سرحت بخاطرى مستمتعة بأحلام اليقظة وعيناى تتابعان الناس هنا وهناك . وفى هذه اللحظة ظهر أمامى رجل فى شرخ الشباب قدم لى نفسه باعتباره موظفا فى شركة بترول ، وأعرب لى عن تعاطفه العميق لوفاة جاك ، وأبدى رغبته فى دعوتى لتناول شراب معه هو ورفاقه . شكرته ورفضت .

وعندئذ سمعت صوتا ورائى يقول :

- هل أنت صاحبة بنك ؟

أجبت قائلة :

- لا ، ليتنى كنت كذلك .

قال :

- ماذا تفعلين هنا ؟

- أنا هنا فى عمل ، ولكنى فى التو واللحظة انتظر ضيوفا لى .

قال :

- هل يمكن أن نلتقى بعد ذلك ؟

أجبت قائلة :

- نعم ، ربما .

وفى هذه اللحظة وصل ضيوفى . تناولنا العشاء معا فى الخيمة الشعبية ، القائمة فى حديقة الفندق . بدا الجو متوترا للغاية ، وكان كل منهم يحاول جاهدا أن ينفذ ببصيرته ليستكشف ماذا عساى أن أفعل أو أقول . وواقع الأمر أننى لم أكن أزمع إثارة أى موضوعات فى هذه السهرة ، ومن ثم اندمج الجميع فى العرض الترفيهى . وفى حوالى الساعة الثانية صباحا انصرف الضيوف جميعا ، وأزف الوقت لكى آوى إلى فراشى .

سرت ببطء عبر رواق الفندق فى طريقى إلى المصعد ، وأنا تائهة مع أفكارى عن مكائد المكتب . وفجأة سمعت صوتا يتحدث إلـىّ :

- ها أنت . ظللت أبحث عنك طوال الليل .

رأيت نفس الرجل الأنيق الذى كان يتحدث إلـىّ قبل وصول ضيوفى واقفا هناك . كان طويل القامة ، أبيض الشعر ، صارم الوجه مع سمرة خفيفة ، وله عينان خضراوان فيهما تأثر شديد . وسألنى :

- هل انصرف ضيوفك ؟

- نعم ، الآن توا ، تناولنا العشاء فى الخيمة .

- بحثت عنك هناك فلم أجدك . اسمحيلى أن أقدم لك نفسى . اسمى إيهاب نافع . أرجوك أن تنادينى إيهاب . وما اسمك ؟

- فالتراود بيتون .

- أوه انه معقد جدا . سأكتفى بأن أدعوك فيفى . هل لى أن أدعوك على شراب ؟

تطلعت إليه لحظة ، وتبين لى أننى لست متعبة جدا . حسدته على سلوكه الهادىء بالمقارنة بكل الظلام المحيط بى .

أجبته قائلة :

- ولِمَ لا ؟

ذهبنا معا إلى صالة الديسكو بالفندق . كانت شبه خالية فى تلك الساعة . تحدثنا وكانت إنجليزيته جيدة جدا وطلب لى شرابا . جميل أن أجلس إلى إنسان لا علاقة له بالنفط وبمشكلات الشركة . وبدأت الفرقة تعزف Feelings ، وسألنى عما إذا كنت أريد أن أرقص . فجأة ألمّ بى التعب ثانية ، وتطلعت إلى ساعتى فوجدتها قريبة من الرابعة صباحا ، وقلت له :

- لا ، شكرا يجب أن أذهب إلى غرفتى لأنام الآن .

رافقنى إلى المصعد ، ثم إلى باب غرفتى وقال لى :

- هل لى أن أراك ثانية ؟

رددت نفس عبارتى :

- ولِمَ لا ؟

- لماذا لا تتناولين العشاء معى الليلة ؟ سوف أنتظرك فى بهو الفندق الساعة الحادية عشرة مساء .

أومأت برأسى وقلت له ليلة سعيدة . أحنى رأسه وطبع قبلة خفيفة على جبهتى . ودون أى تعليق دخلت غرفتى وأغلقت الباب . اتجهت ناحية النافذة وأخذت أتطلع إلى حمام السباحة . لا أحد هناك . بدأت الشمس تشرق ، فخلعت ملابسى وآويت إلى فراشى .

□ □ □

وبينما أنا فى سريرى تعجبت لما حدث . تساءلت ترى ما هو الخطأ فى علاقتى بجاك الذى جعله يحجب عنى هذا السر الجلل ، وما سبب موقف رئيس

هيئة البترول وكيفية التعامل معه . لم أكن أدرى شيئا غير أننى عزمت على أن أكشف أكبر قدر ممكن من المعلومات . بيد أننى كنت فى حيرة لا أدرى من أين أبدأ . وبدأت أتساءل فى نفسى هل يستطيع السيد نافع ، أو يرغب فى مساعدتى . إنه يتحدث الإنجليزية وهو مصرى ، ولا علاقة له بما يجرى من أحداث ومواقف . استسلمت للنوم ، وفى ظنى أنه سيساعدنى .

□ □ □

فى الساعة العاشرة صباحا دق التليفون . شدنى الجرس من نومى العميق ، والتقطت السماعة وكان المتحدث هو على الجمال ، ابن شقيق زوجى والموظف بالشركة الذى بادرنى قائلا :

– فالتراود ، أنا فى بهو الفندق .

أجبته قائلة :

– كم الساعة الآن ؟

– العاشرة صباحا ، ولدينا موعد للإفطار .

– على ، من فضلك انتظرنى فى المقهى . سأنزل بأسرع ما يمكن .

هرولت إلى الدش لاستحم ثم نزلت إلى المقهى . وبينما أسير فى طرقة المقهى أبصرت السيد نافع جالسا هناك مع رجل آخر . وأعربت عن اعتذارى لعلى بسبب تأخرى .

– فالتراود ، لقد طلبت أن التقى بك لأنى أعتقد أنك تواجهين مشكلات فيما يتعلق بحقيقة جاك . ربما استطيع مساعدتك . أريد أن أحكى لك كل ما أعرفه .

بدأ علىّ يتحدث عن أسرة زوجى الراحل . تطلعت إليه متعجبة وأنا أتساءل فى نفسى عما يريد . تحدث عن كل أفراد الأسرة ، ولكن يبدو أن الجميع تعمدوا نسيان ذكر نزيهة أخت جاك . ظننت أنه ربما يريد مساعدتى ، غير أنه لم يذكر كلمة واحدة عن نشاط جاك كعميل سرى . واكتفيت بالإنصات إليه ، فقد بدا أنه لا يعرف شيئا .

– تعرف يا علىّ إننى أحببت عمك حبًّا كبيرا جدا ، وسوف تظل له مكانة خاصة فى قلبى . بيد أننى لا أفهم لماذا لم يخبرنى أى شىء عن هذه الأنشطة الأخرى ؟ أريد أولا أن أعرف رأسى من رجلى ، ثم بعد ذلك لن أدع حجرا إلا قلبته حتى اكتشف الحقيقة ؟ أريد الحقيقة لراحة بالى ، ثم إنى مدينة بها لطفلى . لست أدرى هل سأنجح فى ذلك أم لا ، ولكن الزمن سيبين كل شىء .

بذلت أقصى ما أملك من جهد لأحبس الدموع المتفجرة فى أعماق نفسى . أحسست أن البرودة التى بدأت اكتشفها هى الوحدة الموحشة . وشعرت أننى بلا حول ولا قوة . قال لى علىّ :

– هل لك أن تقولى إن ما فات مات .

أجبته قائلة :

– كيف أفعل ذلك . إن جميع الوثائق التى معى تؤكد أننا ننحدر من أسرة بيتون ، وهى أسرة طيبة من اليهود الفرنسيين . وواضح أن الأمر ليس كذلك . ماذا أفهم من هذا ؟ كيف أفسر ما جرى لطفلى ؟ لا ، لا بد لى أن أكتشف الحقيقة . هيا بنا يا علىّ ، يجب أن أذهب إلى المكتب . فهناك ما هو أسوأ ينتظرنى .

ما أن نهضنا واقفين ، وخطونا إلى خارج المقهى حتى لمحت عيناى إيهاب نافع . كان لا يزال جالسا هناك برفقة صديقه لتناول الإفطار ، غير أن نظراته أعطتنى إيحاء بأنه على علم بمشكلاتى .

كان حجازى السائق ينتظرنى فى الخارج . ركبت السيارة إلى المكتب حيث أجابه مشكلات يوم آخر . كانت الأمور هناك آخذة فى التدهور . لم يحدث أى تقدم بشأن البيع . وقد أزف وقت دفع المرتبات وتسديد الكمبيالات . اتصلت تليفونيا بوالدى فى ألمانيا ورجوته أن يحول لى مبلغا من المال لمواجهة التزاماتى .

كنت أريد مشتريا ملائما وقادرا . وكان المدير المصرى وعدد من العاملين فى مستويات عالية قد بدأوا يسفرون عن استيائهم منى وعدائهم لى . وبعد

قضاء يوم عصيب فى العمل طلبت من حجازى أن يعود بى إلى الفندق . وبينما نحن فى الطريق سألنى :

– سيدتى ، إذا كان ثمة ما استطيع أن أؤديه لك ، فأرجو أن تطلبى ذلك منى . إذا كانت لك رغبة فى الخروج هذا المساء فسوف انتظرك بالسيارة أمام الفندق وأقود السيارة إلى حيث تشائين تماما مثلما كنت أفعل دائما مع السيد جاك . أود فقط أن أساعدك بكل وسيلة ممكنة . أرجو أن تطلبى ما تشائين .

– هذا جميل جدا منك يا حجازى . ولكننى فى الحقيقة لست بحاجة إليك اليوم . أرجو أن تنتظرنى غدا عند الفندق فى الساعة الثامنة صباحا . شكرا لك للمرة الثانية على عرضك ، وسوف أراك غدا . لا تشغل بالك بشأنى ، وكل شيء سيكون على ما يرام .

خرجت من السيارة ومشيت ناحية الاستقبال لآخذ مفتاحى . تسلمت مع مفتاح الغرفة حزمة من الرسائل . لم أكن أريد سوى أن آوى إلى غرفتى واستحم واسترخى . فلم يكن للرسائل التى تلقيتها شأن كبير ، ومن ثم كان يمكن أن تنتظر إلى الغد . كانت إحداها من إيهاب نافع وجاء فيها :

« عزيزتى فيفى

رجاء ألا تنسى موعدنا الليلة ، يسعدنى أن أراك .

إيهاب »

استغربت الاهتمام الشديد بى الذى يبديه هذا الرجل ، ومع هذا ازداد حماسى لحلول المساء .

لا بد وأننى نمت نوما عميقا ، لأننى عندما استيقظت وجدت أن الساعة هى السابعة مساء . نهضت من فراشى وشرعت أتهيأ لموعد العشاء . ونزلت إلى البهو فى الساعة الحادية عشرة لمقابلة إيهاب .

أبصرته واقفا وظهره لى ، يحادث رجلا لا بد وأنه كان يعرفنى لأنه أخبره بوصولى إذ استدار على الفور وابتسم لى ، وهو يقول :

– خشيت ألا تحضرى .

رددت بعبارة واحدة فقط :

- قلت إننى سأحضر ، وأنا التزم بكلمتى .

- فالتراود بيتون هذا صديقى بيل سميث . إنه من ميامى . سوف ينضم إلينا هذا المساء . هيا بنا الآن ؟

- وهو كذلك .

قصدنا موقف السيارات ، ووقفنا قبالة سيارة أمريكية فارهة ، نظيفة ومريحة . ربما بدت مسرفة قليلا فى مظاهر الأبهة بالقياس إلى الأجواء المحيطة ، غير أنه كان لدى شعور بأنه رجل تعنيه مظاهر البذخ . والواقع أننى كنت حينذاك فى حاجة إلى المزيد من مظاهر السحر والتباهى بالنفس ، واعتقدت أننى ربما أجد معه ما أنشده . أنكرت على نفسى الشعور بعدم الأمان نظرا لوجودى وحدى فى سيارة مع اثنين من الرجال الغرباء ، وقررت أننى بحاجة إلى قدر من التسرية البريئة تلهينى عن روتين حياة العمل اليومى .

وعندما سألنى إيهاب إلى أين أريد أن نذهب ، لم أجب . وعندما اقترح الأهرامات بدا لى اقتراحا معقولا ، وأردفت :

- لقد استهوتنى الأهرامات دائما ليلا ، واعتدت أن أذهب إلى تلك المنطقة فى كل زيارة من زياراتى إلى القاهرة .

قال صديقه الأمريكى :

- أوه ، امرأة مصرية .

- لا ، ولكن الأهرامات جميلة جدا .

واتصل الحديث على هذا النمط إلى أن أبصرت فى النهاية أضواء الأهرامات أمامنا ، مما أعاد إلى الذاكرة والإحساس ، الحب الكبير الذى أكنه لهذا البلد ، والرجل الذى علمنى حب مصر . وتذكرت أنه قبل يومين من وفاة جاك قال لى :

- سأبقى دائما إلى جانبك لا تخشى شيئا . سأبقى دائما مع الطفلين

ولا تقلقى . إذا أقدمت على عمل أى شيء ، اعملى ما هو صواب . ليس عليك إلا أن تؤمنى بنفسك .

لست أدرى لماذا فاض خاطرى بهذه الكلمات حينذاك ، وأدركت أننى ما أزال غائبة مع أفكارى ، وأنه حرّى بى أن أتعلم كيف أعيش فى الحاضر .

وعندما وصلنا إلى الأهرامات طلبت من إيهاب أن يتكرم بالدوران حولها مرة ، فقد اعتدت دائما أن استمتع بهذه الجولة .

وبعد جولتنا حول الأهرامات اتجهنا إلى مينا هاوس . سبق لى أن ذهبت إلى هناك ووجدته مكانا يوفر لى البهجة والاسترخاء . تناولنا العشاء فى الملهى الليلى ، واستمتعنا بعرض الرقص البلدى . وهكذا قضينا وقتا جميلا .

لم استشف أى شيء بالنسبة للرفيقين ، غير أننى قضيت معهما وقتا طيبا . وكانت هـذه هى أول مرة منذ زمن طويل أشعر فيها بحالة من الاسترخاء ودون ضغوط .

بدت شوارع القاهرة خالية تماما فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . وبينما نحن فى طريق العودة أوقفتنا الشرطة . وبدا واضحا أن رجل الشرطة يعرف إيهاب . إذ رأيت ما يشير إلى أنه تعرف عليه . وتحدث إليه ، ثم تركنا ننصرف . أدهشنى هذا غير أننى لم أقل شيئا . عدنا إلى الفندق .

سألنى إيهاب :

- هل أراك غدا ؟

- ربمـا .

- هل أتصل بك تليفونيا ؟

- الحق أننى لا أدرى متى سأعود من المكتب .

- وهو كذلك إذن سأواصل المحاولة .

- وهو كذلك .

دخلت المصعد ، ودلفت إلى حجرتى .

على مدى الأسبوعين التاليين أمضيت وقتا طويلا مع الرجل . كان تسرية عن النفس ، ارتحت لها للتخفف من مشكلات الحياة اليومية . تحدثنا معا مرارا . واكتشفت أنه ممثل مشهور . وحكيت له مشكلاتى مع شركتى والألغاز المحيطة بشخصية زوجى الراحل . وحكى لى عن طلاقه الذى وقع مؤخرا جدا . وأخبرنى أن له اتصالات ، وسوف يساعدنى للحصول على معلومات بشأن زوجى الراحل . وصدقته .

بدا واضحا أننى حققت فى هذه الرحلة أقصى ما يمكن الوصول إليه ، ومن ثم عدت إلى ألمانيا .

□ □ □

واصلنا المفاوضات التى بدأت فى مصر بعد أن عدت إلى ألمانيا . كنت ما أزال غير متأكدة من طبيعة القوى التى تعمل ضدى ، وأجرى وراء أى بارقة أمل . وحدث وأنا فى مصر أن اتصلت عن طريق مدير مكتبنا المصرى ، بمحام مصرى عرض التوسط مقابل عمولة لعقد صفقة مع شركة أمريكية أخرى . وعلى الرغم من تزايد شكوكى بشأن كل العروض والاقتراحات ، فقد كانت الحاجة ملحة إلى بيع الشركة حيث كان الأمل فى تحقيق أى عائد عن طريقها بعيدا بينما كنت أسدد المرتبات والنفقات من جيبى الخاص . ولذلك ، فعندما طلب المحامى دفع عشرين ألف دولار كمقدم من عمولة الوساطة التى سيقوم بها ، فقد أعطيتها له . وأوضحت له من البداية أنه من الصعب إيجاد مخرج لأن رئيس الهيئة المصرية للبترول يعارض البيع . ولكنه قال لى إنه لا يرى فى هذا مشكلة . وأضاف أنهما صديقان حميمان ، ويعرف كيف يعالج الموقف معه ، ولا داعى للقلق من جانبى .

وبناء على الاتفاق مع هذا المحامى تلقيت دعوة لاجتماع يعقد فى لندن مع شركة النفط الأمريكية المعنية المشار إليها ، وأن أحضر على نفقتى الخاصة . وطار إلى هناك أيضا مدير مكتب شركة آجيبيتكو فى القاهرة باعتباره صاحب

مصلحة فى هذه الصفقة . ولم أكن أدرى حتى هذه اللحظة أنه سيتقاضى ٥٠ فى المائة من عمولة السمسرة .

وعندما وصلت إلى لندن التقيت بصورة عارضة مع وزير البترول المصرى حيث أعرب لى عن أسفه العميق لخسارتى الفادحة ، وأشار علىّ بالتخلى عن العمل فى مجال البترول ، إذ قال :

– سيدتى لك عزاؤنا الصادق فى وفاة زوجك . كم أحببته كثيرا جدا ، وسنظل نحمل له ذكريات طيبة . غير أن الحياة لا بد وأن تمضى ، وجدير بك أن تستمعى إلى نصيحة من يهمهم أمرك . وأنا أنصحك بالتخلى عن شركتك . وأولى بك أن تهتمى بنفسك .

وكان ردى الوحيد :

– شكرا لمعاليك ، وإنى سعيدة بهذه الفرصة للتحدث إليك . أشكرك على نصيحتك وفهمك للأمور .

ربما كان من الأفضل أن أقول له إننى حاولت ذلك غير أن أحد العاملين لديه ، وهو رئيس هيئة البترول ، يسد الطريق أمامى .

قابلت المحامى الذى وكلته عنى وذهبنا للغداء فى أحد المطاعم . وهناك فوجئت برؤية « صديقى القديم » رئيس هيئة البترول المصرية فى المطعم . أصر المحامى على أن نتوقف أمام المائدة التى يجلس إليها لنحييه على الرغم من أن نفسى كانت تعاف ذلك . وأصر على أننا نستطيع تبادل كلمات المجاملة الآن . وحين دنونا من المائدة كشف هذا الرئيس عن مدى الكياسة التى يتحلى بها كرجل مهذب حيث بقى جالسا فى مكانه . أومأ لى برأسه كأننى شخص عابر ولم يوجه حديثه إلىّ مباشرة . تحدث إليه المحامى بالعربية ثم اتجهنا إلى طاولتنا .

عافت نفسى الطعام إذ سادت القاعة رائحة جعلتنى أفقد شهيتى ، وانتظرت . انتظرت حتى يأتى ممثلو شركة النفط الأمريكية . انتظرت حتى

ترحل تلك الرائحة الكريهة التى أفسدت علىّ كل أحاسيسى . انتظرت عسى أن يتبدل شعورى إلى الأحسن تجاه الوضع كله السائد من حولى .

ولم يحضر العميل الذى دفعت من أجل الاجتماع به عشرين ألف دولار . وشعرت بأسف كبير لأنى أنكرت حسى الفطرى الباطنى بأن جميع من قابلتهم يحاولون اللعب علىّ وخداعى ، وأن « المال والسلطة » هما أساس اللعبة ، وأن سبيلهم فيها هو أنهم يملكون السلطة ويطمعون جميعا فى الحصول على المال بأسرع ما يمكن .

وفى صباح اليوم التالى تناولت الإفطار مع المحامى . قلت له :

– أعتقد أن ما يجرى هنا أمر شديد الغرابة .

– لماذا ؟ إن عدم عقد اجتماع لأن أحد الأطراف لم يحضر ، أمر كثير الحدوث .

– ولكن أنت كمحام موكل عنى رسميا ينبغى أن يكون بمقدورك ضبط مثل هذه الأمور .

– حتى مع كونى محاميا ، فإننى لا أستطيع أن أنجز كل شىء ، لماذا لا تستمتعين بإفطارك . ليس من المعقول ألا يشغل بالك شىء سوى العمل . أنت امرأة جذابة ، وبإمكانك مع قدر بسيط من المرونة أن تجعلى حياتك أيسر كثيرا .

– مع من أكون مرنة ؟ ربما معك ؟

– ولم لا . يمكن أن أفيدك جدا فى أمور كثيرة .

– أين ؟ فى مصر ؟

– نعم ، فى مصر بالطبع . لا بد وأنك لاحظت علاقاتى الوثيقة مع أصحاب النفوذ . أستطيع أن أقدم لك الكثير ، سيكون ذلك مدعاة لسرورى .

– ألا تظن أنك تطالبنى بثمن مرتفع للغاية ؟

– لا .. لماذا ؟ أنت كامرأة ستستغلين نظراتك الجميلة لمصلحتك الخاصة .

- ربما أفكر فى هذا غير أننى بحاجة إلى بعض الوقت .

- لا تطيلى التفكير فى العرض الذى قدمته لك لأنه لن يبقى معروضا إلى الأبد .

تركت الحديث يمضى وأنا أحاول أن أبقى هادئة فى الظاهر ، هذا بينما كنت أغلى من الغضب فى داخلى . بيد أننى عقدت العزم على ألا أدعه يعرف ما أفكر فيه بشأنه هو والعرض الذى تقدم به .

وكانت آخر كلماته فى تلك الجلسة :

- سيدتى العزيزة ، سيكون من دواعى سرورى إذا تكرمت بمصاحبتى على العشاء الليلة . وإلى أن يحين ذلك يكون قد تهيأ لك وقت للتفكير فى الأمر .

لم أمهله وقت فى عجلة « مع السلامة » ، وعدت أدراجى على الفور إلى فندقى . ظللت أمشى وطال بى السير ، بيد أننى كنت بحاجة إلى هواء نقى . وبعد ثلاث ساعات كنت على متن الطائرة عائدة إلى فرانكفورت .

لم أكن أريد شيئا سوى العودة إلى البيت حيث طفلىّ وأبى وأمى . فاليوم ، السادس من مارس ١٩٨٢ ، كان يوافق عيد ميلاد أمى ، وسوف يجتمع شمل الأسرة . وعندما وصلت أحست أمى فورا أن ثمة شيئا خطأ ، وسألتنى عما حدث :

- هل مضت رحلتك على ما يرام ؟

- نعم يا أمى ، كل شىء حسن . أنا فقط متعبة قليلا .

- لا ، لست أبدا على ما يرام ، وأظن أنك تفرطين فى إجهاد نفسك .

- بعد أن أنام الليلة نوما عميقا سأعود إلى أحسن أوضاعى .

ماذا أقول لهذه السيدة المعذبة التى لا يشغل بالها شىء بعد وفاة جاك سوى أمرى أنا وحفيديها ، كيف أحكى لها ما حدث لى فى لندن .

وفجأة ومض فى رأسى خاطر كالبرق : ها أنذا أغضبت ثانى رجل له نفوذ ، وهكذا ستتفاقم مشكلاتى .

□ □ □

سافرت عائدة إلى القاهرة في إطار جهودي المتصلة للبحث عن مشتر . كان الناصح الأمين الذي بقي لي هو محامينا الألماني . كنت أعرض عليه عملياتنا وأشرح له عملي ، وكان يؤازرني ، فقد بدا لي واضحا أن كل الأطراف الأخرى المعنية قد انتصر عليها « صديقي القديم » رئيس الهيئة .

ولاحت في الأفق إمكانية حقيقية للبيع لمجموعة من الكنديين التقيت بهم في ألمانيا ، واستمرت المفاوضات مع ممثل المشترين ، ونظرا لأن الأوضاع بدأت تبشر بالتحسن ، فقد سافرت إلى كندا لمناقشة إمكانية بيع آجيبيتكو مع مديري الشركة الكندية المتقدمة بطلب الشراء . سارت الأمور هذه المرة سيرا حسنا حتى وقعنا في الأول من أبريل ١٩٨٢ في القاهرة خطاب نوايا يفيد بأنهم سوف يشترون شركة آجيبيتكو .

وحتى ذلك الحين كانت مشكلاتي المالية مع الشركة والموظفين لا تزال تؤرق حياتي . لم يكن لدى وقت للتفكير بشأن أنشطة جاك في العمل السري ، فقد تزاحمت الأحداث وتدافعت حولي بحيث لم أجد فرصة للالتفات إليها . ولم أستطع أن أولي ثقتي لأحد بشأن مشكلات العمل . ولكن بعد توقيع العقد ، استقر عزمي وفكري هذه المرة تلقائيا على التنقيب في مسألة أن زوجي الراحل كان جاسوسا . وأدركت أنني لم أعد مشغولة بنفس القدر كما كان الحال من قبل ، وأنه أصبح بإمكاني الآن أن أحاول تحديد الإتجاه الذي أسير فيه للحصول على معلومات في هذا الشأن . لكن لم تكن لدى أي فكرة من أين أبدأ ، ولا كيف أتصرف ، لكنني كنت قد عقدت العزم على أنه لا بد لي من أن أعرف الحقيقة ، وأن أعرف كل شيء . كدت أجن من فكرة أنه أساء استخدام ثقتي به . لن تكون المهمة سهلة ، ولكن يجب أن أحاول .

□ □ □

كان إيهاب ينتظرني في الفندق ، بدا مزاجي رائقا أكثر بعد أن ذهبت الشركة إلى من يرعاها ، وبادرني بقوله :

– فالتراود يجب أن نتزوج . لا يليق أن يرانا الناس معا طوال الوقت دون زواج .

- ولكن لا أستطيع الزواج ، ولما لم يمض وقت طويل على وفاة جاك . لا أعرف إن كان هذا ممكنا .

- بل ممكن . أعرف ذلك ، أنا أحبك .

لم أكن أعرف ماذا أفعل . فقد وقع هذا بعد فترة قصيرة من وفاة زوجي ، وكان لا يزال برأسي الكثير مما يثير ارتباكه . والواقع أننى كنت قد بدأت أترقب رؤية إيهاب مثلما شرعت أثق فيه . وكانت أعصابى لا تزال ثائرة بفعل العروض المستمرة الوقحة التى تعرضت لها . أما إيهاب فقد ظهر دائما فى صورة الشخص الواضح الصريح ، واعتقدت أنه يمكن لنا أن نبنى حياة مشتركة . وبعد حوار طويل مع نفسى وافقت .

أحضر لى ورقة . الشيء الوحيد الذى فهمته مما هو مكتوب عليها هو اسمى واسم أبى وأمى . إذ كانت مكتوبة كلها بالعربية . وطلب منى أن أوقع عليها قائلا لا تقلقى فقط وقعى هنا . وقعت وتزوجنا .

مكثنا فى فندق هيلتون النيل أسبوعا آخر . التقيت ببعض أفراد أسرته غير أننا اضطررنا إلى السفر ، إذ كان له عمل فى أمريكا ينبغى له أن يقوم به ، وكان علىّ أن أعود إلى ألمانيا . واتفقنا على أن يعود بعد ذلك إلى ألمانيا ليلحق بى ويقابل أسرتى .

واستمرت مفاوضات بيع الشركة إلى أن بيعت فى الحادى عشر من يونيو ١٩٨٢ . لم أجن من الصفقة مالا كثيرا ، ولكنها أنقذت وظائف العاملين وأموال المستثمرين ، كذلك فإن الشركة التى اشترت آجيبيتكو وظفتنى ، أنا وشريكى لديها كمستشارين ، لكنها توقفت عن دفع راتبينا قبل تاريخ انتهاء تعاقدنا .

□ □ □

بعد بيع الشركة أصبح بإمكانى أن استرخى قليلا ، فقد بدا وكأن قدرا هائلا من الضغوط قد انزاح عنى . وحضر إيهاب إلى ألمانيا لأول مرة لمقابلة أسرتى ، وسعدت برؤيته . غير أن حبى له لم يكن مثل حبى لجاك .

أحسست أننى بحاجة إليه ليساعدنى على ملء فراغ هائل فى نفسى . وقبله الطفلان كرفيق لى ، ولكن دون إبدال صورة أب بصورة أب آخر . فهذه المكانة ستظل قصرا على جاك . عاودت السفر جيئة وذهابا إلى مصر لأداء دورى الجديد كمستشارة للشركة وزوجة لإيهاب نافع .

وخلال فترة لاحقة من ذلك العام بلغ ابنى دانييل الثامنة عشرة من العمر . واستخرج رخصة قيادة سيارة ، وكانت تلك مناسبة سعيدة ، فهى إيذان بأنه بلغ مرحلة الشباب ، وتلك فرصة للاحتفاء بها فى ألمانيا .

□ □ □

وأثناء وجودى فى مصر ذهب أبى وأمى لقضاء بعض الوقت فى بيتهما فى إيطاليا ، وفى غيابهما عن البيت مرض دانييل ، ومن ثم كان لا بد من عودتى إلى هناك .

كان الوقت لا يزال مبكرا على عيد الميلاد . سيكون هذا أول عيد ميلاد بدون جاك ، غير أن الاحتفال بالعيد كان جزءًا من التقاليد التى نلتزم بها ، وحاولنا أن يكون إيهاب جزءا أساسيا فى الاحتفال .

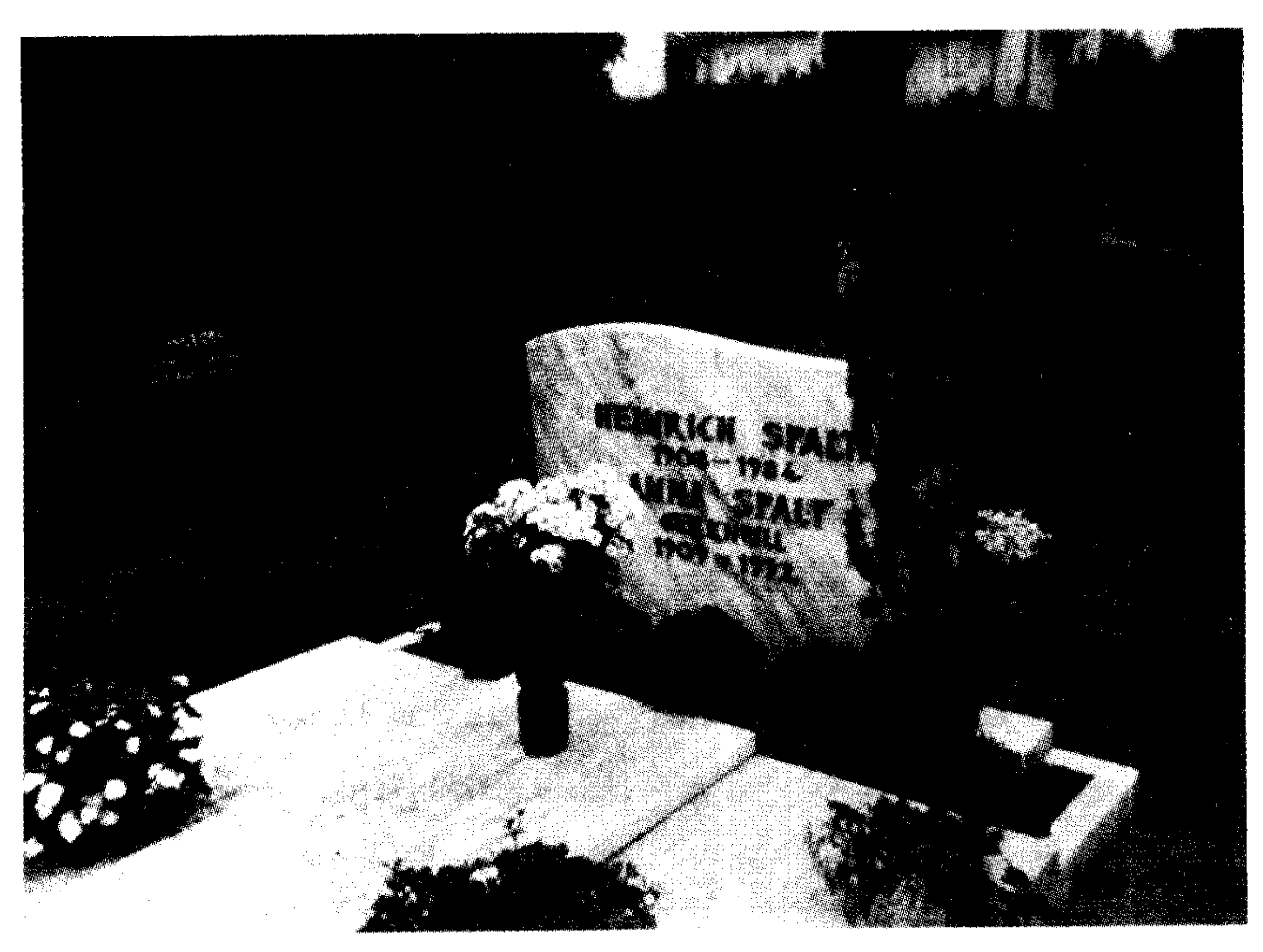
ومن سوء الحظ أن عام ١٩٨٣ أعاد عقارب الساعة إلى الوراء ، إذ ألمّ بأبى مرض عضال وتوقفت الشركة التى اشترت آجيبيتكو عن دفع رواتبنا حسب الاتفاق ، وهكذا تزايد ضغط الوضع المالى .

وتدهورت حالة هاينريتش المرضية . وبات ملازما للفراش . وتكاتفنا جميعا لرعايته .

□ □ □

وفى أغسطس وأثناء رحلة لى إلى القاهرة رتب لى إيهاب لقاء مع مسؤول من جهاز المخابرات المصرية .

التقينا فى بهو الفندق . وكل ما يمكن أن أقوله عن الرجل إنه شخص



● مقبرة والدى فالتراود ، هاينريتش وآنا شبالت قرب مقبرة جاك فى ١٩٩٣ .

يصعب وصفه ، لكنه بدا لى ملائما تماما للعمل الذى يقوم به ، ذلك أنه يمكن أن يكون أى إنسان ، حسن السلوك ، جم الأدب ، جيد الاستعداد للمساعدة ، وأعتقد أنه كان ممتازا فى عمله .

حضر ومعه ملف لم يسمح لى بالنظر فيه . ولكنه أكد لى جميع الأقوال التى كنت قد سمعتها من قبل ولم يقم عليها دليل ، بل وأكد ما هو أكثر .

قال لى :

- مسز بيتون ، جئت إلى هنا لأتحدث إليك ، أفهم أن لديك تساؤلات عن حياة زوجك الراحل جاك ، لا أستطيع أن أحكى لك كل شىء غير أننى سأحاول أن أملأ ما استطيع من ثغرات .

إن زوجك جاك بيتون ، أو رفعت على سليمان الجمال يعمل معنا . وقد ولد فى دمياط فى مصر ، فى الأول من يوليو ١٩٢٧ ، من أبوين مصريين ،

وكان له أخوان وأخت : سامى الجمال أخوه الأكبر غير الشقيق من أبيه على سليمان . ولبيب الجمال أخوه الشقيق والتالى فى سلسلة الأبناء ، ونزيهة ، وزوجك هو أصغر الأخوة .

أعرف أنك اتصلت ببعض أبناء هذه الأسرة . محمد الجمال هو ابن سامى . ومن المحتمل أنك التقيت بلبيب .

لا شك أنك سوف تلتقين بآخرين من أبناء أسرته الحقيقية ، غير أننى هنا لأحكى لك تاريخه الشخصى .

عندما التقينا برفعت كان متورطا فى أنشطة مثيرة للشكوك . ولاحظت أجهزة الشرطة المعنية ما يتحلى به من ذكاء ، وتقرر إتاحة الفرصة له للبقاء خارج السجن عن طريق العمل معنا .

ووافق نظرا لعدم وجود بدائل متاحة أمامه ، وشرعنا فى تدريبه . واستطعنا بعد فترة إعداد وتطوير أن ندسه فى إسرائيل باسم جاك بيتون .

نجح جاك فى أن يحيا ، ويعمل داخل إسرائيل على مدى ١٨ عاما دون اكتشاف أمره . واستطاع خلال هذه الفترة أن يقدم مساعدة هائلة للقضية التى تهم دولتنا . كان زوجك بطلا . ومن الأمور التى يفخر بها رفعت أنه استطاع تفادى العنف ، فى هذا المجال الذى استمر يعمل فيه أكثر من عشرين عاما بفضل مواهبه .

كان ردى الوحيد الذى تهيأ لى آنذاك هو قولى له :

- حسن ، شكرا جزيلا على حضورك .

بعد المحادثة ، التى كانت أشبه بحديث من طرف واحد ، مع هذا السيد ناقشت أنا وإيهاب الموضوع فى غرفة الفندق . كنت أظن أننى سأتخفف من العبء الذى كنت أحمله بفضل هذا اللقاء غير أننى أحسست أن العبء لا يزال ثقيلا كما هو . لم أكن أعرف بالدقة ماذا أريد ولم أحصل عليه بعد . أيقنت أننى لا بد لى أن أواصل المحاولة ، ولكن بعد هذه المعلومات بات لزاما أن أحاول

اتخاذ بعض القرارات : هل أقول لأسرتى عن جاك أم احتفظ بالموضوع لنفسى ، وإن قلت فماذا أقول . هل هناك أحد آخر أتحدث معه فى الموضوع ، وماذا أفعل بعد ذلك ؟ وغير ذلك كثير ، وأدركت إنه لن يحدث هنا أكثر مما حدث ، ومن ثم عدت إلى ألمانيا .

وعند عودتى لألمانيا ، وجدت أن حالة أبى تدهورت ثانية . فقد أصبح طريح الفراش ، مصابا بتصلب فى الشرايين ، فقد فاجأته ثلاث نوبات قلبية ولم يعد جسمه يحتمل أكثر من ذلك . مكثت فى البيت لأساعد أمى فى رعاية أبى .

ألهانى هذا إلى حين عن « قضية جاك » . حكيت لابنى ذات يوم عن أبيه غير أن دانييل تقبل الأمر على نحو أفضل مما توقعت . أنصت لى باهتمام وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة المميزة التى اعتاد عليها أبوه . وبعد أن فرغت من كلامى قال :

- هذا هو بالضبط أبى . تتسم أعماله بالجسارة والجرأة غير المعهودة . ومن جانب آخر ، فإن هذا العمل يلائمه ، فعن طريقه يبدو كشخص يرتدى قناعا آخر أو كملك يلبس تاجه . لقد كنت دائما فخورا به ، غير أن هذا يجعلنى أكثر زهوا طالما وأنه أداه لخدمة بلده ، وبهذا القدر العظيم من النجاح .

لم أحك لأحد آخر . فالأمر يعتبر قنبلة لا أعرف كيف أتعامل معها . ورجوت دانييل ألا يفضى بشىء عن هذا الحديث لأى إنسان آخر .

وفى أواخر شهر أغسطس غادر دانييل الوطن فى طريقه إلى الجامعة ، حيث التحق بالكلية الأمريكية لإدارة الأعمال فى مونترو بسويسرا . وبدا هذا بمثابة بارقة أمل أشاعت قدرا من النور أضاء حياتنا ، خاصة وأنه قبل فى إحدى الكليات المتميزة جدا على النطاق العالمى . وأحسست بالفخر إذ استطعت أن أفى بوعدى لجاك . فالتعليم كان أمرا بالغ الأهمية فى نظره ، ربما لأنه لم يكمل تعليمه إلى الغاية التى يريدها .

وفى أكتوبر ١٩٨٤ مات « هاينريتش شبالت » بعد أن ظل طريح الفراش

لمدة ثمانية عشر شهرا . وهكذا رحل عنا مرشد آخر كان يهدى دفة حياتى ، مثلما انحل رباط آخر كان يصل بينى وبين عزيزى جاك بيتون .

وطاف برأسى تساؤل عما إذا كان لجاك بيتون وجود ، لو أن جميع من عرفوه باسم جاك وافتهم المنية ؟

حسن ، سأظل أنا وابنى وابنتى نتذكر جاك بيتون ، حتى ولو تشبث كل العالم بذكرياته عن رفعت الجمال .

استنفد المرض والعمل الذى انشغلت به طاقتى وطاقة أمى . وقررنا جميعا ، إيهاب وأمى وأنا ، أن نخرج إلى رحلة بعد أن نفرغ من الجنازة . صحبناها معنا إلى جنيف وباريس والقاهرة لعل هذا يفرج عنها كربها . واستمتعت بالتجوال بالسيارة لمشاهدة معالم المدن . وأحسب أن هذا سرى عنها ، وخفف من وطأة خسارتيها الأخيرتين فى الأسرة .

وفى يونيو ١٩٨٥ التقيت بأحد مسؤولى الشركة التى اشترت آجيبيتكو ، ليخطرنى بأنه لن تصلنا نقود من ثمن الشركة لأن الإنتاج لم يبدأ وأنهم يتوقعون بداية الإنتاج فى حوالى ١٩٨٨ . ومن المؤكد أن هذه الأنباء كانت طامة كبرى .

التقيت بالمحامى الخاص بى لأبحث معه ما يمكن اتخاذه من إجراءات لإجبارهم على السداد فى أقرب وقت . وأبلغنى أنهم فى هذه المسألة التزموا بحقوقهم المبينة فى العقد غير أن لديه أخبارا أخرى لى ، وفاجأنى بقوله :

- لقد أعطانى جاك شيئا لأسلمه لك . أرجو أن تجلسى .

بدا الأمر غريبا مثيرا للغاية ، حيث أننى أعرف هذا الرجل من سنوات طويلة كمهنى جاد ومسؤول ، والخداع ليس من شيمته يقينا ، وقلت له :

- كيف هذا ؟ لماذا لم تقدمه لى بعد الوفاة مباشرة ؟

- كانت هذه أوامره .

كنت أعرف إنه صادق فيما يقول . فعلاوة على أنه محام محترم ، فإن نقابة المحامين فى ألمانيا غاية فى التشدد فى أخلاقيات المهنة والتزام المحامين بتعليمات زبائنهم . جلست تائهة ، وأردف المحامى قائلا :

– يؤسفنى أن أقدمه الآن غير أن هذا هو الموعد الذى كنت أنتظره . فقد أعطانى جاك تعليماته فى صيف ١٩٨١ بأن أسلمك هذا المظروف بعد وفاته بثلاث سنوات . ليس عندى المزيد لأقوله لك حيث لم يكن مخولا لى الإطلاع على المحتويات ، ولم أطلع عليها . لقد فهمت منه أن من الأفضل لك أن تقرئيه هنا ثم أحفظه لك فى مكان أمين . والآن سأتركك وحدك لبعض الوقت فى الغرفة المجاورة ، وإذا احتجت إلىّ فى شىء أرجو أن تخبرى سكرتيرتى وسوف تطلبنى . وهاك مظروف آخر ، وأرجو بعد أن تفرغى من القراءة ضعى الجميع فى هذا المظروف واختميه . وبهذا ستعرفين أننى لم أعبث بشىء . آمل أن تجدى ما تبحثين عنه .

شرعت أقرأ الأوراق المرة تلو المرة ، لنحو ٤ ساعات قضيتها فى مكتب المحامى فى ذلك اليوم . عرفت فيها خط جاك . كان الخط رديئا بسبب المشكلات التى سببها المرض فى عينيه لكن لا شك أنه خطه . أحسست بدوار من أن أرى شيئا كان قد كتبه بخط يده وهو لا يزال حيا . ولم أستطع أن أكفكف الدموع التى تفجرت . لعل هذه هى الدموع التى تبقت لى بعد رحيل جاك . وربما تفجرت هذه الدموع أيضا نيابة عن أندريا ودانييل الغائبين الآن . تبدو مذكرات جاك أشبه بالاعترافات . لعله من الأفضل أنه كتبها على هذا النحو حتى لا أوقفه وأقاطعه بأسئلتى . التهبت عيناى غير أننى واصلت القراءة . بعض الناس والأماكن الذين جاء ذكرهم التقيت بهم وعرفتهم ، بيد أننى أصبحت أراهم الآن فى ضوء مختلف .

وعادت لذاكرتى بعض أحداث الماضى فى ضوء جديد . لم تثر هذه الأحداث تساؤلى عندما وقعت ، لكن بعد قراءة الأوراق بدأت أراها فى ضوء مختلف . تذكرت مثلا أننى عندما كنت معه فى باريس لأول مرة ، تركنى فى الفندق وخرج وحده لمدة ٣ ساعات ، فأين ذهب ؟ لم أسأله حينذاك ولم أفكر فى الأمر . وقد وقعت أحداث كثيرة مماثلة لذلك عندما كنت أسافر معه .

إذ كان يعقد لقاءات منفردة ويجرى اتصالات جانبية يقول إنها للعمل . كذلك عادت للذاكرة حادثة سفره لمدة ١٠ أيام دون اتصال تليفونى على خلاف عادته ولجوئى للشرطة بسبب ذلك وغضبه الشديد لهذا .

كان ما قرأته كثيرا جدا علىّ لا أحتمله وحدى . رجوت المحامى أن يقرأ المذكرات معى ويبدى إلىّ المشورة بعد ذلك . والواقع أني لم أدر ما إذا كان المحامى قد عرف شيئا من جاك أم لا . فلم تبد عليه الدهشة . هل كان ذلك لأنه محترف متمرس ، أم لأنه كان يعرف شيئا .

□ □ □

زادت التوترات بينى وبين إيهاب . اشتكى من أننى أقدم أسرتى عليه . كان علىّ مسؤوليات يتعين الالتزام بها تجاه البيت . ولم أكن حرة لأسافر معه فى أى وقت ، وكنا لا نزال تحت وطأة الضغوط المالية ، ولم نتسلم أى مبالغ نظير بيع شركة آجيبيتكو . تفاقمت الخلافات ، حتى قررنا الانفصال فى نهاية ١٩٨٥ . لم تنقطع العلاقات بيننا تماما حيث لا نزال نتصل ببعضنا .

□ □ □

سافرت إلى القاهرة فى عام ١٩٨٦ وكان إيهاب يحاول إقناعى بالصلح . ولكننا بقينا أصدقاء كما بقى هو فى بيت أسرته ، وأعتاد أن يحضر كل يوم ليصحبنى بسيارته ونتحدث سويا ، ورتب لى موعدا آخر مع جهاز المخابرات المصرية .

اختلف هذا اللقاء قليلا عن سابقه . فقد اصطحبنى مسؤولان منها فى سيارة فى الساعة الحادية عشرة مساء ، سارت فى طريق لم تكن لدى أى فكرة عنه ، ولكن خيل إلىّ أن جميع المنعطفات التى سلكناها تكفى للوصول إلى الاسكندرية . وعندما وصلنا طلبا منى أن أسارع بالخروج من السيارة حيث دلفنا عبر مدخل لمبنى رسمى . لا أذكر الشكل الخارجي للمبنى إذ كان الظلام حالكا . صعدنا درجا خافت الضوء لنصل إلى الطابق الأول وربما الثانى . خرجنا من السلم إلى قاعة شبه خالية . ولم تقع عينى على بشر فى أى مكان

هناك . كان ضوء القاعة خافتا جدا . وأبصرت سجادة خضراء ، إذ ربما كنت أنظر إلى الأرض . ورأيت أيضا نباتات هنا وهناك ولكنها لم تكن كثيرة . وأوصلنى المرافقان إلى أحد المكاتب ، حيث وجدت رجلين فى انتظارى . دعانى أحدهما للجلوس ، ثم قال :

- علمت أنك تتطلعين إلى لقاء معنا . أود أن أعرف بالضبط ما الذى تريدينه منا ؟

- جئت فى محاولة للحصول على بعض الوثائق الخاصة بزوجى جاك بيتون ، أو رفعت على سليمان الجمال ، أو أى اسم تريدوننى أن أسميه به . إن وثائقنا توضح أنه سليل أسرة يهودية ، وأنا أرغب فى الحصول على وثائق أسرته الحقيقية خاصة وأن ابنى وابنتى لهما حق فى أن يعرفا جذورهما .

- آسف أننا لا نستطيع أن نعطيك أى وثائق فلقد حصل رفعت على كل ما يهمه عندما أنهى مهمته منذ أكثر من عشر سنوات ومنذ ذلك الوقت وهو يزاول أعماله فى مصر طبقا لما اختاره لنفسه وأسرته ، ولا نرى ما يدعوك لأن تزجى بنفسك فى أعمال أجهزة المخابرات .

- إننا لم نرتكب عملا غير قانونى . ولا نخشى أحدا . إننى مواطنة ألمانية وأقيم فى ألمانيا .

- الشىء الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه لك فى مصر هو أن نوفر لك الحماية كاملة ، ولكن خارج مصر لا نستطيع عمل شىء لك .

- لا أرى إننى بحاجة إلى حماية طالما لم أرتكب خطأ . شكرا لكم على وقتكم واستقبالكم لى .

نادى زميله من خارج المكتب وطلب منه أن يأخذنى إلى حيث أريد أن أذهب .

□ □ □

طلبت من دانييل أن يحضر إلىّ . حضر بعد يومين وشرعنا فى الاتصال بشخصين كان جاك قد ذكر لنا اسميهما للجوء إليهما عند الحاجة .

فعندما كان جاك مريضا ترك لى اسمين لأتصل بهما طلبا للمعاونة . حاولت بين حين وآخر أن أصل إليهما حتى استطعت أنا ودانييل فى نهاية الأمر أن نصل إلى أحدهما أثناء تلك الرحلة ، وذهبنا إليه .

– مرحبا . اسمى فالتراود بيتون ، زوجة جاك بيتون . وهذا ابننا دانييل . لقد طلبنا هذا الموعد لكى نتحدث إليك لأن زوجى كان قد طلب منى أن أتصل بك .

– أنا أعرفك يا سيدتى ، وأذكر زوجك . لقد كان رجلا عظيما وقدم لقضية بلدنا خدمات هائلة .

– آمل فى أن تساعدنى فى الحصول على المزيد من المعلومات عن زوجى الراحل .

قال الرجل الذى كان سفيرا سابقا لدى دولة أفريقية :

– أفهم ما تبحثين عنه يا سيدتى . ولكن يجب أن تدركى أننى الآن فى عالم الأعمال الخاصة ، وأن ما تسألين عنه يستلزم موارد كثيرة . وأنا لا أدرى هل تعرفين كم يتكلف طلب كهذا .

– شكرا على الوقت الذى اقتطعناه منك يا سيدى . ولكنى أرى فى إطار ما تقول أنك لا تستطيع مساعدتى .

قلت كلمتى هذه وغادرت الحجرة أبكى ، وعندى إحساس بأننى لم أعد احتمل مثل هذا السلوك مرة أخرى .

حاولنا التحدث إلى الشخص الآخر غير أنه رفض التحدث معنا . واتصل به إيهاب بشأنى فسأله قائلا :

– ماذا تريد ، هل تريد مالا ؟

ورد إيهاب :

- كلا إنها تريد الحصول على بعض المعلومات .

فأجاب بأنه ليس مستعدا لإعطاء أى معلومات .

□ □ □

طلبنى إيهاب بالتليفون ليقول لى ان كاتبا فى القاهرة شرع فى تأليف كتاب عن زوجى الراحل ، وأنه رتب لنا موعدا معه . كان الرجل دمث الخلق ، وأفاض فى الحديث عن عظمة جاك . وقال إن جهاز المخابرات تعاقد معه على تأليف هذا الكتاب ووضع الملفات اللازمة تحت يده . ولم يشأ المؤلف أن يقدم لنا أى معلومات ، ولكنه نصحنا بأن نقرأ الكتاب بعد صدوره .

عدنا أنا ودانييل إلى ألمانيا ، وانتحينا بأندريا جانبا وقصصنا عليها كل ما جرى على مدى السنوات الثلاث بحثا عن هوية أبيها . لم نبلغها بالقصة قبل ذلك لأنها شخصية مفرطة الحساسية . وكان رد فعلها حين عرفت الحقيقة عن أبيها يتناسب مع حساسيتها ، فقد صاحت قائلة :

- هل تقصدين أنه كان شخصا آخر غير الذى عرفناه ؟ آه يا إلهى ، إن هذا يشبه قصص جيمس بوند . هل أنت متأكدة من أن هذه هى الحقيقة ؟

ورد دانييل :

- هذا صحيح ولدينا كل الأسباب لكى نزهو بأبينا .

هدأنا من روعها ، وتعلمت مع الوقت قبول الأمر الواقع بشأن الرجل الذى ظننته جاك بيتون .

□ □ □

ثم واجهنا وقتا عصيبا وحزينا ، فقد اضطررنا إلى بيع بيت عائلتنا ، لأننا لم نتلق حتى ذلك الحين أى مبالغ مالية مقابل بيع شركة آجيبيتكو ، ولأننا كنا

قد سددنا نفقات مرض كل من جاك وهاينريتش من رصيد الأسرة فضلا عن نفقات السفريات العديدة بحثا عن حقيقة شخصية جاك وهى نفقات أرهقتنا . ولم يكن إيهاب فى وضع يسمح له بمساعدتنا وبقى فى القاهرة .

بعنا البيت وانتقلنا إلى بيت الأسرة فى إيطاليا . وقضينا وقتنا فى محاولة إعادة ترتيب كل شىء فى بيت أصغر حجما .

□ □ □

صدر كتاب المؤلف المصرى ونحن لا نزال فى القاهرة ، وظهر مع الكتاب مسلسل تليفزيونى مؤلف من ١٥ حلقة . وعلى الرغم من تحريف بسيط فى الأسماء والأحداث إلا أنه كان واضحا أن المستهدف هو تمثيل حياة أسرتنا والنشاط التجسسى لرفعت الجمال . وأدركنا أن هناك أخطاء كثيرة جدا فى الوقائع المتعلقة بوضع العائلة . ومع هذا فقد شعرت ببعض الرضا حين عرفت أن جميع من سموه « جاك بيتون ، اليهودى القذر » ، اضطروا إلى الاعتراف بأنه مصرى ، وأنه قدم اسهامات كبيرة لأمن بلده .

وبدأت حملة من الاهتمام برفعت الجمال فى الصحف ، أعلن إيهاب نافع فيها أنه زوج أرملته .

وأصبح وقتنا مزدحما بلقاءات وصور فوتوغرافية ، وانشغلنا طوال هذه الفترة بمحاولة تلبية كل طلبات إجراء الأحاديث الصحفية والتليفزيونية ، ولم نعثر على المزيد من المعلومات عن نشاطه التجسسى ، غير أننى تصورت أن تركيز الاهتمام الوطنى على هذا الموضوع من شأنه أن ييسر لى الحصول على بعض الإجابات عن هذا الموضوع . ولهذا طالت إقامتنا فى مصر أكثر مما كان مستهدفا .

□ □ □

ومضت بنا الأيام وروابطنا بمصر والبلاد العربية تتوثق عراها ، ويزداد إعجابنا بطيبة أهلها وقيمهم وتقاليدهم التى أدركنا أن دينهم السمح هو الأساس فيها .

وأخترنا التحول للإسلام . وكان لهذا جذوره الماضية ولم يجيء وليد اللحظة .

كنا فى بيتنا لا نكف عن الحديث عن الأديان ومنها الإسلام ، وكانت لدينا نسخ من القرآن والإنجيل والتوارة . وتوافرت لدينا بفضل جاك معلومات واسعة وجيدة عن الأديان . وكان جاك متمسكا بتعريف الأطفال كل ما يتعلق بالأديان ، وتحقق هذا أساسا عن طريق القراءة والحوارات التى كان يجريها معنا ، ومع أصدقاء الأسرة فى زياراتنا المتبادلة فى نهاية الأسبوع . وكان الجميع يدهشون من غزارة معلومات جاك عن الأديان ، خاصة عن الاسلام وهو اليهودى . كان جاك رغم عدم أدائه للشعائر ، قوى الإيمان بالله وإرادته وقدره ، وكان متشددا فى هذا حتى علّمنا أن نؤمن بنفس قيمه فى هذا الصدد .

ولم يكن هناك ما يشير إلى أن جاك يُؤثر دينا معينا ، بل اعتاد أن يتحدث بلغة واحدة عن كل الأديان . وقد سأله أحد أصدقاء أبى :

– أنا أسمعك تتحدث عن كل الأديان وتعرفها جيدا ، فبأى منها تلتزم . ما هو دينك الحق .

ورد جاك :

– أنا أؤمن بالله .

وأثناء مرضه كان يردد دوما :

– أنت تعرفين أن إيمانى بالله إيمان قوى ، وأننى أقبل وأرضى بكل ما يريده لى .

وعقب وفاته ومعرفتى بديانته أكثرت من قراءة كتب الدين الإسلامى ، بحثا عن يقين بعد حالة الخلط والتشوش التى أصابتنى بعد وفاته . لقد أردت معرفة المزيد عن دين زوجى الجديد الذى اكتشفته . ووجدته دينا شديد اليسر ، يجعلك تفهم الأمور بسهولة ، على خلاف العقيدتين البروتستانتية والكاثوليكية ، فهما شديدتا العسر .

قرأت كتبا عن الإسلام بالألمانية والإنجليزية ، وتابعت كل ما تعرضه شاشات التليفزيون الألمانى والإذاعة الألمانية عن الإسلام ، والحالات الكثيرة للألمان الذين يتحولون إليه . وتناقشت كثيرا مع ابنى وابنتى ، حتى أصبحت مقتنعة تمام الاقتناع بأن الإسلام فيه راحة للمتعبين ، وفيه عزاء كبير لمن عانوا ، فضلا عن أنه يقدم منطقا وفلسفة راقيين .

أخذت قرارا فى عام ١٩٨٧ باعتناق الإسلام ، وبدأت أنا وأندريا فى تعلم اللغة العربية على يد طالب مصرى يعيش فى ألمانيا ، ومن الطبيعى أن أندريا كانت أبرع منى فى تعلم اللغة ، فهى متميزة جدا فى تعلم اللغة بسهولة . لكن سفرياتى المتعددة جعلت المحاولة تتعثر ، والطالب المصرى يقول لى :

- إذا كنت تقضين كل وقتك على سفر ، فكيف لك أن تتعلمى لغة ؟ إنك تغيبين طويلا ، وعندما تعودين تكونى قد نسيتى كل شىء .

وتحولت إلى الإسلام رسميا فى الرابع من ديسمبر ١٩٨٨ حيث اصطحبنى زوجى إيهاب إلى الأزهر ، وطلب منى شيخ جليل كبير السن أن أردد وراءه الشهادة . اعتقد أنه كان شيخ الأزهر . كان ودودا جدا ، وكان يتحدث بالإنجليزية .

□ □ □

عدت إلى إيطاليا بعد اعتناقى الإسلام وكنا نتهيأ للاحتفال فى الأسرة بتخرج دانييل . وكان هذا مناسبة أخرى مبهجة ، لأننا حققنا مطلب جاك بأن يحصل الطفلان على تعليم جيد . تخصص دانييل فى إدارة الأعمال ، وكتب رسالته العلمية عن الأوبيك وأهداها إلى جاك . وعقب تخرج دانييل بفترة وجيزة أتيح للأسرة أن تقيم احتفالا آخر فى السادس من مارس ١٩٨٩ وذلك بمناسبة بلوغ أمى سن الثمانين .

والواقع أن دانييل بدأ العمل بعد حصوله على درجته العلمية . وكانت قصة أبيه قد نشرت وعرفت حكايته قبل ذلك ، واستنتج بعض المغاربة الذين يعملون فى الشركة أن دانييل هو ابن جاك بيتون ، وأخبروا صاحب الشركة بذلك وكان

يهوديا ففصله عن العمل جزاء لما فعله أبوه بإسرائيل . وقبل التخرج تعرض دانييل لموقف مماثل ، فقد جاء له زميل فى الدراسة وقال له :

- إنى أكرهك أنت وأباك ، لأنه سبب ضررا كبيرا لإسرائيل .

□ □ □

وعند عودة دانييل للوطن من سويسرا اختار لنفسه هو أيضا الإسلام دينا له . ومن ثم سافرنا ثانية إلى مصر ، حيث أعلن دانييل رسميا اعتناقه الإسلام فى ١٩٨٩ . وحينذاك تقدمنا أنا ودانييل وإيهاب بطلب تأشيرات دخول إلى المملكة العربية السعودية . فقد شعرنا بالحاجة إلى السفر إلى المملكة العربية السعودية لمعرفة المزيد عن أسس عقيدتنا الجديدة ، وأيضا لعمل العمرة . كذلك كان هناك مؤلف ينتوى إصدار كتاب عن زوجى ونشره فى السعودية . وهناك التقينا بوزير الشباب الذى جعلنا نحس أننا فى بلدنا .

كانت المملكة العربية السعودية حكومة وشعبا كرماء للغاية معنا . وساد لدينا شعور بالترابط والتواصل معهما . فقد قوبلنا بكل الود والحب وكرم الضيافة مما جعل إقامتنا مريحة وممتعة . وأعتقد أننى سأظل أتطلع للعودة إلى هناك . ولقد تأثرنا تأثرا شديدا بالناس هناك وبمدينتى جدة والرياض . وبدت مكة متميزة وجذبتنا أكثر وأكثر إلى العقيدة الإسلامية . وكان الناس يتعرفون علينا ، ويرحبون بنا ويدعوننا لزيارة بيوتهم . واضطررنا أنا ودانييل - آسفين - لمغادرة البلاد قبل الموعد المحدد نظرا لمرض أمى الشديد .

عدنا إلى إيطاليا وهرعنا إلى المستشفى لنراها . أخبرتنا أندريا هناك بما حدث . وقالت إنها بعد أن عادت من شراء بعض اللوازم لاحظت أن جدتها تتصرف بطريقة غريبة : خطواتها مرتبكة وسلوكها عدوانى وغير مبرر . طلبت الطبيب فأمرها بأن تنقلها فورا إلى المستشفى .

وبعد ثلاثة أسابيع فى المستشفى استطعنا أن نعود بها إلى البيت ، غير أنها لم تستعد عافيتها تماما . وأصبحت عاجزة على أداء الأمور العادية التى

كانت تقوم بها داخل البيت فضلا عن تدهور قوة إبصارها ، وحاجتها إلى عصا تتوكأ عليها عند المشى .

□ □ □

بعد أن عادت أمى إلى البيت بدأت أحس بالمرض ، فقد انتابنى صداع ودوار ، وأصبحت عصبية ومرهقة بصورة مروعة طوال الوقت .

استمرت حالتى على هذا الوضع عدة شهور ، وعانيت خلالها من ضغوط وتوتر بسبب الحالة التى أصبح عليها زواجى : فزوجى يعيش فى قارة أفريقيا ، وأنا أعيش فى قارة أوروبا ، وشبح جاك ماثل دائما أمامى ، وبذا بدا زواجى صعبا وحياتى .

وتزايد مرضى بإطراد ، حتى وجدت نفسى أسقط على الأرض وأغيب عن الوعى .

وهنا أجدنى عاجزة عن رواية ما أعقب ذلك ، فلم أدر شيئا عما حدث وأترك الحديث لابنتى وابنى ، ليرويا ما جرى عقب سقوطى وغيابى عن الوعى .

أنـدريـا :

وجدت أمى واقعة على الأرض . لم أدر ما الذى ألقى بها هناك ، وإن بدا لى أنها لن تنهض ثانية . كانت قبل ذلك تجر نفسها من السرير إلى الأريكة . لم يدم هذا لساعات بل استمر يومين . أدركت أن حالتها الصحية ليست على ما يرام ، ومن ثم ذهبت بها إلى الأطباء . كنت الوحيدة فى الأسرة التى تتحدث الايطالية ، وقمت بأعمال الترجمة غير أنها كانت تشكو آنذاك من صداع ودوار .

وعندما وجدتها ملقاة على الأرض ، استدعيت الطبيب من المستشفى المحلى ، وحضر إلى البيت حيث أجرى فحصا عاجلا لها ، ونصحنى بأن أنقلها إلى المستشفى مباشرة . واستخرجت إذنا بدخولها المستشفى فى ٢٢ سبتمبر .

اعتدت زيارتها أنا ودانييل كل يوم ، غير أن الأطباء لم يشفوا غليلنا عما بها بينما كانت حالتها تسوء يوما بعد يوم . وفى الخامس والعشرين من الشهر قصدنا المستشفى حيث كانت تنتظرنا أخبار هناك .

دانييــل :

حين وصلنا فى الخامس والعشرين إلى المستشفى كانت أمنا راقدة هناك فى حالة لا يمكن تصورها . فقد أصابها شىء ما بغتة أثناء الليل لم نكن نعرف ما هو ، غير أننا لم نجد مبررا للاستمرار فى هذا المستشفى . فالإجابات التى نسمعها من الأطباء لا توضح لنا شيئا ، ونحن نريد أن نعرف بالضبط ماذا يفعلون .

اقتربت أندريا (أو الأصح هجمت) على الطبيب فى الردهة ، وطلبت منه بالإيطالية أن يخبرنا عما يجرى . نقلناها إلى المستشفى المجاور ، وهو مستشفى أكبر ، واستطعنا هناك أن نحصل على معلومات أكثر عما يحدث .

أنـدريـا :

قالوا إنها الآن فى غيبوبة . وأن الغيبوبة أصابتها على الأرجح بسبب صدمة كلسيوم ، وأنها تعانى أيضا من تشنجات فى المخ ، ومن ثم وضعت فى غرفة العناية المركزة . وأن علينا الآن أن ننتظر ونرى ما سوف يحدث .

دانييــل :

اتصلت بإيهاب . أبلغته بما يحدث . وكنت قد تحدثت إليه من قبل دخولها المستشفى أول مرة .

وعندما أبلغته بآخر التطورات ، قال لى لا تقلق ، وأنه تحدث إلى ابنه الطبيب فى ذلك ، وهما على ثقة من أنها ستشفى . وشرحت له آخر التطورات ، وقلت له إنها الآن فى غيبوبة ، وأننا اضطررنا إلى نقلها إلى مستشفى آخر .

وجاء إيهاب بعد ٣ أيام ، قابلته فى المطار واصطحبته إلى المستشفى ،

أنـدريـا :

وصل دانييل وإيهاب إلى البيت قادمين من المستشفى . بدا إيهاب خالى البال وطلب منا ألا نشغل بالنا ، وأن كل شيء سيكون على ما يرام . وطلب منى أيضا أن أبلغ جدتى أن أمى بخير . طهوت له طعاما وعاملته كأى فرد آخر من أفراد الأسرة غير أن قلبى كان قلقا على حالة أمى فضلا عن انشغالى برعاية جدتى .

دانييـل :

حاولت أن أوضح الموقف لإيهاب . وأخبرته أن المرض سيكلفنى مبالغ مالية كبيرة ، وأن بعض النتائج المحتملة لمرض أمى لا تسر :

١ - فقد تصبح معوقة بدنيا بعد أن تفيق .

٢ - وقد تغدو معوقة عقليا بعد أن تفيق .

٣ - وقد تموت .

وبعد بضعة أيام عاد إلى القاهرة .

وأفاقت أمى من الغيبوبة بعد أسبوعين . كانت لا تزال فاقدة القدرة على توجيه حركتها ، ولا تزال وظائفها العضلية غير متوافقة . وحينذاك شعرت أنا وأندريا بفقدان الثقة فى الأطباء الإيطاليين ، وسألنا عما إذا كان بالإمكان نقلها . وحينما وافقوا شرعنا فى اتخاذ الترتيبات لإعادتها بالطائرة إلى ألمانيا .

كان لزاما علينا أن نعد وسيلة انتقال خاصة على متن إحدى الطائرات الطبية التابعة للصليب الأحمر ، ونقلناها إلى مستشفى فى فرانكفورت .

وهنا تدهور الموقف ثانية ، واستطاع الأطباء تشخيص المرض بأنه إصابة فى « الغدد جارات الدرقية » وفقدت أمى الوعى ثانية . وبينما كنت هناك أبلغنى فريق الأطباء المعالج أن علىّ أن أصرح لهم فورا بإجراء عملية لها وإلا ستموت . لم يكن لدى وقت لإستشارة أختى غيرَ أنه قيل لى أن فرصة بقائها حية بعد العملية ٥٠ فى المائة ، وبدون ذلك لا أمل . آثرت خيار الـ ٥٠ على الصفر ، ووقعت صيغة التصريح وأجرت العملية فى اليوم التالى .

بعد العملية بدأت فورا تستعيد صحتها بصورة مذهلة . وأصبحت خلال فترة قصيرة نسبيا قادرة على التحكم بشكل مبدئى فى أفعالها العضلية المنعكسة . وهيأنا لها علاجا طبيعيا حتى تتعلم المشى ثانية .

أنـدريـا :

لم يكن لى دور كبير فى هذا الجانب من العلاج الطبى . إذ كان دانييل والأطباء يباشرون علاج أمى فى ألمانيا ، بينما كنت أنا أباشر جدتى والبيت فى إيطاليا . فحين فقدنا الثقة فى الأطباء الإيطاليين ، وأدركت أن أمى سوف تحتاج إلى رعاية طبية على مدى طويل ، بدأ دانييل يبحث لنا عن مكان فى ألمانيا وشرعت أنا فى حزم أمتعة وأثاث البيت فى إيطاليا .

دانييـل :

وجدت لنا بيتا خارج فرانكفورت وشرعت أندريا فى تنظيم عملية النقل من إيطاليا . تحسنت صحة أمى كثيرا ، وإن كان الأمر لا يزال يحتاج إلى صراع طويل . حاولت أن يظل إيهاب على علم بمجريات الأحداث . ونقلت أمى إلى مستشفى كوركلينيك .

خاتمة

هل لرفعت أن يعود لوطنه ؟

أذكر أن حالة التعب ، بدأت نتيجة للضغط العصبى ، بسبب المال ، وبسبب تطورات زواجى . لا أذكر بالدقة كيف وصلت إلى هنا فى هذه المستشفى ، لكنى بدأت أدرك الآن ما جرى . قال الأطباء أن إصابة الغدة الجار درقية نادرة جدا . أشعر بالعرفان بالجميل لكل من عاوننى ، ولكن ثمة أشياء كثيرة لا أذكرها فى هذه اللحظة لأعرب عن شكرى بشأنها .

أفقت ووجدت نفسى فى غرفة غريبة ، ولحظت أن ابنى وابنتى غير موجودين معى . لم أستطع أن أرى كل شىء فى الغرفة . لم أستطع أن أرى إلى أبعد من أنفى . كانت إفاقتى عملية بطيئة حتى ظننت أنها ستستمر إلى الأبد .

كانت أغطية السرير لا تشبه أغطية السرير فى بيتى ، ولم تكن الغرفة تشبه غرفتى . وحين أصبحت أكثر إفاقة غدوت أكثر وعيا . وأفزعتنى الأشياء التى بدأت أدركها . هذه ليست غرفتى . واضح إنها غرفة فى مستشفى . تلفت حولى غير أن جسمى لا يتحرك . إننى عاجزة عن الحركة . أستطيع أن أحس الأشياء المبسوطة فوقى . لم أعرف أنها مربوطة بى . أستطيع أن أرى على نحو أفضل قليلا الآن . ها هما دانييل وأندريا موجودان . أردت أن أتكلم . عندى الكثير جدا مما أريد أن أقوله غير أن الكلمات لم تخرج من فمى . عندى أسئلة كثيرة أريد أن أسألها . غير أن صوتى خاننى .

رأيت أندريا ودانييل يقفان حولى . أخال أنهما يتحدثان إلىّ بيد أننى لم أعد

قادرة بعد على الرد . كنت ما أزال أريد أن أستسلم للنوم . أحسست بالنوم آت ، غلبنى النوم . لازمنى هذا الاحساس زمنا طويلا .

لازمتنى « مشكلة النوم » ردحا كبيرا من الزمن . لم أكن أدرى أنها حالة من فقدان الوعى أروح فيها فى غيبوبة ثم أفيق . شعرت فقط إننى أكثر إنهاكا وتعبا مما كنت عليه قبل ذلك طوال حياتى . أذكر دانييل وأندريا وهما يقولان لى إننا سنذهب إلى ألمانيا . لم أفهم السبب ، ولو كنت فى عافيتى لقاومتهما . لم أكد حتى أعرف لماذا نحن راحلون إلى هناك . وعندما قال لى دانييل إننى كنت فى حالة مرضية خطيرة بدأت أتحسس جميع أجزاء جسمى لأرى ما بقى منها وما لم يبق .

كان الجانب الأيسر من جسمى يؤكد حاجتى إلى راحة وقد توقف عن العمل . أصيب جانبى الأيسر بالشلل . وثمة أجزاء أخرى تنذر بحاجتها هى الأخرى إلى الراحة . أدركت أننى سأجرى عملية جراحية . وتحققت من أننى لا أستطيع أن أبقى كذلك إلى الأبد . ولو طلبوا رأيى لأكدت أنى سأذهب طواعية إلى العملية الجراحية . أحسب أننى كنت سعيدة بعودتى إلى ألمانيا . الآن أدرك أننى محظوظة إذ عدت إلى ألمانيا . أذكر أن الطائرة طارت بى وأنا فى سرير . لم تكن هذه طريقتى العادية فى السفر . تساءلت ترى كم تكلف مثل هذه الرحلة . فقد كنت واثقة من أنه لا شىء يتم مجانا .

بعد أن عدنا إلى ألمانيا أخذ جسمى يذوى بإطراد . لا أذكر العملية . أذكر أناسا يقولون لى أنت محظوظة . كل من وقف حولى أكد أننى محظوظة إذ الزم هذا السرير . ما أزال عاجزة عن تحريك جانبى الأيسر وبدأت أقلق . طال بى هذا الوضع زمنا ، وعندى أشياء كثيرة يتعين إنجازها .

وعندما استعدت وعيى كاملا ، فهمت إنه لم يكن متوقعا أن أنجو .

كان دانييل وأندريا رائعين . تكاتفا معا لتحقيق شىء ما كان لأحد منا أن يجرؤ على تصوره ، أننى على قيد الحياة فى سرير بأحد مستشفيات فرانكفورت فى ألمانيا ، إنها لمعجزة ، أستطيع بفضلها الآن أن أحيا .

وعرفت أن من الضرورى أن أباشر ولمدة طويلة علاجا طبيعيا جادا لإعادة تأهيلى . لم أعرف إلى أى حد كنت مريضة . حاولت الوقوف لأول مرة مع نهاية شهر نوفمبر ١٩٨٩ أى بعد قرابة ثلاثة أشهر من رقادى .

تبينت أنى لا أستطيع المشى . وأن صوتى قد تغير بسبب عملية الغدة . بت أحمل أنابيب وأسلاكا ، كما أن ذراعى اليسرى وساقى اليسرى لا تستجيبان لى . بدأت مشروعى لمحاولة التحكم فى جسمى ثانية . وقيل لى هذه مهمة بسيطة .

اقتضت هذه المهمة البقاء عدة شهور فى عيادة إعادة التأهيل . إن ما تعلمته أثناء مرضى يعد بحق درسا قاسيا .

لقد تحمل طفلاى كل العبء وحدهما وتخلى آخرون . وتأملت قصة زواجى الفاشلة وأسفت لما انتهت إليه الأمور ، وإن حمدت الله على معرفة معادن الرجال .

وسرحت بخاطرى خلال هذه الفترة وتأملت « مغامراتى » فيما يتعلق بالشركة ، وشعرت بالأسى لرجال الأعمال وللشركات الذين يسعون لإدارة أعمالهم من خلال التعامل مع موظفين من النوع الذى قابلته . وهنا أود أن أقول أن حبنا لمصر لم يكن بمقابل ، وإن ابنى لا يحمل الجنسية المصرية وهى حق له .

لقد رفعنا أمام المحاكم دعاوى قضائية ليحصل دانييل على الجنسية ، لكننا خسرناها ، رغم أن لبيب الجمال شهد فى المحكمة بأن جاك بيتون هو شقيقه رفعت الجمال ، وأن دانييل ابنه ، غير أن البعض شكك أمام المحكمة فى أن دانييل قد لا يكون ابن رفعت الجمال ، وقد أثارنى هذا تماما . وقد جرى لقاء مؤخرا مع أحد المسؤولين ، أخبرنى فيه بأن ابنى سيحصل على الجنسية ، وأن المسألة تتوقف على مجرد إجراءات وتوقيع وتحتاج لبعض الصبر . وقد نصحونى بعدم اللجوء للمحاكم ، وأنا موافقة على ذلك شرط أن ينال ابنى حقه . لم أطلب الجنسية لنفسى ولم أسع لذلك . لكن ابنى ينبغى أن ينسب لأبيه الحقيقى

بالميلاد . ولا بد لابنى أن يعرف جذوره ويعلنها ، وأنه بدلا من الانتساب لأسرة يهودية مقطوعة التاريخ ، ينبغى أن ينتسب لأصوله المصرية وهو فخور بها وراغب فى الانتماء إليها .

□ □ □

وقد حاول لبيب الجمال نقل رفات أخيه إلى مصر ، ولدى خطاب موجه له من السلطات المصرية بالموافقة على إحضار رفاته لمصر إذا وافقت السلطات الألمانية . لكن موافقة هذه الأخيرة مسألة يسيرة لأنها مجرد إجراءات شكلية ، طالما أوافق أنا على هذا ، فهذا حقى القانونى . ولا يمكن نقله دون موافقتى . وأنا موافقة على ذلك تماما ، لكن لبيب لم يخطرنى بمسعاه هذا ولم يشركنى فيه ، ولم أر خطاب السلطات المصرية بالموافقة على نقل رفات زوجى إلا بعد وفاة لبيب . وسأقوم بنقل رفاته لمصر عندما يحصل ابنه على جنسية أبيه .

□ □ □

لقد عامل الشعب المصرى أسرتنا دائما معاملة حسنة جدا . مما جعلنى دوما أرجو أن تتاح لى الفرصة لتسجيل ما أعرفه ، ليعرف الشعب المصرى بدوره بعض الحقائق عن زوجى الراحل ، رفعت الجمال أو جاك بيتون الرجل الذى اشتهر بينهم باسم رأفت الهجان .

لقد تعلمنا أن أهل مصر هم أهل الحب والصراحة والود والأمانة . أدركنا هذا ونحن نشاهد الأهرامات ، مثلما ندركه الآن ونحن نشهد الحياة . لقد تلقيت الكثير من البطاقات والرسائل من أصدقائى فى مصر يساندوننى ويتمنون لى الشفاء . وسأظل ما حييت عارفة بهذا الجميل .

شرعت فى هذا الكتاب كنوع من التنفيس عما فى داخلى ، وليكون أيضا وسيلة للبحث عن الحقيقة . ولقد أتاح لى بقائى فى المستشفى فرصة لذلك ، فقد وجدت فيه وقتا كافيا . وأدركت حينذاك أن البرودة التى ظللت أحس بها على مدى السنوات الثمانى الماضية بدأت تزداد دفئا . إن البرودة التى ما كان

لها أبدا أن تعرف الدفء آخذة الآن فى التحسن باطراد . أعتقد أن البرودة كانت ناجمة عن الوحدة ، وعدم الرضا . وأنا سعيدة الآن إذ بدأ الدفء يعرف طريقه إلى نفسى .

لا تزال هناك أسئلة كثيرة عن جاك تلح تبحث عن إجابة . وأدرك الآن أن الجانب الأكبر منها يتعلق بأمور لن أجد إجابة عنها لأنه ليس بيننا ليجيب عليها .

لا تزال الأسرة تناقش كيف تواصل معركتها . غير أنه بعد المرض ، أو الآن على الأقل وأنا أمر برحلة الشفاء ، لم تعد هذه المعركة هى أهم شىء فى العالم . سنظل دائما بحاجة إلى أن نعرف ، بيد أن هناك أيضا مسؤولية الحياة ، حياة نسل جاك بيتون والباقين على الحياة من بعده . ذلك أنه عند نقطة ما يتعين أن تمضى الحياة فى سبيلها ، وأنا أعد العدة لذلك الآن . وإذا حانت الفرصة فلن أهرب منها . آمل أن أتعلم منها . ولا يزال عندى الحافز ، وسوف استعيد طاقتى ، غير أن تراث جاك قد تحقق وأكتمل سواء بى أم بغيرى . إن تراثه الحب ، حبى له ، فهو ابن لشعب ودود . وإذا لم أستطع أن أستعيده فليس بمقدور أحد مهما علت مكانته أن يسلبنى ذكرياتى . إن جاك بيتون هو ابنى وابنتى وكل الناس الذين أحبهم ، وتماما ، وكما قال هو بيقين صادق ، فإنه سيظل دائما معى حتى نهاية الزمان .

أرجو ممن يقرأون هذا الكتاب أن يدركوا أن الحقيقة قد لا تكون علىّ هوانا ، لكن ما أعرضه هنا هو الحقيقة عينها كما خبرتها .

فالتراود بيتون

الــوثــائــق

the truth. The decision is up to you and I know that you will do the right thing. That was what I wanted to tell you. Dont be sad and remember that your life and the life of our children depends upon you staying strong. Live on as we talked about while I was still there. Dont listen to and trust other people. Trust your own instincts. You are a strong person and you will reach all of your goals. If you have to then fight for your right. You know how to do that. Good luck and live well.

You will always be the love of my life.

Yours truly,

Jack

9/12/81

My beloved Waltraud,

when you read these words a lot of time will have already past since I have left you. Maybe now you are able to accept the facts in a better manner. By now Mohammed has told you that I was not the man that you thought I was. You will ask why I didnt trust you, and why I didnt tell you the truth while I was still alive. I know how much it hurts you to be lied to. I can see your green eyes turning dark. They always do when there is a fire inside. I know that you will try everything to find out the whole truth, but what I want to tell you and what I am allowed to tell you are 2 different things. If you search for the truth you will find it. All that I am allowed to tell you is left behind in the accompanying notes. You will never know how much I suffered from the constant lie that I had to live. Please, dont judge me in advance. You know that I have not ever loved anyone more than you. Once you have studied my notes and when you understand them and me, then please tell our children Andrea and Daniel

● الرسالة التى تركها جاك بيتون لزوجته مع المحامى قبل وفاته .

much time left. Read everything first and judge me then.

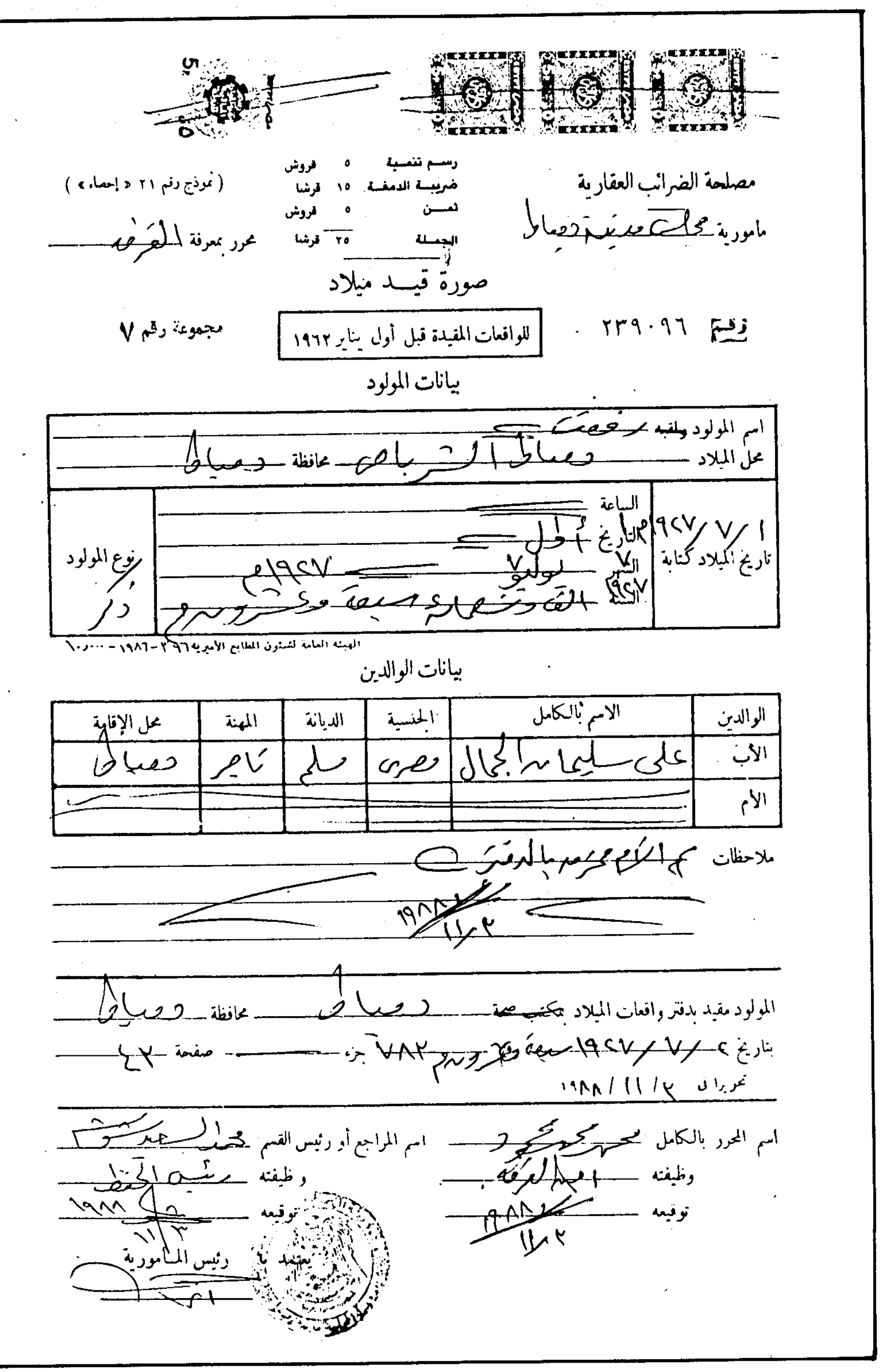
I was born on July 1 in 1927 in a city called Damietta in Egypt. My real birth date was the reason why I always read in the horoscope cancer and not leo like my official birth date said. My true name was Rifat Ali Suliman El Gammal. I had 2 brothers and 1 sister. Sami, Labib and Naziha. Sami was my half brother as he was from the first marriage of my father. My fathers name was Ali and he was a coal wholesaler. My mother came from a high class family. Her name was Rabiba. Sami was much older and became a teacher for the english language. Labib always used to think a lot and had a good ability for accounting. Naziha was a sweet character. She was always on my side. I love her very much. She even held to me when I had fights with Sami and Labib. As a child I got a long well with my brothers but when I was older there were often difficulties. I will tell about

Jack Bitton - My Life Story

Finally I can tell the truth about my life. I dont know if it is fair that I had to get ill, but I think that God has decided for me to go. If he would have wanted me to stay I would not be ill. I am going to write this all in english because like this you can understand. There will be mistakes but you are used to this. What you are going to read in the following pages can bring great problems to many people. Use the following information wisely and dont trust anyone with it. I have arranged for you to receive all this 5 years after my death. 5 years because by then enough time will have past and I think this time was necessary for you to understand better what I have done, who I really was and why I did it that way. I lived a lonely life as nobody knew who I really was. I had to do it that way because I did not want to put anyone in danger. Mainly my wife and children not.

I have to get on with what I want to say because I can feel that I dont have

● المذكرات التى كتبها رفعت الجمال بخط يده ويروى فيها قصة حياته ووضع لها عنوانا هو « جاك بيتون - قصة حياتى » .



مصلحة الضرائب العقارية

مامورية محلة مدينة دمياط

رسم تنمية ٥ قروش
ضريبة الدمغة ١٥ قرشا
ثمن ٥ قروش
الجملة ٢٥ قرشا

(نموذج رقم ٢١ « إحصاء »)

محرر بمعرفة المرفق

صورة قيد ميلاد

رقم ٢٣٩٠٩٦ — للواقعات المقيدة قبل أول يناير ١٩٦٢ — مجموعة رقم ٧

بيانات المولود

اسم المولود ولقبه رفعت
محل الميلاد دمياط الشرباصى محافظة دمياط

تاريخ الميلاد كتابة ١/٧/١٩٢٧م — الساعة — التاريخ أول — الشهر يوليو ٧ — السنة ١٩٢٧ ألف وتسعمائة سبعة وعشرون ١٩٢٧م — نوع المولود ذكر

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ٩٦٦٢-١٩٨٦-١٠٠٠٠٠

بيانات الوالدين

الوالدين	الاسم بالكامل	الجنسية	الديانة	المهنة	محل الإقامة
الأب	على سليمان الجمال	مصرى	مسلم	تاجر	دمياط
الأم					

ملاحظات تم الاسم بمعرفة المرفق ٢/١١/١٩٨٨

المولود مقيد بدفتر واقعات الميلاد بمكتب صحة دمياط محافظة دمياط

بتاريخ ٢/٧/١٩٢٧ سنة وتحت رقم ٧٨٢ جزء — صفحة ٤٢

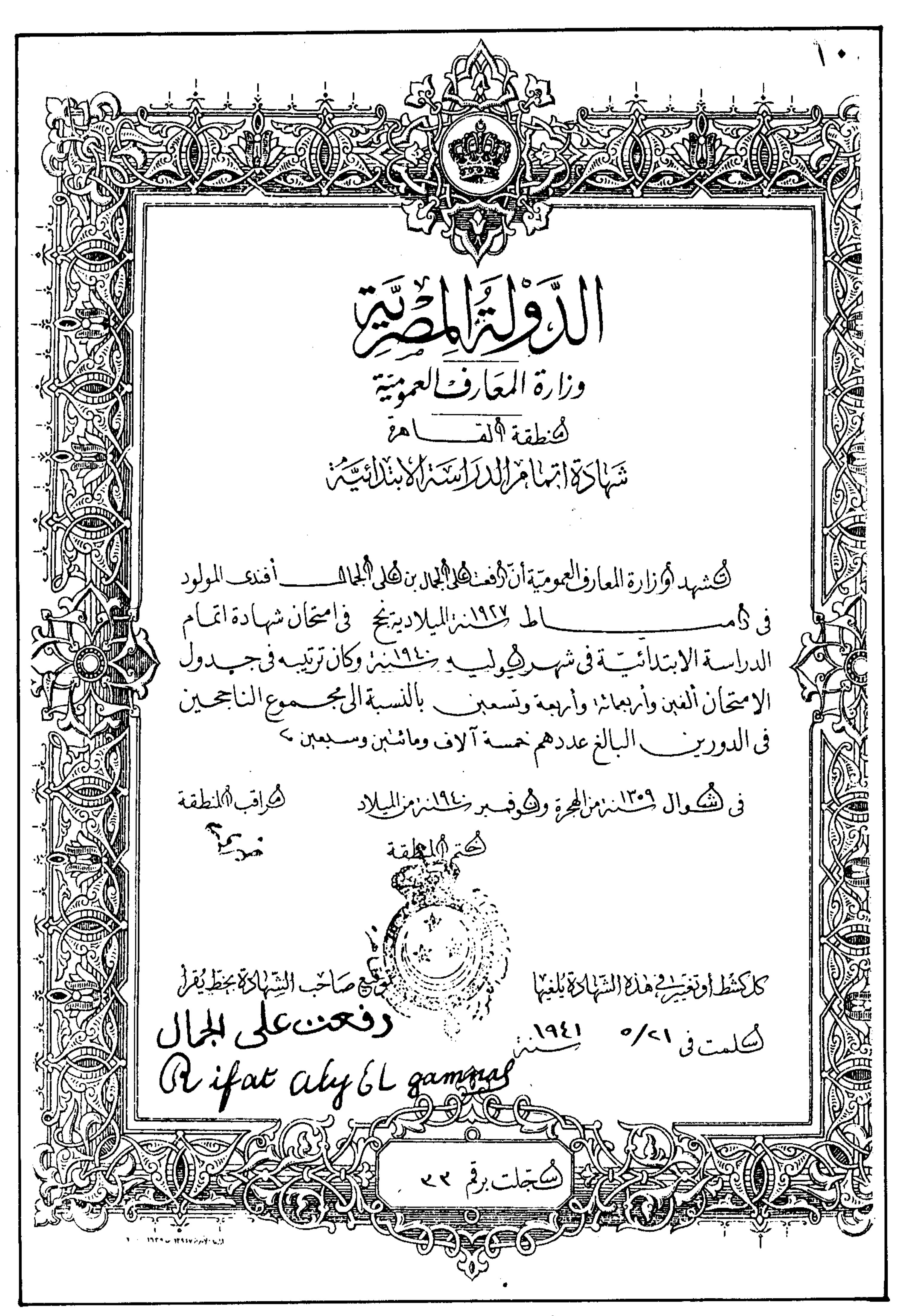
تحريرا فى ٢/١١/١٩٨٨

اسم المحرر بالكامل محمد محمود — وظيفته أمين المرفق — توقيعه ٢/١١/١٩٨٨

اسم المراجع أو رئيس القسم محمد السيد سعود — وظيفته رئيس الحفظ — توقيعه ٢/١١/١٩٨٨

يعتمد — رئيس المامورية

● شهادة ميلاد رفعت الجمال .


١٠

الدولة المصرية

وزارة المعارف العمومية

منطقة القاهرة

شهادة اتمام الدراسة الابتدائية

تشهد وزارة المعارف العمومية أن رفعت على الجمال بن على الجمال أفندى المولود فى ٤ مساط سنة ١٩٢٧ الميلادية نجح فى امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية فى شهر يوليه سنة ١٩٤٠ وكان ترتيبه فى جدول الامتحان ألفين وأربعمائة وأربعة وتسعين بالنسبة الى مجموع الناجحين فى الدورين البالغ عددهم خمسة آلاف ومائتين وسبعين

فى شوال سنة ١٣٠٩ من الهجرة ونوفمبر سنة ١٩٤٠ من الميلاد

مراقب المنطقة

ختم المنطقة

كل كشط أو تغيير فى هذه الشهادة يلغيها

توقيع صاحب الشهادة بخط يده

رفعت على الجمال

Rifat aly El gammal

سلمت فى ٢١/٥ سنة ١٩٤١

سجلت برقم ٢٢

● الشهادة الابتدائية لرفعت الجمال التى حصل عليها عام ١٩٤٠

מדינת ישראל - משרד הפנים
دولة اسرائيل — وزارة الداخلية

תעודת זהות
بطاقة هوية

ניתנה במשרד הרישום
اصدرت بمكتب التسجيل

תאריך
التاريخ

שר הפנים
وزير الداخلية

מנהל הלשכה
مدير المكتب

3

לתשומת לבם של נושאי תעודת זהות!

1. נושא תעודת זהות זו רשאי להשתמש בה כאמצעי זיהוי.
2. המוסר תעודת זהות לאדם אחר בלא הרשאה חוקית יאשם בעבירה.
3. מוצא תעודת זהות של הזולת, חייב למסור אותה מיד לתחנת המשטרה הקרובה לו ביותר, או למשרד רישום התושבים.
4. לא יטביע אדם, פרט לפקיד רישום, חותמת בתעודת זהות ולא יציין בה סימן אלא לפי היתר מאת שר הפנים.
5. מתפקידו של משרד הרישום לחדש תעודת זהות ולרשום בה שינויים. לכן, אם ברצונך לשנות פרט מהפרטים הרשומים בתעודה — עליך לבקש שהדבר יעשה על ידי משרד הרישום אשר במקום מגוריך.
6. אסור להשמיד תעודת זהות או חלק ממנה.

שם משפחה
اسم العائلة او الحمولة

השם הפרטי
الاسم الاول

שמות ההורים
اسماء الوالدين

תאריך הלידה 23.8.1919
تاريخ الولادة

מקום הלידה
مكان الولادة

המין והמצב המשפחתי
الجنس والحالة المدنية

הלאום
القومية

הקומה 175
الطول

צבע העינים
لون العينين

צבע השער
لون الشعر

כתובת המען
السكن 24

5

החתימה בעל התעודה
توقيع حامل البطاقة

מס׳ הזהות 7 8 9 0 4 8 1

4

● بطاقة هوية جاك بيتون الصادرة من دولة إسرائيل .

Dr. Dubner
31 Allenby Road, Tel Aviv

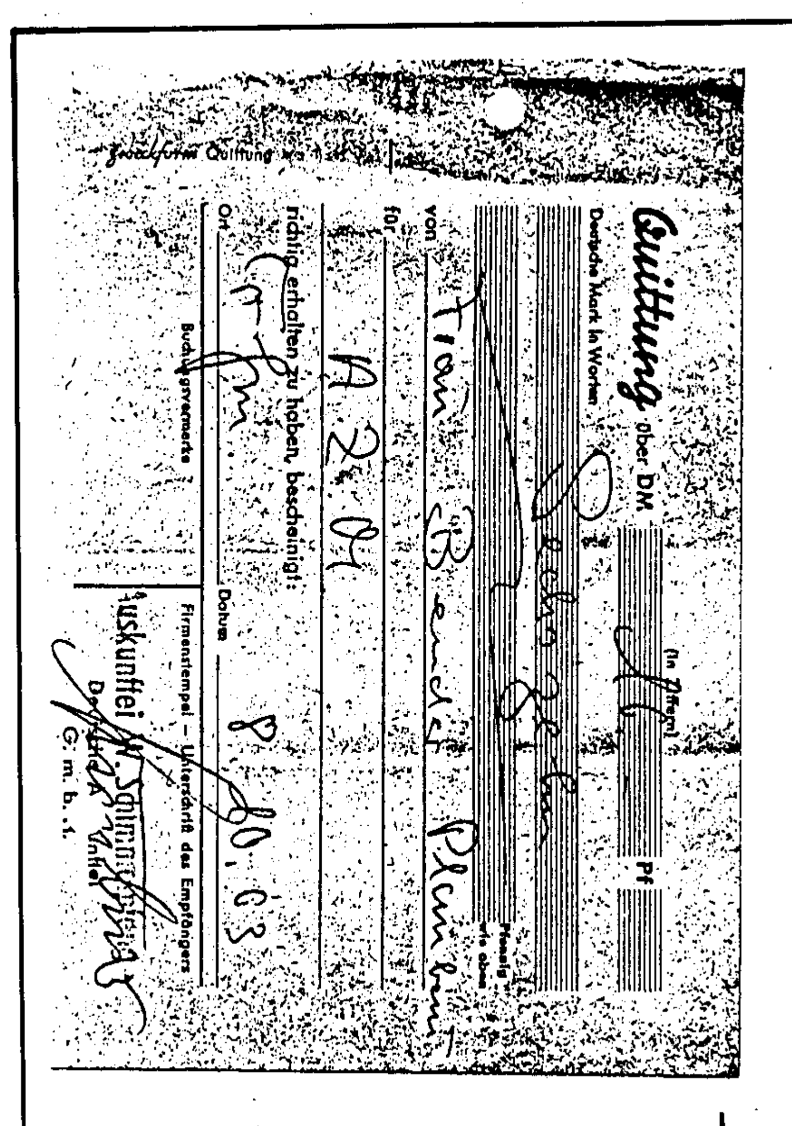
Jack Bitton

CITOUR
INTERNATIONAL TRAVEL LTD.

2, BRENNER ST.
TEL-AVIV, ISRAEL
Tel. Office 67959
" Home 41975

Dr. Dubner,
Please do every thing needed for the young lady & all charges on me.
Thanks
J. Bitton

● بطاقة زيارة جاك بيتون وبها اسم شركته « سى تورز »،
وعنوانها ٢ شارع برينر ، تل أبيب .


Quittung über DM 16,– Pf

Deutsche Mark in Worten: Sechzehn

von Firma Planbau

für A 204

richtig erhalten zu haben, bescheinigt:

Ort: Ffm Datum:

Buchungsvermerk

Firmenstempel – Unterschrift des Empfängers

Auskunftei W. Schimmelpfeng Deutsche Auskunftei G.m.b.H.



Schimmelpfeng

Auskunftei W. Schimmelpfeng – Deutsche Auskunftei GmbH

Kreditschutz-Verein Schimmelpfeng e.V.

Inliegend Zuschlagmarken im Werte von DM 16.–

Diese Zuschlagmarken werden von der Auskunftei W. Schimmelpfeng – Deutsche Auskunftei GmbH für Auslandszuschläge wie auch vom Kreditschutz-Verein Schimmelpfeng e.V. für Bearbeitungsgebühren entgegengenommen.

Schimmelpfeng

Auskunftei W. Schimmelpfeng - Deutsche Auskunftei GmbH.

Gegründet 1872

6000 Frankfurt (Main 1)
Postscheck: Frankfurt-Main 346 60 · Banken in Frankfurt: Commerzbank AG, Deutsche Effekten- u. Wechselbank · Deutsche Bank AG. · Dresdner Bank AG. · Frankfurter Bank · Frankfurter Sparkasse von 1822, 278 912 · Schimmelpfeng-Haus, Am Hauptbahnhof 6 · Fernruf Sa.-Nr. 33 09 31 · Fernschreiber 041-1403 · Drahtwort Awesda

7500 Karlsruhe
Postscheck: Karlsruhe 10 33 · Bank: Volksbank Karlsruhe e.G.m.b.H. · Zähringerstr. 79 Postfach 1452 · Fernruf 2 66 17/18/19 · Fernschreiber 0782-813 · Drahtwort Awesda

6800 Mannheim 1
Postscheck: Karlsruhe 194 90 · Bank: Dresdner Bank AG. Mannheim · Mannheim L 11, 13 Fernruf 2 16 28, 2 16 29 u. 2 16 20 · Fernschreiber 04-63257 · Drahtwort Awesda

7000 Stuttgart
Postscheck: Stuttgart 453 · Banken in Stuttgart: Commerz- und Creditbank AG., Württembergische Landessparkasse · Städt. Girokasse Stuttgart Nr. 3 863 Fernruf 29 69 41 und 29 69 42 · Fernschreiber 072-3647 · Drahtwort Awesda

Firma
Planbau GmbH.,

6000 Frankfurt/Main
Im Trutz 47

Ihre Konto-Nr. 2- Tag **RECHNUNG**

Überweisungen an Bank- oder Postscheckkonto der zuständigen Niederlassung (siehe nebenstehend)

Frankfurt/Main

	DM
1. Jahresbeitrag	
2. Für Abonnement	
3.	
4. abzüglich verrechnete Anfragescheine	
5.	
6. Einführungsbrief	
7. Ausfertigungs- und Versandkosten	
8. Fernschreibdienst	
9. Mahnauftragshefte mit Auftragsscheinen	
10. Zuschlagsmarken für insges. DM 16,--	16,--
abzüglich Rabatt	
4 Wochen 8 Tage nach Rechnungserteilung. Gesamt:	16,--



Seit 1872

Erteilung dieser Auskunft vertraulich im Rahmen unserer Geschäftsbedingungen. Diese Auskunft ist nur für Anfragenden bestimmt. Soweit handelsüblich (Banken, Finanzierungsinstitute usw.) Weitergabe an Dritte erfolgt, anerkennen Dritte mit Kenntnisnahme, daß wir – Auskunftei – für Inhalt der Auskunft und Verschulden unserer Erfüllungsgehilfen nicht haften. Die Auskunft bleibt Eigentum der Auskunftei, sie ist auf Verlangen zurückzugeben.

Schimmelpfeng Auslandsdienst

Jack Bitton

Israel
Tel-Aviv
2, Brenner Street

Uns wird berichtet:

Jack Bitton wurde etwa im Jahre 1923 geboren; er ist ledig und wohnt private in der 12, Haofakim Street, Afeka.

Bitton ist Direktor und Aktionär der Firma " Citor International Travel Ltd. ", einer im Jahre 1956 gegründeten und eingetragenen Gesellschaft. Die weiteren Aktionäre sind Dr. Dr. Imre Fried und ein anderer Teilhaber. Die Firma betreibt an der obigen Anschrift eine Reiseagentur. 2 Angestellte werden beschäftigt.

Bitton gilt als rühriger und tüchtiger Kaufmann, der mit seiner Branche gut vertraut ist. In persönlicher Hinsicht erfreut er sich eines guten Rufes. Seine Lebensweise ist solide.

Bitton hat in dem genannten Unternehmen etwa isr. £ 35-tausend investiert. Haus- und Grundbesitz ist nicht vorhanden. Die finanziellen Verhältnisse Bitton's gelten als geordnet. Bisher ist er seinen Verpflichtungen, wie nicht anders bekannt, ordnungsgemäss nachgekommen. Das Gesamturteil lautet vertrauensvoll.

Bankverbindung: Israel Discount Bank Ltd. und Bank Leumi LeIsrael beide Tel-Aviv

3- RI 62



Waltraud Bender

Zettel Nr. 001/Heft Nr. 1/47525

6 Frankfurt/Main
Martin Lutherstr. 59

\D 10/62 O

● ورقة معلومات عن جاك بيتون قدمتها شركة Schimmelpfeng Auslandsdienst بناء على طلب فالتراود بندر ، وجاء فيها أنه رجل أعمال حسن السمعة من تل أبيب . وأنه ولد نحو عام ١٩٢٣ ، ولديه شركة سياحية وأنه جدير بالثقة .

☎ 49 6103 52178 BITTON 13/01 '94 13:06 S01

Büro Akoury

نديم عاقوري

المكتب الاستشارى للهندسة والترجمة

ترجمة مصدقة من اللغة الالمانية

وثيــــــــقة الزواج

مصلحة الاحوال المدنية فرانكفورت على الماين/وسط رقم ٢٩٧١

تم عقد زواج

جاك بيتون

يهودي ، مولود بتاريخ ٢٣ اغسطس ١٩١٩

فى المنصورة ، مصر

(بدون وثيقة اثبات)

مقيم فى تل ابيب ، اسرائيل

على

هيلداجارد فالتراود بندير و اسم اسرتها شالت

بروتستنتية ، مولودة بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٤١

فى فرانكفورت على الماين

(مصلحة الاحوال المدنية رقم ٢ حاليا وسط ، فى فرانكفورت على الماين، رقم ١٠٦٢)

مقيمة فى حوتسينهاين ، دائرة اوفنباخ

يوم ١٠ يوليو ١٩٦٤ امام موظف الاحوال المدنية فرانكفورت على الماين/وسط

فرانكفورت على الماين فى ١٠ يوليو ١٩٦٤

الموثق

(توقيع)

رايش

ختم مصلحة الاحوال المدنية

Die Richtigkeit und Vollständigkeit der Übersetzung wird beglaubigt.
Der in Deutscher Sprache abgefaßte Ursprungstext hat als Original/~~Abschrift/ in sonstiger Vervielfältigung in nicht/~~ beglaubigter Form vorgelegen.
Frankfurt am Main, den 06.09.90

Nadim AKOURY Dipl.-Dolm. Dipl.-Ing. (FH)
Allg. vereidigter Dolmetscher d. arabischen u. französischen Sprache f. Gerichte u. Notare im Lande Hessen

ترجمة مصدقة
٦/٩/٩٠
نديم ابل عاقوري

F

Heiratsurkunde

(Standesamt Mitte in Frankfurt am Main ——— Nr. 2971)

Jack Bitton, ---------------------------

----

israelitisch-, geboren am 23. August 1919--

in Mansoura, Ägypten -----------------

(~~Standesamt~~ urkundlich nicht nachgewiesen-

-------------------------~~Nr.~~-----------)

wohnhaft in Tel Aviv, Israel -------------

--------------------------------------, und

Hildegard Waltraud Bender geborene ---

Spalt, ------------------------------

evangelisch --, geboren am 2. Dezember 1941-

in Frankfurt am Main -----------------

(Standesamt II jetzt Mitte in Frankfurt am-

Main ------------------ Nr. 1062 -----)

wohnhaft in Götzenhain, Kreis Offenbach ----

----

haben am 10. Juli 1964 --- vor dem Standesbeamten des Standesamts Mitte in Frankfurt am Main die Ehe geschlossen.

Frankfurt am Main, den 10. Juli 1964 --

Der Standesbeamte

(Siegel)

STANDESAMT MITTE IN FRANKFURT A. M. 11

(Selche) Rü

13

I/KB 9/oL

● عقد زواج جاك بيتون وفالتراود بندر (ألماني / عربي) .

gemeinsames Kind

Geburtsurkunde Ea

(Standesamt Frankfurt a.M. Nr. 12290 --)

Erich Daniel Bitton

ist am 31. Oktober 1964

in Frankfurt a.M.

geboren.

Eltern: Jack Bitton und Hildegard Waltraud Bitton geborene Spalt, beide wohnhaft in Götzenhain, Kreis Offenbach.

Änderungen des Geburtseintrags:

Frankfurt a.M., den 3. November 1964

Der Standesbeamte

(Siegel)

Ergänzungen*)

*) Die Übereinstimmung mit dem Eintrag im Personenstandsbuch ist vom Standesbeamten unter Angabe von Ort und Tag mit Unterschrift und Siegel zu beglaubigen

Best.-Nr. FS 7

● شهادة ميلاد دانييل فى ٣١ أكتوبر ١٩٦٤ .

Kirchliche Bescheinigungen für das umseitig bezeichnete

Kind: Erich Daniel
(Vornamen)

Taufe

Getauft am 10. Januar 1965

~~in der~~ im Hause

zu Götzenhain

durch Pfarrer W. Leiter

Paten: Erich Knöll, jun.

Taufprotokoll: S. 73, 23

Götzenhain, den 11. 1. 1965

(Siegel) Pfarramt

Tauf-Reg. Nr. 7/65

am

in der

zu

durch

, den

(Siegel) Das Pfarramt

Reg. Nr.

● وثيقة تعميد دانييل .

gemeinsames Kind [1])

Geburtsurkunde

Ea

(Standesamt Mitte in Frankfurt a. M. Nr. 9978-/-)

Andrea Elisabeth Bitton-/-

-/-

ist am 2. November 1959-/-

in Frankfurt am Main-/-

-/- geboren.

Eltern: Friedrich Wilhelm Bender und-/-

Hildegard Waltraud Bender geb. Spalt,

beide evangelisch und wohnhaft in

Frankfurt am Main.-/-

Änderungen des Geburtseintrags: Der Ehemann der Mutter, Jack Bitton, wohnhaft in Frankfurt am Main, hat das Kind an Kindes Statt angenommen.-/-

Frankfurt am Main, den 17. Juli 1969

(Siegel)

Der Standesbeamte

(Berndt)

Ergänzungen [2])

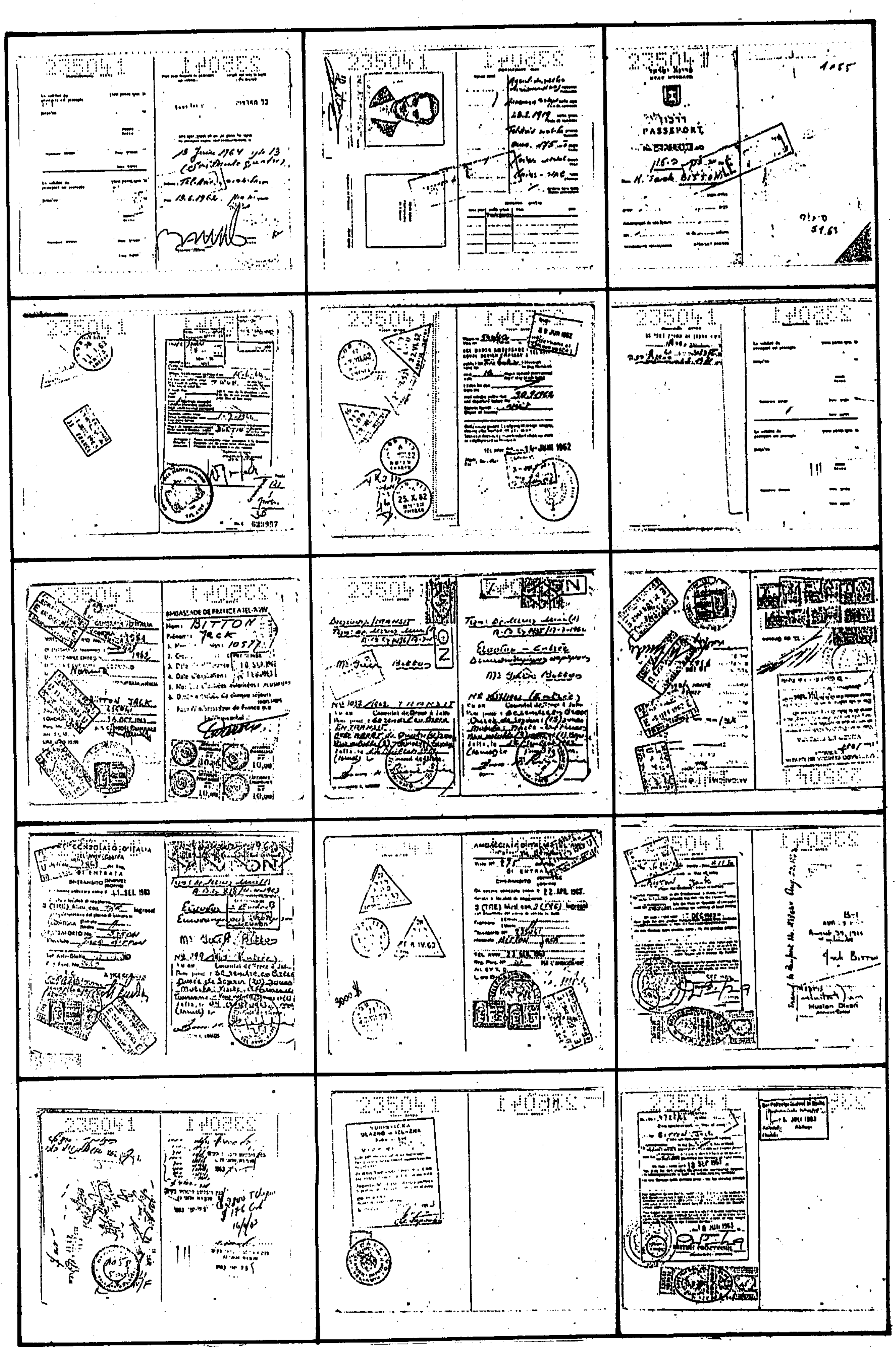
Ste

[1]) Auch für ein an Kindes Statt angenommenes, vorher eheliches Kind.

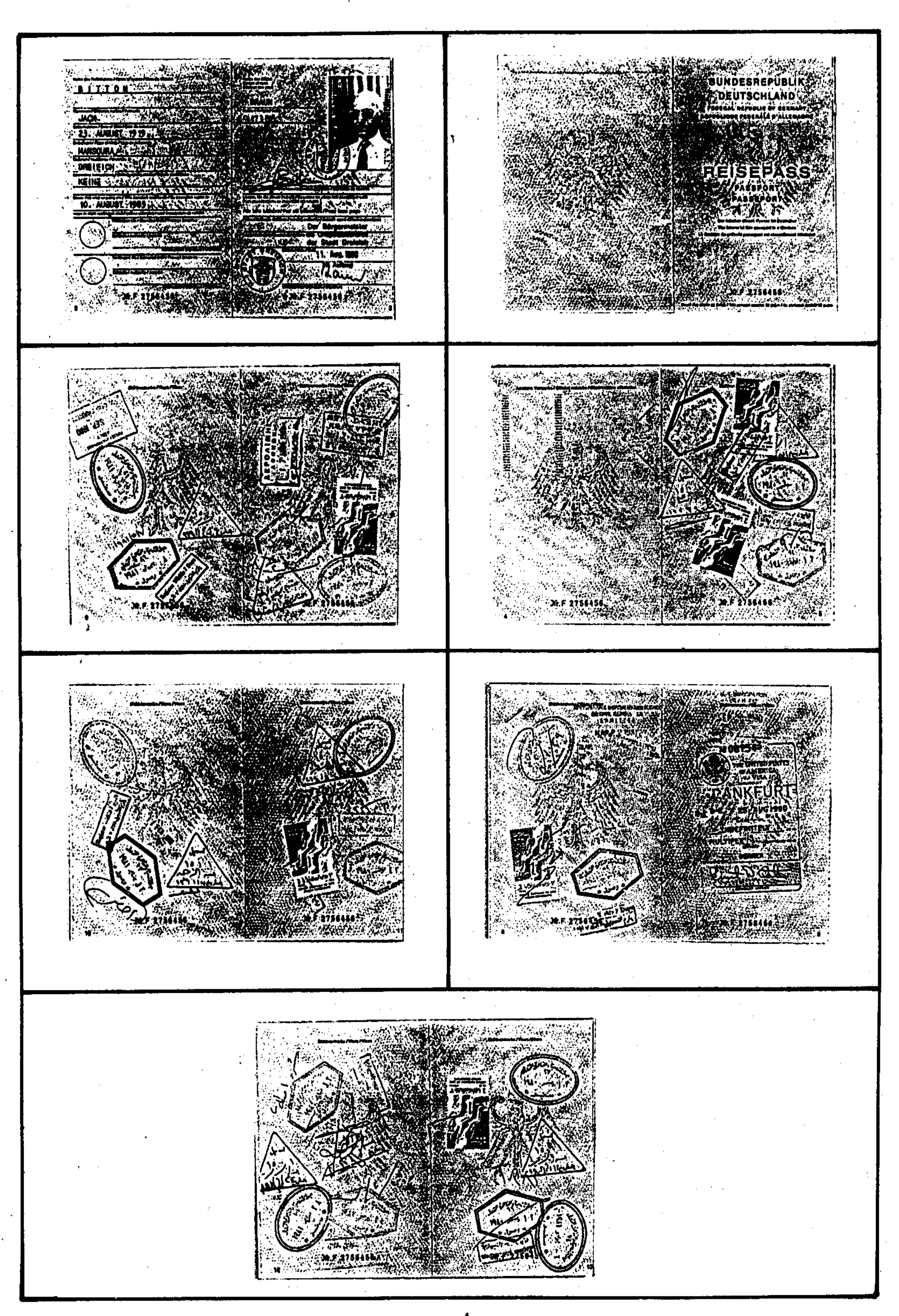
[2]) Die Übereinstimmung mit dem Eintrag im Personenstandsbuch ist vom Standesbeamten unter Angabe von Ort und Tag mit Unterschrift und Siegel zu beglaubigen.

Best.-Nr. FS 8

● شهادة ميلاد أندريا .



● جواز سفر جاك بيتون الصادر من دولة إسرائيل فى ١٣ / ٦ / ١٩٦٢ .



● جواز سفر جاك بيتون الألمانى الصادر فى ١١ / ٨ / ١٩٨٠ .

Büro Akoury

نديم عاقوري

المكتب الاستشاري للهندسة والترجمة

ترجمة مصدّقة من اللغة الالمانية

جمهورية المانيا الاتحادية

وثيقة منح الجنسية

يحمل

جاك سيتون ، جوشينهاين
(الاسم و محل الاقامة)

المولود بتاريخ ١٩١٩/٨/٢٣ فى المنصورة

و الطفل الذى يمثله قانونيا بصفته والده

١-ايرش دانيال المولود بتاريخ ١٩٦٤/١٠/٣١ فى فرانكفورت على الماين

على الجنسية الالمانية فور استلامه هذه الوثيقة . و تمنح الجنسية فقط للاشخاص الواردة اعلاه فى هذه الوثيقة .

دارمشتاد فى ٢٦ ابريل ١٩٧٣

المحافظ فى دارمشتاد

عنه بالنيابة

(توقيع) ختم المحافظ

سلم يوم ٢ مايو ١٩٧٣

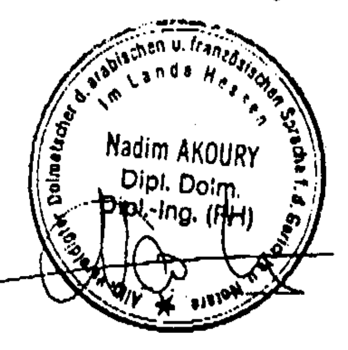
دائرة اوفنباخ الرسوم : ١٥٠٠ مارك المانى

مدير الدائرة

عنه بالنيابة

(توقيع) ختم مدير الدائرة

Die Richtigkeit und Vollständigkeit der Übersetzung wird beglaubigt.
Der in deutscher Sprache abgef. Ursprungstext hat als Original ~~Abschrift~~ in ~~sonstiger Vervielfältigung in nicht~~ beglaubigter Form vorgelegen.
Frankfurt am Main, den 06.09.90



ترجمة مطابقة
٩٠/٩/٦
نديم إيلي عاقوري

☎ 49 6103 52178 BITTON 13/01 .94 13:07 S02



BUNDESREPUBLIK DEUTSCHLAND

Einbürgerungsurkunde

Jack B i t t o n, Götzenhain,
(Namen, Stand und Wohnort)

geboren am 23.8.1919 in Mansoura,

sowie seine Ehefrau ------------------, geborene -------------------,

geboren am ------------- in ----------------------------------,

und folgende(s) von ihm (ihr) kraft elterlicher Gewalt gesetzlich vertretene(s) Kind(er):

1. Erich Daniel (Namen), geboren am 31.10.1964 in Frankfurt a.M.,
2. ------------, geboren am ---------- in --------------,
3. ------------, geboren am ---------- in --------------,

haben mit dem Zeitpunkt der Aushändigung dieser Urkunde die deutsche Staatsangehörigkeit erworben. Die Einbürgerung erstreckt sich nur auf die vorstehend aufgeführten Personen.

Darmstadt, den 26. April 1973

Der Regierungspräsident in Darmstadt

Im Auftrage

[Signature]

[Stamp: DER REGIERUNGSPRÄSIDENT IN DARMSTADT — Dienstsiegel]

Ausgehändigt am 02. Mai 1973

KREIS OFFENBACH

Der Landrat

Im Auftrag

[Signature]

[Stamp: KREIS OFFENBACH — DER LANDRAT]

Gebühr: - 1.500,-- DM

Gebührenkontrolle Nr.

Tgb.-Nr. III 7 - 1 c 04 - B

Art.-Nr. 16 002

© Bundesdruckerei 130 036 6000 8.71

P.Nr. 208

● وثيقة منح الجنسية الألمانية لجاك بيتون وابنه دانييل (ألمانى / عربى) .

BUNDESREPUBLIK DEUTSCHLAND
RÉPUBLIQUE FÉDÉRALE D'ALLEMAGNE
FEDERAL REPUBLIC OF GERMANY



Personalausweis
Carte d'Identité
Identity Card

Der Inhaber dieses Ausweises ist Deutscher
Le titulaire de la présente carte est ressortissant allemand
The holder of this identity card is a German

Nr.K 5231435

Name / Nom / Name
BITTON

Vornamen / Prénoms / Christian names
JACK

Geburtstag / Date de naissance / Date of birth
23. AUGUST 1919

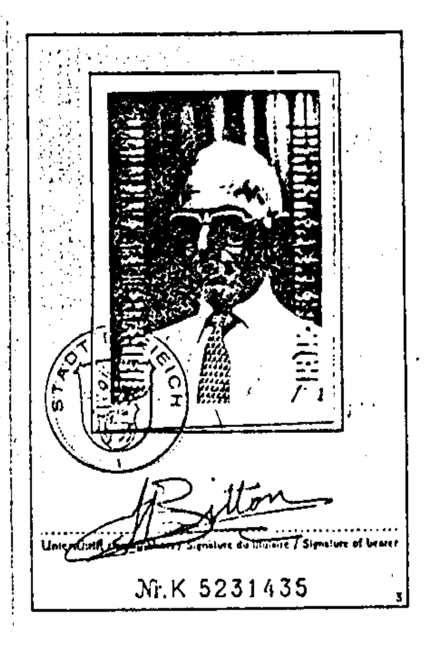
Geburtsort (Land, Kreis) / Lieu de naissance / Place of birth
MANSOURA

Größe / Taille / Height
173 cm

Farbe der Augen / Couleur des yeux / Colour of eyes
BRAUN

Unveränderliche Kennzeichen / Signes particuliers / Unchanging marks
KEINE

2 Nr.K 5231435



Unterschrift des Inhabers / Signature du titulaire / Signature of bearer

Nr.K 5231435 3

Dieser Ausweis ist gültig bis: 01. Sep. 1985 (einschl.)
Cette carte d'identité est valable jusqu'au (inclus)
This identity card is valid until (inclusive)

6072 Dreieich, den 02. Sep. 1980

Der Bürgermeister als Ortspolizeibehörde
Ort / Lieu / Place — Im Auftrag — Datum / Date / Date

Behörde / Autorité / Authority

STADT DREIEICH

Unterschrift / Signature / Signature

Verlängert bis (einschl.)
Prorogé jusqu'au (inclus)
Renewed until (inclusive)

Ort / Lieu / Place — Datum / Date / Date

Behörde / Autorité / Authority

Unterschrift / Signature / Signature

4 Nr.K 5231435

Verlängert bis (einschl.)
Prorogé jusqu'au (inclus)
Renewed until (inclusive)

Ort / Lieu / Place — Datum / Date / Date

Behörde / Autorité / Authority

Unterschrift / Signature / Signature

Wohnort und Wohnung
Domicile et adresse
Place of residence and address
DREIEICH
HÜGELSTR. 8

STADT DREIEICH

Zugezogen in (Wohnort und Wohnung)
Venu s'établir à (Domicile et adresse)
Moved to (Place of residence and address)

Nr.K 5231435 5

● بطاقة هوية جاك بيتون الألمانية .



BUNDESREPUBLIK DEUTSCHLAND

FEDERAL REPUBLIC OF GERMANY

REPUBLIQUE FEDERALE D'ALLEMAGNE

REISEPASS

PASSPORT

PASSEPORT

Der Inhaber dieses Passes ist Deutscher

The bearer of this passport is a German

Le titulaire du présent passeport est ressortissant allemand

Nr. F 5542339

Dieser Paß enthält 32 Seiten / This passport contains 32 pages / Ce passeport contient 32 pages



Name des Paßinhabers / Name of Bearer / Nom du titulaire

BITTON

Vornamen / Christian names / Prénoms

JACK

Geburtsdatum / Date of birth / Date de naissance

23. AUGUST 1919

Geburtsort / Place of birth / Lieu de naissance

MANSOURA

Wohnort / Residence / Domicile

DREIEICH

Besondere Kennzeichen

KEINE

Dieser Paß wird ungültig am / This passport expires on

09. JUNI 1986

wenn er nicht verlängert wird / unless extended

Verlängert bis / Extended until / Prorogé jusqu'au

Behörde / Authority / Autorité

Unterschrift / Signature / Signature

Verlängert bis / Extended until / Prorogé jusqu'au

Behörde / Authority / Autorité

Unterschrift / Signature / Signature

Nr. F 5542339

2

BRAUN

Größe / Height / Taille

173

Für alle Länder / For all countries / Pour tous pays

Der Bürgermeister als Ortspolizeibehörde der Stadt Dreieich

Datum / Date / Date 10. JUNI 1981

Im Auftrag

Unterschrift / Signature / Signature

STADT DREIEICH

Nr. F 5542339

3

● جواز سفر جاك بيتون الألمانى الصادر فى ١٠ / ٦ / ١٩٨١ .

Büro Akoury

نديم عاقوري

المكتب الاستشاري للهندسة والترجمة

ترجمة مصدّقة من اللغة الالمانية

شـــــــــــــهادة تسجيل وفاة

رقم ١٩٩/١٩٨٢

توفى

جاك بيتون

المقيم فى دراي ايش ، حي جوتسينهاين ، دائرة اوفنباخ

يوم ٣٠يناير ١٩٨٢ الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة .

و كان المتوفى مولود بتاريخ ٢٣ اغسطس ١٩١٩

فى المنصورة ، مصر.

و كان المتوفى متزوج من هيلدا جارد فالتراود بيتون و اسم اسرتها شبالت.

ختم مصلحة الاحوال المدنية فى دارمشتاد

حرر فى ٢ فبراير ١٩٨٢

موظف مصلحة الاحوال المدنية

(توقيع)

Die Richtigkeit und Vollständigkeit der Übersetzung wird beglaubigt.
Der in deutscher Sprache abgefaßte Ursprungstext hat als Original/~~Abschrift~~ ~~in sonstiger Vervielfältigung in nicht~~ beglaubigter Form vorgelegen.
Frankfurt am Main, den 06.09.90



ترجمة مصدقة
٩٠/٩/٦
نديم إيلي عاقوري

49 6103 52178 BITTON 13/01 '94 13:07 S03

Ehemann

Sterbeurkunde

G

(Standesamt Darmstadt ≁ Nr. 199/1982)

Jack Bitton, ≁

wohnhaft in Dreieich, Stadtteil Götzenhain, ——
Landkreis Offenbach, ≁

ist am 30. Januar 1982 ≁ um 12 Uhr 30 Minuten

in Darmstadt ≁

verstorben.

Der Verstorbene war geboren am 23. August 1919 ≁

in Mansoura, Ägypten. ≁

Der Verstorbene war verheiratet mit Hildegard ——
Waltraud Bitton geb. Spalt. ≁

Darmstadt, den 2. Februar 1982

Der Standesbeamte

Schäfer

DER STANDESBEAMTE IN DARMSTADT

Gebühr DM 1.– bezahlt

Die kirchliche Bestattung fand statt am ....

auf dem .... Friedhof zu ....

.... durch ....

.........., den ....

(Siegel) Das .... Pfarramt

Reg. Nr. ....

Best.-Nr. FS 10

● شهادة وفاة جاك بيتون فى ٣٠ يناير ١٩٨٢ الساعة ١٢ والدقيقة ٣٠ (ألمانى / عربى) .

رقم الإيداع

٤٢٣٠ / ١٩٩٤

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

١٨ عامًا خداعًا لإسرائيل

قصة الجاسوس المصرى رفعت الجمال

يعرض هذا الكتاب القصة الحقيقية لرفعت الجمال ، أو جاك بيتون ، الجاسوس الذى زرعته مصر فى إسرائيل مدة طويلة ، قضاها فى عقر دار العدو لم يسبقه إليها أحد دامت ١٨ عاما . ولم يتوصل أحد مثله لصداقة الصف الأول من قيادة البلد المعادى ، بن جوريون ، جولدا مائير ، عزرا وايزمان ، موشى ديان ، تيدى كوليك ، حتى أن ديان رشحه وزيرا فى حكومة إسرائيل لكن الجمال رفض .

لم يخط هذه القصة قلم كاتب أو مؤلف ، بل كتبها بطلها بخط يده عندما علم أن أيامه فى الحياة باتت معدودة لاصابته بالسرطان ، وتركها لدى محاميه وطلب منه ألا يسلمها لزوجته إلا بعد ٣ سنوات من وفاته لأسباب بينها . وقد أضافت زوجته إليها ، ظروف لقائه بها وحياتهما معا فى إسرائيل وألمانيا ، وعلاقتهما بقادة إسرائيل ، وما حدث بعد رحيله .

الناشر

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر


حصريات


مجلة
الابتسامة